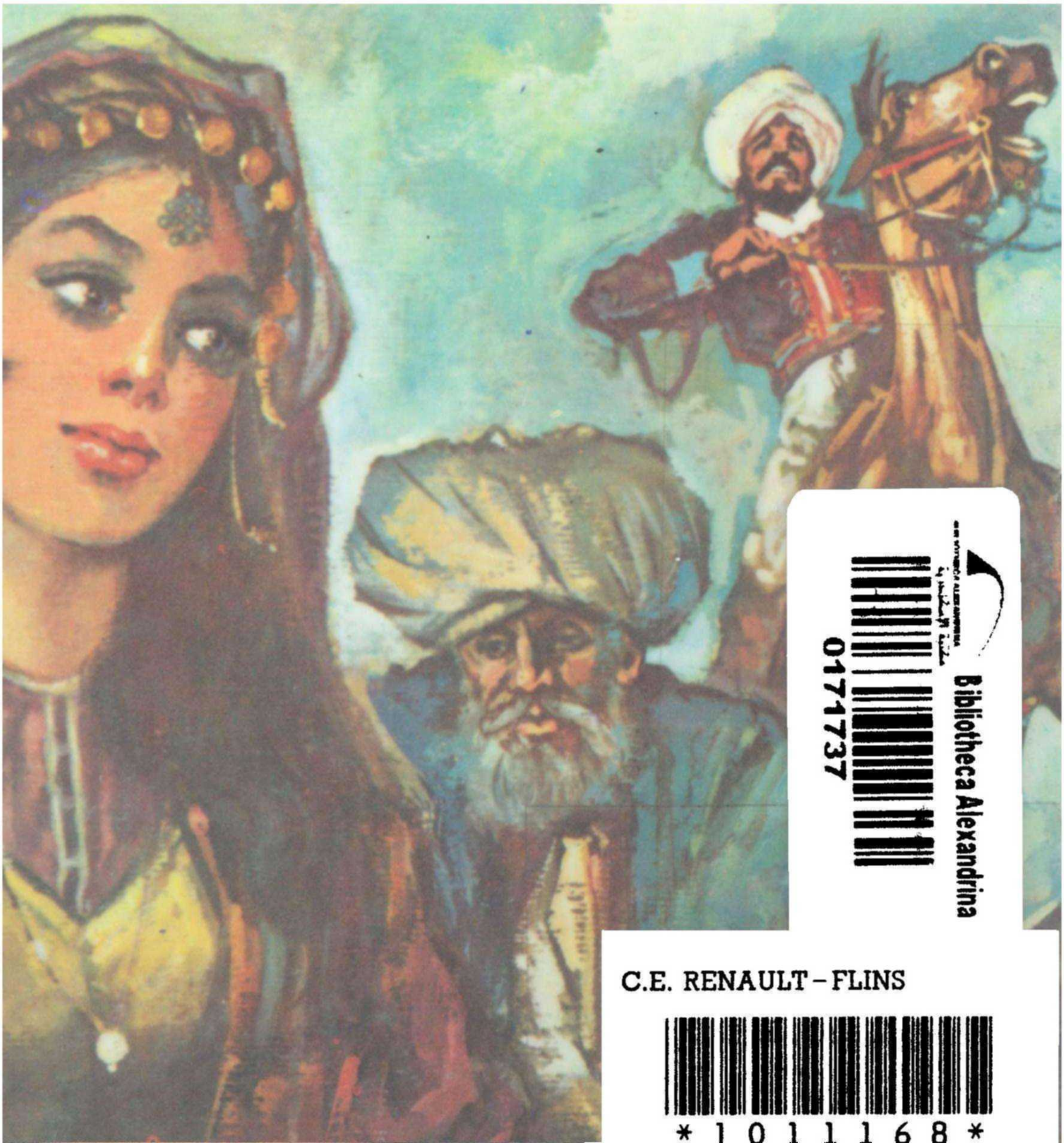
روايات تاريخ الإسلام

عذراء قريش

جرجي زيدان



عذراء قريش

الرواية الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام علي ، وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعتي الجمل وصفين الى تحكيم الحكمين وخروج مصر من خلافة الامام علي

جرجي زيدان

المكتبة الادبية - بيروت

أبطال الرواية

✡ **عثمان بن عفان**	: ثالث الخلفاء الراشدين
✡ **على بن ابى طالب**	: رابع الخلفاء الراشدين
✡ **عائشة ام المؤمنين**	: زوجة النبى صلى الله عليه وسلم
✡ **نائلة بنت القرافصة**	: زوجة الخليفة عثمان
✡ **محمد بن ابى بكر الصديق**	: اخو عائشة
✡ **عذراء قريش**	: اسماء بنت مريم
✡ **مريم ام اسماء**	: من سبايا فتح مصر
✡ **مروان بن الحكم**	: ابن عم عثمان بن عفان
✡ **معاوية بن ابى سفيان**	: اول ملوك الدولة الأموية
✡ **عمرو بن العاص**	} الحكمان فى الخلاف
✡ **ابو موسى الاشعرى**	بين على ومعاوية

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هى التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

✡ معجم يا قوت	✡ تاريخ الخميس
✡ السيرة الحلبية	✡ صحيح البخارى
✡ قاموس الاسلام	✡ مراصد الاطلاع
✡ صفوة الاعتبار	✡ نهج البلاغة
✡ أسد الغابة	✡ كتب تاريخ : ابن الاثير ـ المسعودى
✡ الأغانى للاصفهانى	ـ الدميرى ـ أبو الفداء ـ
✡ العقد الفريد	ابن خلدون ـ ابن هشام

سر ذاهب إلى القبر

« قباء » : قرية على بعد ميلين من المدينة المنورة «يثرب». اشتهرت بعد الهجرة برسول صاحب الشريعة الاسلامية بها فى أثنــاء هجرته الى المدينه وبنائه فيها مسجدا هو أول مسجد فى الاسلام

وكانت قباء قد اشتهر امرها وعرفت مكانة مسجدها فى خلافة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وبعد اتخاذ المدينة عاصمة ، وقد عنى الخلفاء بتحسين ذلك المسجد وبخاصة الخليفة عثمان اذ وسعه وزاد فيه وخصص نفرا لخدمته . على أن ذلك لم يزد كثيرا فى سكان قباء نفسها

وكان لذلك المسجد فى اواخر خلافه عثمان خادم طاعن فى السن اسمه « عامر » شهد بناء المسجد ، ورأى صاحب الشريعة يوم نزل هناك وامر ببنائه ، فأقام عامر بقباء هو وعياله ، يقضى نهاره فى خدمة المسجد وتنظيفه ، فاذا فرغ من ذلك خرج بأولاده يرعى ابل أحد اغنياء المدينه فى بعض الأوديه الكثيرة فى تلك المنطقة

ففى مساء يوم من أيام سنة ٣٥ من الهجره ، خرج الشيخ لرعاية الابل فأوغل فى بعض الأودية حتى اقترب الغروب فأسرع بالرجوع راكبا ناقته وقد أرخى لها الخطام واخرج مسلة مغروسه فى شعر رأسه المتلبد ووخز بها الناقة بين جنبيها استحثاثا لها على المسير فطارت به ، وكان اولاده يتبعونه على بقية النوق وقد ركب أصغرهم ناقة عارية ، ووضــع آخر أمامه على ناقتــه أحتطابا جمعهــا من غصــون الشجر المتساقطه ليوقدوا نارهم بها ، وكانت النوق كلها مطلقة الزمام . والشيخ أعجل الجميع خشية أن تغيب الشمس ويحين وقت صلاة المغرب قبل وصوله. ورأى الشمس كأنها تسرع فى الغروب فخيل اليه أنها تسابقه فجعل يستحث ناقته ، غير عابىء بجمال الصــحراء فى تلك الساعة ، اذ امتدت الظلال حتى اختلط بعضها ببعض، فلم يفرق بين ظلال النخيل وظلال غيرها من الشجر ، وبين ظلال الآدميــين . وكذلك غفل الشيخ لعجلتــه ولهفتــه عن الشذا المنبعث من نبات الصحراء . ولم يستوقف سمعه شدو الطيور ولا نقيق الضفادع .

على أنه لم يكد يشرف على قباء حتى سمع رغاء الجمال وصهيل الخيل، ولما قارب المسجد راى هنالك ركبا معهم الجمال والاحمال فلم يستغرب ذلك اذ تعود أن يرى كثيرا من امثاله كل عام ، لأن القوافل كانت تمر بقباء فى طريقها الى المدينة فتقف للراحة والاستقاء . فازداد رغبة فى العجلة ليقوم بخدمة القادمين ، والتفت خلفه ونادى أحد اولاده و قال له : « أسرع الى البيت وعد الى بجرة الماء لعل فى الركب من يحتاجون اليه »

□

وظل الشيخ مسرعا ، وكلما اقترب من المسجد وتوقع أن ينبين الوجوه حجبها عنه تكاثف الشفق حتى وصل فاذا الركب بضعة رجال وفتاة، ومعهم خيل وجمال . وقد تجمعوا بحنو ولهفة حول هودج عليه الأستار وفيه مريض يحاولون اخراجه الى مقعد فى خيمة نصبوها بالقرب منه ، وما أن استخبرهم حتى علم انهم قادمون من الشام الى المدينة ، فعجب لمرورهم بقباء وهى ليست فى طريقهم اليها . ونظر الى كبيرهم فاذا هو كهل عليه لباس عرب الشام من القباء والرداء والعمامة ، وبجانبه شاب حسن البزة عليه عباءة من الصوف وسيفه مرصع ، ووراءه خادم يحمل له الرمح والنبال، وعلى مقربة منهما فتاة غضة الشباب مشرقة ممتلئة صحة ونشاطا ، على راسها عقال. وزاد فى اشراق وجهها ما اكتسبه من التورد على أثر التعب وركوب الجواد اياما فى الصحراء . فلما رآها الشيخ استرعى انتباهه ما آنسه فيها من شدة الاهتمام بأمر المريض ، ورآها ترشدهم كيف يحملونه و يغلونه ويعتنون به . فترجل الشيخ عن ناقته وصاح : «أهلا بوجوه العرب». ثم تقدم لمساعدتهم وتفرس فى المريض فاذا هو امراة فى جدود الأربعين قد بلغت منتهى الضعف حتى يحسبها الناظر اليها ميتة . واشارت اليه الفتاة الا يدنو من المريضة لأنهم يريدون حملها بانفسهم . فتنحى وأمر اولاده أن يساعدوا الخدم فى نصب الخيام وانزال الأحمال ، وسقى الجمال والخيل وغير ذلك ، وسار هو الى المسجد للأذان والصلاة

واستمر الرجال فى نقل المريضة ، وكانت الفتاة واسمها « أسماء » لا تنى فى اعداد كل وسائل الراحة لها ، ولا عجب فالمريضة امها وقد شبت على حبها . أما الكهل فزوج المريضة ، واسمه « يزيد » وكان قليل العناية بأمرها الا بما توحيه اليه الفتاة . وأما الشاب فاسمه « مروان » وكان الزهو ظاهرا فى وجهه لقرابته من الخليفة عثمان ابن عفان

ولما حلوا المريضة الى فراشها ، جلست اسماء بجانبها ، واخذت تمسح العرق المتصبب من وجهها وهى غائبــة عن الصواب ، وكانت الدموع تملأ عينى الفتاة ولكنها كانت تتجلد لئلا يغلبها البكاء فتسمعه امها فيزداد تألمها . وكانت تمسح دموعها خلسة ونظرها لايتحول عن وجه المريضة لحظة

ولما أرخى الليل سدوله ، جاءهم عامر بمصباح أدخلوه الخيمة ، والفتاة لا تفتأ تنظر الى امها لعلها تفتح عينيها او تحرك شفتيها او تلتمس امرا فتقدمه لها ، غير عابئة بالكهل زوج امها ، ولا بذلك الشاب الذى قطع البرارى والقفار فى خدمتها عساه أن ينال حظوة فى عينيها. وكان الشاب قد طلب الاقتران بها منذ كانوا فى الشام فلم ترض به هى ولا أمها ، وان رضى به يزيد رغبة فى الدنيا وطمعا فى منصب يناله . ولم يكن يعطف على الفتاة ، لأنها ليست ابنته ولا يعرف لها أبا ، اذ كانت امها حين تزوجها سبية من سبايا مصر يوم فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة ، وكانت هى فى الثانيــة من عمرها حينذاك . وبعد فتح الاسكندرية عاد بهما الى الشام فاقام فيها مع ذوى قرباه من بنى امية

وكان يزيد كهلا اشيب الشعر ، قصــير القامة ، خفيف العضــل ، متجعد الوجه ، غائر العينين ، يحب المــال حبا جمــا ، وكان الى ذلك سيء الخلق . واعتقد اهل الشام أن اسماء ابنته ، وان عجبوا لاختلافهما خلقا وخلقا . فقد كانت على جانب عظيم من المهابة والجمــال ، جمعت بين لطف النساء وحزم الرجال وشجاعتهم ، وكان الناظر اليها لا يسعه الا ان يحترمها ، فاذا خاطبهــا آنس منها رقة وانفة ودعة واريحية . وكانت ربعة ممتلئة ، حنطية اللون ، سوداء العينين حادتهما ، طويلة الاهداب ، مقرونة الحاجبين ، دقيقة الفم ، سهلة الجبين تغضى العيون مهابة التفرس فى وجهها . اشتهرت بين أهل الشام بكل خلق حسن ، وأحبها مروان وجعل يتقرب منها وهو يحسب تقربه منة وكرما . وانها لا تلبث ان تطير فرحا لأنها من عامة الناس وهو ابن عم الخليفة عثمان . وكان الخليفة يؤثر ذوى قرباه من بنى اميــة ويقــدمهم فى مناصب الدولة ويفتــح لهم ابواب الرزق ، الامر الذى ادى الى قيــام المسلمين عليه حتى تحدثوا فى عزله وكانت الفتنة المشهورة . وظل مروان يتردد على منزل يزيد وكلاهما من بنى امية ، فيحتفل يزيد به ويود لو يتزوج أسماء فيحظى من الخليفة بمنصب ، فلما خاطبه مروان فى ذلك أكد له انه نائل الفتاة لا محالة ، اعتمادا على ان القول قوله فى أمر زواجها .

ولكنه ما أن خاطب امراته فى الامر حتى رأى منها اعراضا واباء ، وكلما الح بشدة عليها راحت تماطله . وادركت الفتاة ما بينهما من اجلها فاشتد نفورها من مروان ، لأنها لم تكن تعتد بزخارف الدنيا ولكنها كانت تهوى الشهامة وكرم الاخلاق ، فلم يقع مروان من نفسها موقع القبول . ولما ازداد الحاح يزيد خشيت الأم أن يستعمل العنف فى تنفيذ مأربه واستولى عليها القلق ، حتى نزل بها الداء ووهنت قواها ، فخافت الموت ، وطلبت أن تحمل الى المدينة على ان تجيب طلب مروان هناك

وسر بذلك مروان ، اذ حدثته نفسه بأنه اذا جاء المدينة كان بالقرب من ابن عمه الخليفة عثمان ، فلا تعود الأم الى التردد خشية غضبه . وكان السفر سببا فى اشتداد مرض الأم وأسماء لا تعلم سر ذلك الانتقال ، حتى خلت ذات يوم الى أمها وعاتبها على ما حملت نفسها من المشقة ، فأسرت هذه اليها أنها تنوى الاستجارة بعلى بن أبى طالب لعله ينقذها لما اشتهر به من اغاثة المظلومين ، ولما له من المكانة عند الخليفة والمسلمين

وما زال المرض يشتد بالأم يوما بعد يوم . وزوجها ومروان يودان لو قضت نحبها قبل الوصول الى المدينة . لأنهما عرفا شيئا عن حقيقة غرضها ، فكانا يطيلان مدة السير ويقودان القافله فى طرق طويلة حتى مروا بقباء وهى فى الجنوب الشرقى من المدينة

□

كانت الأم المريضة ــ واسمها «مريم» ــ بيضاء ، تحبو الى الاربعين من عمرها ، رومانية الملامح ، كبيرة العينين ، وقد زادهما الضعف جحوظا . وكانت منذ نقلوها الى الفراش فى سبات عميق وأسماء بجانبها تمرضها ولا تأذن لاحد ان يأتى بحركة لئلا يزعجها . ولكنها لخوفها على امها لم تكن تستطيع النظر الى ذلك الوجه المتقع وتينك العينين الغائرتين والعنق المستدق ، وقد غطاه من الجانبين شعر اسود يخالطه بعض الشيب يبلله عرق الحمى فتجمع خصلا متلاصقة ، واشد ما كان يخيفها أن صدر أمها كان غائرا لفرط الضعف ، وان فمها اتسع واستطال حتى برز فكاه ، فلم تكن أسماء تتأمل فى ذلك المنظر حتى يختلج قلبها وتخاف الموت على والدتها فى تلك البرية . وكلما امسكت بيدها لتعرف مدى حرارتها أحست العرق البارد يبلل اناملها ، ومما زادها بلاء وشقاء ان يزيد ما برح منذ نزولهم معتكفا فى خيمة مروان ،

ولا يدخل خيمة امراته الا قليلا ، متظاهرا بالاهتمام بها ، بينما المكر والرياء ظاهران فى وجهه ، واما مروان فكان اذا دخل الخيمة دخل متبخترا لايدنو من الفراش ولكنه ينظر الى اسماء ويبتسم كانه يداعبها وهى لا تستطيع الابتسام ولا تطيق النظر اليه

فلما كان العشاء حركت النائمة رأسها وفتحت عينيها وحولت حدقتيها الى اسماء وقد بهتنا من شدة الضعف ، فهبت الفتاة واقفة وسألتها عما تريد ، فأشارت تطلب الماء فاسرعت الى القدح وادنته من شفتيها فشربت منه قليلا ، وانبسطت لذلك اسارير أسماء وعاودها الأمل ، ووقفت تنتظر ما تطلبه منها ، فلما لم تقل شيئا انحنت على جبينها وقبلته وامسكت يدها بلطف وقالت لها : « هل تريدين شيئا يا اماه ؟ »

فأجابتها بصوت ضعيف وعيناها شاخصتان اليها : « لا . لا اريد شيئا الا سلامتك ، ولكننى قد لا استطيع الوصول الى المدينة ، ولا اظننى أعيش الى الغد فقد شعرت بدنو الأجل ». قالت ذلك والدموع تتساقط من عينيها فتختلط بعرقها . فاقشعر بدن اسماء وخفق قلبها ، ولكنها تجلدت وتظاهرت بالابتسام وقالت : « لا سمح الله بسوء يصيبك يا أماه ، فانك ستصبحين فى خير فنركب معا الى المدينة باذن الله »

فتبسمت الأم تبسما يمازجه البكاء ، وقالت : « اسمعى يا بنيتى ، ما أنا آسفة على هذه الدنيا ، ولكن فى نفسى امرا أود قضاءه قبل الوفاة »

قالت أسماء : « وما هو ذلك الأمر يا اماه ؟ »

قالت : « هو أن التقى بعلى بن ابى طالب فأكلمه دقيقتين قبل الموت »

قالت : « غدا نلتقى به فى المدينة »

قالت : « قلت لك انى لا آمل أن أرى صباح الغد يا بنيتى »

فهمت أسماء بتقبيلها وهى تحاول حبس الدمع ، فضمتها مريم الى صدرها بقوة لم تكن اسماء تعهدها فيها وعانقتها ، فتساقطت دموع اسماء برغم ارادتها ثم احست بدموع أمها تتساقط على عنقها سخينة تمازج ذلك العرق البارد ، واشفقت بعد ذلك عليها ، فنهضت وتجلدت وقالت : « لا بأس عليك يا أماه فهل تطلبين عليا لتكلميه فى شأنى ؟ »

قالت : « نعم وفى شأن آخر هو سر حرصت على كتمانه اعواما ، وقد آن لى أن أبوح به »

فقالت : « ما العمل اذن ؟ » . قالت : « استقدموه الى ، قولوا له ان امرأة على فراش الموت تلتمس لقياك لتنبئك سرا وتشكو اليك امرا »

فخرجت اسماء الى صحن الخيمة فرأت يزيد ومروان واقفين بازاء نخلة كأنهما يتساران ، فلما رأياها أسرعا معا وقالا : « كيف حال امك ؟ لعلها فى خير » . قالت : « انها افاقت وطلبت أن ترى عليا بن ابى طالب »

قال يزيد : « وكيف تراه الآن وهو فى المدينة »

قالت : « لقد طلبت استقدامه اليها بالحاح »

قال مروان : « استقدامه ؟ ! ومن يستطيع ذلك ؟ »

قالت : « لا اراه يأبى المجىء اذا قيل له ان امرأة تحتضر تلتمس مقابلته فانه على خلق عظيم »

قال : « لا شك فى عظم خلقه ، ولكنه الآن فى شغل شاغل بأمر المسلمين واختلافهم فى شأن الخليفة ! »

ولما لاحظ استغرابها ما ذكره ، أخذ فى توضيح الأمر فقال :« سمعت قبل خروجنا من الشام ان أهل الامصار ناقمون على عثمان ايثاره ذوى قرابته فيولى العمال منهم ويعزل الذين ولاهم اسلافه ، كما علمت أن أهل مصر خرجوا يلتمسون المدينة ليشكوا أمرهم الى على لعله يحكم فيما بينهم وبين عثمان . وكذلك أهل البصرة وأهل الكوفة، واظنهم وصلوا الى المدينة الآن ، فلا يستطيع على تركهم والمجىء الى هنا »

قالت وقد ملت الجدل : « ان امى تطلب عليا بالحاح فما علينا الا أن نبعث فى طلبه »

قال : « سأرسل فى ذلك أحد رجالى ، ثم اذهب انا فى اثره استعجله » . قال ذلك وامر أحد الأتباع بالذهاب الى المدينة ، ثم ذهب هو على اثره

عادت أسماء الى والدتها فاذا هى فى غيبوبة ، فمكثت ساعة فى انتظار الرسول ، ولما استبطأته خرجت من الخيمة وتوجهت بنظرها الى المدينة والظلام حالك فلم تر احدا ، فصعدت الى مرتفع أشرفت منه على ابنية المدينة فلم تر منها الا المسجد النبوى والأنوار تشعشع فى بعض جوانبه . ولو أنها لم تصعد الى ذلك المرتفع ما استطاعت



« وأمسكت أسماء يدها بلطف وقالت لها : « هل تريدين شيئاً يا أماه ؟ »

رؤية المدينة ، لأنها قائمة فى منبسط من الارض تحدق بها جبال تنحدر منها السيول على أثر الأمطار فيصبح السهل المجاور لها مستنقعات وآبارا تجتمع فيها المياه على مدار السنة ، وتنمو حولها أشجار الصفصاف والبلسان والنخيل وكثير من الأعشاب . فلما أطلت أسماء على المدينة راعها منظر ما بينها وبين قباء من المياه المتجمعة التى انعكست على سطحها اشعة الكواكب ، غير ان ذلك لم يكن ليشغلها عن مرض والدتها ، فعادت مسرعة الى الخيمة ، فرات أن يزيد قد توسد الارض خارج الخيمة ونام ، فأسفت لما رات من فقده المروءة والشعور ، ولكنها لم تستغرب ذلك ، لأن أمها كانت قد قالت لها غير مرة ان هذا الرجل ليس اباها . ولكنها كتمت عنها اسم أبيها وظلت تعدها بأن تنبئها به . فلما رات ما بلغته والدتها من الضعف فى تلك الليلة خافت ان اصابها سوء أن يبقى ابوها مجهولا عندها ، فدنت من فراشها وهي ما برحت غائبة ، فأمسكت يدها الباردة ولمست جبينها المبلل بالعرق فاضطربت جوارحها وخافت على والدتها فى ذلك القفر ، واستنكفت أن تخاطب يزيد فى الأمر احتقارا له ، فهمت بالخروج لاستقدام خادم المسجد لعلها تجد عنده امراة تستأنس بها ، فرات أمها تحرك راسها وترفع يدها كأنها تشير اليها أن تدنو منها فدنت وهمت بها فقبلتها وقالت : « ماذا تريدين يا أماه ؟ »

قالت : « ألم يأت على ؟ » . قالت : « لم يعد رسولنا بعد »

قالت : « أخاف الا يعود وقد نفد صبرى وخارت قواى ، استقدموا عليا قبل فوات الفرصة »

فقالت : « لا يلبث على أن يأتى . الا تبوحين لى بما تريدين أن تقوليه له ، ألم يأن لى أن أعرف من هو أبى »

قالت : «ستعرفينه متى جاء على» . ثم تنهدت وقالت : « آه . . » !

◻

فلما سمعت أسماء ذلك اشتد حزنها وقلقها ، ولاسيما انها خشيت أن يكون ذهاب مروان فى اثر الخادم سببا فى تأخير قدوم على ، فعزمت على المسير بنفسها وهي لم تكن قد دخلت المدينة قبل الآن ولكنها استسهلت كل صعب فى سبيل مرضاة أمها ورغبتها فى استطلاع ذلك السر ، فشدت عقالها حول رأسها وتلثمت حتى لم يبق ظاهرا من وجهها الا عيناها وتزملت بالعباءة فوق ثيابها فأخفت رداءها النسائى وركبت جوادها وكان لايزال مسرجا ، وايقظت يزيد واوصته

بوالدتها خيرا وهمت بالخروج فلم يطاوعها قلبها خوفا على امهـا . فوقفت متحيرة ، ثم تذكرت خادم الجامع فسارت اليه وكان قد فرغ من الصلاة فسالته عن امرأته فقال : « هى فى خدمتكم » . ونادها فجاءت فاذا هى عجوز ولـكنها نشطة سمحة الوجه ، فاوصـتها بأن تساعد يزيد فى السهرعلى امها فى اثناء غيابها ، وخرجت ولم تخبر امها لئلا تمنعها من الذهاب واتخذت انوار المسجد النبوى قبلتها ، وهمزت الجواد ، وكان من اصائل الخيل ، فجرى وهو تارة يغوص فى منخفض ، وطورا يصعد على اكمة ، وهى لا ترى شيئا لفرط قلقها واضطرابها الا اشباح النخيل والبلسان ، حتى دنت من سور المدينـة واهتدت الى بابها فدخلتمنه الى اسواق ضيقةمتعرجة لايكاد يمر بها الجواد، ولكنها على ضيقها مزدحمة بالنـاس واكثرهم من الغرباء ، فعلمت ان ما قاله مروان صحيح ، فسالت رجلا يبيع التمر عن منزل « على » فدلها عليه وهو يحسبها رجلا فهمزت الجواد واسرعت فلم تبلـغ باب المنزل حتى كبا جوادها فسقطت ، وكادت تلقى حتفها ولـكنها لم تبال بل نهضت وتلمست باب المنزل ، ولم تكد تدركه حتى سـمعت صريره فوقفت تنتظر فتحه فخرج اليها شـاب طويل القامة لم تتبين وجهه لشـدة الظلام ، وكان قد سـمع كبوة الجواد فاسرع نحوه فرأى فارسـه قد وقف وهو لايزال ملثما فاستقبله وسأل عن خبره وهو يظنه رجلا

فقالت أسماء : « لعل مولانا عليا فى المنزل ؟ » . قال : « كلا ليس هو هنا الآن ، ماذا تبغى منه فانى أرى لهفتك وعجلتك »

قالت : « نعم جئت فى امر مهم ، ولكننى لا اقوله الا لعلى نفسه »

قال : « انه خرج فى الغروب الى المسجد ، وقدمضت صلاة الغروب وصلاة العشاء ولم يعد ، فهل تذهب معى لنبحث عنه هناك ؟ »

قالت : « نعم هلم بنا » . ثم انطلقا وكل منهما يريد الوصول الى باب المسجد ليرى وجه صاحبه على الضوء لعله يعرفه ، وكان الشاب أكثر رغبة فى ذلك لأنه استغرب صـوت أسماء ولم يـبين شـيئا من وجهها أو ثيابها . اما هى فمشت تقود جوادها وراءها حتى بلغا الجامع ، فاذا هو مزدحم بالناس بين جاث وواقف ولم يبق به موقف لطفل ، وكلهم صامتون وقد تكاثفت انفاسهم وانبعثت من باب الجامع حرارة ممتزجة بروائح اجسامهم وأثوابهم حتى لقد يشعر المار بالازدحام وان لم ير الناس . فلما وصل الرفيقان الى الباب واستنارا بمصابيح الجامع نظر كل منهما الى زميله فرأت اسماء رفيقهـا رجلا حسن اللباس يظهر من حاله أنه من الصحابة أو بعض أولادهم . أما هو فلم ير غير اللثام فاستغرب تلثمها ومنعه الحياء من التحرى

عثمان بن عفان

وهمت أسماء بالدخول الى الجامع فامتنع عليها لكثرة الناس وهيبة لاجتماع ، فوقفت بالباب وهي على مثل الجمر ، ووقف صاحبها الى جانبها ، فارتاحت لما آنسته من رقة شعوره وعلمت أن الدخول الى علي يستحيل اذ ذاك ، فلما دعاها الى الاستراحة على البطحاء ، وهي مقاعد من الحجر او الخشب انشاها عمر بن الخطاب خارج الجامع يجلس عليها النـاس للاستراحة والمحادثة أو المناشـدة ، لم تستطع أسـماء جلوسا لعظم قلقها ولكنها التمست مكانا تربط فرسهـا فيـه اذا اضطرت لدخول الجامع ، فامر رفيقها غلاما ممن يلتقطون النوى فى أسواق المدينة وهم كثيرون أن يمسك الفرس فأمسكه وسار به الى مرابط الخيل بين الاشجار هناك

اما اسماء فنظرت الى صدر المسجد فرأت على منبره رجلا ربعـة ليس بالطويل ولا القصير ، حسن الوجه لولا ما عليه من أثر الجدرى ، كبير اللحية عظيمها ، وقد خضبها بالحناء أسمر اللون ، أصلع الراس ، عظيم الكراديس ، عظيم ما بين المنكبين ، وكان واقفا على المنبر وقد توكأ على سيف واجال نظره فى الحضور وهم بالكلام . فنظرت اسماء الى رفيقها مستفهمة ، فقال : « هذا عثمان بن عفان يخطب فى الناس»

فقالت : « لعل هذا الجمع من اهل المدينة ؟ » . قال : « كلا هم وفود اهل مصر والبصرة والكوفة ، وقدجاءوا يشكون عثمان ويتذمرون من اعماله ، وقد شكوه من قبل هذا الى علي بن ابى طالب ، فانبه علي ، فدعاهم الى المسجد ليخطب فيهم ، واظنـه سيلتمس لنفسـه عذرا فلنسمع ما يقوله »

فنظرت أسماء الى الخليفة وعيناها لا تقفان عليه لتضعضع حواسها، فرأت بجانبه رجلا عرفت انه مروان فقالت فى نفسها : « بئس الشاب هو ، لقد جاء الى ابن عمه ونسي المهمة التى جاء فيهـا » . وجالت بنظرها فى الجمع متفرسة لعلها ترى عليا ، غير انهـا لم تكن تعرفه فقالت لرفيقها : « الا ترى عليا بين الناس » . قال : « اظننى رايته . نعم أراه جالسـا بقرب المنبر وقد اطرق يفكر ، فنظرت اليه فاذا هو

فوق الربعة ضخم العضل ، جيل الخلقة وقد وخطه الشيب فلم يخضب شعره ، وآنست منه على شدة هواجسه ابتساما ظاهرا فى وجهه ، فشعرت عند رؤيته بارتياح واستأنست بطلعته وحدثتها نفسها ان تخترق الجماهير اليه فاوقفها الحياء ولبثت تنتظر انتهاء الخطيب من خطابه وهى فى قلق شديد

وانتصب عثمان ويمناه على السيف وهى ترتعش لعظم تاثره ، ثم مسح لحيته بيساره ومشط شعرها باصابعه والاضطراب ظاهر عليه ، فحمد الله واثنى عليه وصلى على الرسول ثم قال : « يا اهل الأمصار قد جئتم من البلاد البعيدة تطالبوننى بأمور لم أكن انا الذى ارتكبتها وحدى ، فان صاحبى اللذين توليا قبلى (يريد ابا بكر وعمر) قد ظلما انفسهما ، وان رسول الله (ص) كان يعطى قرابته . وانا فى رهط اهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدى فى شيء من ذلك ، لما اقوم به فيه فان رايتم ذلك خطأ فردوه ، فامرى لأمركم تبع . واما ما تريدونه من الفتنة أو الخلع فانكم قد اسرعتم فيما عزمتم ، ووالله لئن فارقتكم لتتمنون ان لو كان عمرى عليكم مكان كل يوم سنة ، لما سترون من الدماء المسفوكة والاحن ، والاثرة الظاهرة والاحكام المغيرة »

وكان على فى اثناء الخطاب مطرقا مصغيا لا يبدى حراكا حتى اتى عثمان على الفقرة الأخيرة فحرك على حاجبيه وحنى راسه تصويبا لقوله : « لما سترون من الدماء المسفوكة الخ . . . »

واما اسماء فلا تسل عن قلقها ومللها وكان رفيقها واقفا الى جانبها وقد شغل عنها بما ثار من عواطفه عند سماعه كلام عثمان ، ومال الى افهام رفيقه الملثم جلية الخبر تشفيا من عثمان . ولكنه اراد قبل ذلك أن يعرف من هو ، ثم تنسم من لهجتها صوتا نسائيا ولكنه استبعد أن يظهر فى النساء مثل هذه الهمة . فصبر حتى انتهى عثمان من خطبته وقال لها : « اراك يا سيدى خالى الذهن من مغزى كلام الخليفة ولكى تتفهمه أوضحه لك باختصار ، ان خليفتنا هذا هو ثالث الخلفاء الراشدين تولى الخلافة منذ بضع عشرة سنة وحالما تولاها عزل الولاة الذين كانوا قبله ممن ولاهم الخليفة عمر ، وولى مكانهم رجالا من بنى امية أى من أقاربه ، ووسع ابواب الرزق لأهله وضيقها على سواهم فثار المسلمون فى الاعمال (الولايات) . وهم اهل مصر والكوفة والبصرة . اما اهل الشام فانهم على دعوة عثمان لان عاملهم هو معاوية بن ابى سفيان من أقرباء الخليفة . واما اهل الأمصار الثلاثة الباقية فنقموا على هذا الرجل وجاءوا فى رجالهم يطلبون خلعه وتولية غيره مكانه ، ولا يليق بالخلافة بعده الا على بن أبى طالب فانه ابن عم النبى

(ص) ووصيه . ولكن بين الذين يطمعون فى الخلافة الآن اثنين من الصحابة هما طلحة والزبير ، فالخلافة اذا خلع عثمان بين الثلاثة على وطلحة والزبير ، ووفد مصر يريدونها لعلى ، ووفد الكوفة يريدونها للزبير ، ووفد أهل البصرة يريدونها لطلحة . ولكنهم متفقون جميعا على خلع عثمان . وأما على فلا رغبة له فى الخلافة ولكنه يخاف الفتنة بين المسلمين بسبب ذلك الخصام »

وكانت اسماء تسمع كلام رفيقها وهى لا تفهم منه شيئا لعظم اضطرابها ، ولكنها لم تر بدا من الصبر لأنها رأت عثمان عاد يتكلم . وما أتم عثمان كلامه حتى ضج الناس فعلمت انهم خارجون فحمدت الله على فراغه فتنحت ريثما يخرج الجمع وقد زاغت عيناها وهى تتفرس فى الجماهير لعلها ترى عليا خارجا معهم فخرج الكل ولم تره بينهم فتحولت نحو الجامع وكان رفيقها قد سبقها اليه فوقفت تنتظره فعاد وحده فلما استقبلها سألها : « هل رأيت عليا ؟ » . فذكرت انها لم تره ، فجعل يبحث بين الناس ولكنه لم يجده

□

عاد الى الجامع وقد خلا من المصلين وأخذ الخدم فى اطفاء المصابيح فخافت اسماء أن يمنعوها من الدخول ، ولكنهم لما رأوا رفيقها وسعوا لهما فعلمت انه من كبار القوم ، فدخلا الى المسجد فرات المكان خاليا ووقف الرجل ووقفت وجعلا يفكران ، وبعد برهة قال الرجل : « اظنه دخل حجرة امرأته فاطمة بنت النبى (ص) فانها مدفونة فى حجرة بازاء هذا المسجد وكثيرا ماكنا نراه يدخلها لزيارة ذلك الاثر الشريف فلا بد من الانتظار ريثما يخرج »

فقالت : « لاصبر لى يامولاى على الانتظار دعنى ادخل اليه واخاطبه فان الامر الذى جئت من أجله يقتضى العجلة وهب اننى أسأت الادب فى استعجاله فانه سيعذرنى متى عرف السبب . دعنى ادخل الحجرة »

فأجابها بصوت خافت : « تمهل يا صاح لنثق من دخوله اليها » . ومشيا الهوينى وهما حافيان لايسمع لمشيهما وقع ، حتى انتهيا الى الحجرة من باب صغير . وهى بناء مربع واطىء فى وسطه ضريح السيدة فاطمة . فدخلا الحجرة والرجل ممسك بيد اسماء وقد ساد السكوت والظلام ذلك المكان المهيب . فوقفا لحظة لعلهما يسمعان حركة أو نطقا أو يريان شبحا فلم يسمعا شيئا ولم يريا شيئا . فهالهما الموقف ولم يتجرأ أحدهما على الكلام ولكنهما تفاهما بالاشارة على الرجوع ، وفيما

هما يسيران سمعا صوتا عميقا كأنه خارج من القبر فاقشعر بدنهما ووقف شعر راسيهما والرجل لا يزال قابضا على أنامل اسماء ، فلما سمعا الصوت شعر بارتعاش تلك الانامل شعورا امتد الى كل جوارحه فأومأ اليها أن تنصت فأنصتنا فاذا الصوت خارج من حجرة الرسول بالقرب من حجرة فاطمة وبينهما حائط . واصغيا فاذا هو صوت على ابن ابي طالب يناجي الرسول بصوت يتخلله تحرق وزفير . فوقفا وقلباهما يخفقان وهما يمسكان انفاسهما كانما يخافان ان يختلط زفيرهما بما يسمعان . واليك ما سمعاه :

« قم يارسول الله تعهد امتك وانظر الى ما آلت اليهحالها من بعدك ، لقد بعثك الله نذيرا للعالمين ، وامينا على التنزيل ، وليس احد من العرب يقرأ كتابا ولا يدعي نبوة ، وقد كانوا على شر دين في شر دار ، يشربون الكدر ويأكلون العشب ، ويعبدون الاصنام ويسفكون الدماء ويقطعون الارحام . فسقت الناس حتى بوأتهم محلتهم ، وبلغتهم منجاتهم ، فاستقامت قناتهم ، واطمأنت صفاتهم ، وجعل الله الاسلام أمنا لمن علقه ، وسلما لمن دخله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به ، ونورا لمن استضاء به ، وفهما لمن عقل، ولبا لمن تدبر ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق ، وثقة لمن توكل . فقام بنصرته قوم دعوا الى الاسلام فلبوه ، وقراوا القرآن فأحكموه ، قوم لايبشرون بالاحياء ولا يعزون بالموتى . مره العيون من البكاء ، خمص البطون من الصيام ، ذبل الشفاه من الدعاء ، صفر الالوان من السهر ، على وجوههم غبرة الخاشعين . قد كنت يا رسول الله تأكل على الارض ، وتجلس جلسة العبيد ، وتخصف نعلك بيدك ، وترقع ثوبك بيدك ، وتركب الحمار العاري . ولقد يكون الستر على بابك عليه التصاوير فتقول لاحدى أزواجك : (غيبيه عني ، فاني اذا نظرت اليه ذكرت الدنيا وزخارفها) . وكنت يا رسول الله اذا احمر البأس ، واحجم الناس ، تقدم اهلك فتقى بهم أصحابك ، حتى قتل عبيدة بن الحارث يوم بدر، وقتل حمزة يوم أحد ، وقتل جعفر يوم مؤتة ، هذه هي سننك وتلك هي قدوتك . فلما فارقتنا خلفك شيخ (ابو بكر) حارب المرتدين ، وايد الدين القويم ، وخلفه رجل فتح الامصار ودون الدواوين وشاد للعدل منارا ، فاعتز به الاسلام ، وامتدت رايته على العراق وفارس ومصر والشام ، وفر من وجهه كسرى وقيصر، والناس يومئذ مجتمعون حول الدعوة آخذون بناصرها بقلب واحد ، حتى تولاهم عثمان وهو شيخ صادق الاسلام ، ولكنه استأثر بالسلطة وآثر اهله على سائر المسلمين ، فقام عليه قومة رجل واحد ، وتجمعوا على نبذ طاعته واقروا على خلعه لاترهبهم خلافته ، ولا يخشون سطوته . كأن الناس انما أذعنوا لأهل السابقة

من الصحابة لما كانوا فيه من الذهول والدهشـــة لأمر النبـــوة وتردد الوحى وتنزل المـلائكة ، فلمــا انحسر ذلك العبــاب وتنــوسى الحال ، واســتفحل الملك انفت نفوس المســلمين من غير قريش وهان عليهم نبذ طاعة الصحابة ، حتى بلغ من جراتهم التمرد على الخليفة ، فعظمت الفتنة وخفت ماخوفتنيه يوم سألتك عن الفتنة فقلت لى : (يا على أن القوم سيفتنون بعدى بأموالهم ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنـــون رحمته ويأمنون لسطوته ، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والاهواء الساهية) . آه يا رسول الله ، لقد طالما نصحت لهذا الخليفة الا يكون امام هذه الامة المقتول ، فانه كان يقال : (يقتل فى هذه الامة امام يفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ، ويلبس امرها عليها ويبث الفتن فيها) . ولــكنه انصاع الى شاب من اهل قرابته (مروان بن الحــكم) يسوقه حيث شاء بعد جلال السنين وتقضى العمر »

ولما بلغ على الى هذا القول زفر زفرة سمعتها اسماء وصاحبها ، كما سمعاه يبكى بكاء تقطــع له قلباهمــا ، وهما لايكادان يصـــدقان انهما يسمعان عليا يبكى ، فبهتا وهما يحسبانه يهم بالنهوض ثم سمعاه يقول :

« هذه هى حال أمتك يا رسول الله . فانى اشكو اليك قوما افترقوا بعد الفتهم ، وتشتتوا عن أصلهم ، فكل منهم آخذ بغصن اينما مال مال معه ، حتى أصبحت الاحوال مضطربة والايدى مختلفة والكثرة متفرقة ، أما أنبأتك صفيتك (فاطمة) النازلة بجوارك بتضافر امتك على هضمها . وانى اخاف ان الحق بكما والحــال على ما وصفت فاستحيى أن احمــل اليك خبر هذه الفتنة التى أخافها أن تفرق كلمة الاسلام . فادع لنــا ربك أن يجمع كلمتنا ويلم شعثنا ويأخذ بناصرنا فنعلم مكان الخلافة منا والسلام عليك حتى نلتقى »

وسمعت اسماء وصاحبها عليا وهو يقرأ الفاتحة ، فعلما انه يتأهب للنهوض فأسرعا فى التقهقر حتى خرجا من الحجرة الى المسجد وخرجا منه الى البطحاء وقد خف الازدحام لتفرق الناس الى منازلهم ، فوقفا ينتظران عليا فقال الرجل : « أظنه لايخرج من هذا الباب فلنقف له بالباب الآخر » . فناديا الغلام قائد الفرس فتبعهما ومشيا وقد نفد صبر أسماء وانهكها الملل . ولم يمشيا قليلا حتى لقيا عليــا خارجا من باب الجامع ومنديله لايزال فى يده يمسح به عينيه ثم جعل يصلح عمامته ويسرح لحيته بأنامله ويمشى الهوينى كأنه عائد من سفر طويل

فتقدم الرجل اليه وحياه فقال على : « مرحبا بابن ابى بكر اهلا بك

يا محمد ما الذي جاء بك ؟ » . فعلمت أسماء انه محمد بن ابي بكر وكانت تسمع به . قال : « لقد جئتك بقادم غريب قد انهكه البحث . قال : « لماذا لم تنزله في دار الاضياف . اين هو ؟ »

فتقدمت أسماء والقت التحية وهي لاتزال ملثمة وقد التفت بالعباءة فنظر علي اليها فعلم انها متنكرة لأمر ذي بال فقال لها : « ما غرضك يا أخا العرب ؟ »

قالت : « لقد جئت ادعوك لغوث امراة مريضة فى خطر شديد تلتمس أن تراك لتبث لك سرا ضنت به علينا جميعا »

فقال : « ومن تكون هذه المراة ؟ » . قالت : « هي أمي واما زوجها فهو من بني أمية وقد جئنا بها من دمشق فتحملت مشاق السفر والمرض على امل أن تبلغ المدينة فتطلعك على ذلك السر فاشتد عليها المرض حتى لم تعد تستطيع الوصول

قال : « أين هى الآن ؟ »

قالت : « هى فى قباء على مقربة من هذا المكان »

قال : « هيا بنا اليها . هل ترافقنا يا محمد ؟ »

قال : « انى فى خدمتك حيثما سرت ، واذا رايت أن اقوم بهذا الامر دونك لما أنت فيه من المشاغل الكثيرة فعلت فتبقى انت هنا »

قال : « لاباس من ذلك ولكننى اخشى ان يكون مجيئى اليها واجبا وهى امراة فى مرض شديد تجب علينا اغاثتها » . قال ذلك ومشى نحو البيت يلتمس فرسه ومشى الاثنان فى أثره ومحمد ينظر الى أسماء خلسة لعله يستطلع شيئا من امرها . وهى تطلب الى الله أن يعجل على فى الخطى . ولكنه لم يمش قليلا حتى لقيه رجل مهرول وعليه أمارات البغتة . فقال له : « ما وراءك ياغلام ؟ »

قال : « لقد عاد المصريون الينا بعد خروجهم »

فقال : « وكيف عادوا وقد عهدناهم راضين بما وعدهم به الخليفة من الاصلاح ؟ »

قال : « لا ادرى الا انهم عادوا الينا غضابا ، وهم ينتظرونك فى فناء دارك »

فقال على : « لاحول ولا قوة الا بالله » . وسار وهو يهز راسه وينظر الى محمد ، وكان هذا فى مثل حاله من العجب لما سمعه . فقال على : « ما بال هؤلاء القوم لايريحون لنا بالا ؟ انى أرى مشكلتهم هذه لا تنحل الا بفتنة تؤول الى الفشل ، فوالله انهم ليرومون أمرا عظيما أخشى منه اختلال الحال »

فقال محمد : « لايخلو رجوعهم من أمر ذى بال » . واسرعا حتى اتيا بيت على فرايا النـاس عند بابه زرافات ووحدانا بين فارس وراجل ، وقدعلت ضوضاؤهم ، فلما أشرف على عليهم ترجل الراكبون وهرول الواقفون نحوه وفى مقدمتهم رجل لايزال بثياب السفر، فحيىعليا فرد التحية وقال له : « ما الذى عاد بكم الينا وكنا قد فضضنا بينكم وبين عثمان ووعدكم خيرا ؟ »

قال : « انه لم يعدنا الا خداعا » . قال ذلك ومد يده فأخرج أنبوبة من الرصاص فتناولهـا على ومشى الى مصـباح مضىء عند باب الدار ونظر فراى فيها صحيفة من جلد اخرجها وقرأ فاذا كتاب من عثمان الى عامله بمصر يأمره فيها بجلد زعماء المصريين الذين قدموا المدينـة لمطالبته ، وحبسهم ، وحلق لحاهم ، وصلب بعضهم . فبغت على لذلك وتأمل الصـحيفة فاذا فى ذيلها خاتم عثمان ، وكان يختم كتبه بهـذه العبارة : « لتصبرن أولتندمن» . فتحقق انه خاتمه فقال : « وما الذى اظفركم بهذا الكتاب ؟ »

قال : « برحنا المدينة أمس على ما وعدنا هـذا الرجل من الاصلاح وصدعنا بأمرك ، فلم تكد نخرج حتى لقيناغلام عثمان على بعير من ابل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيههذه الانبوبة وفيها هذه الصحيفة»

فقال على : « انا لله وانا اليه راجعون. ما بالنا لانكاد نرتق فتقا حتى نرى غيره ؟ ما الذى غير عثمان وحمله على هذا العمل ؟ »

فقال محمد بن ابى بكر : « انها فعال مروان بن الحكم ابن عمه ، فقد كان غائبا فى الشام ولم يأت المدينة الا فى غروب هذا اليوم ، ونظنه هو الذى اغرى عثمان بذلك »

فتأفف على وقال : « تبا لهذا الشاب انه لايدل الا على الشر »

فلما سمعت أسماء ذكر مروان عرفت انه هو طالبها ورفيق سفرتها فازدادت كرها له وقالت فى نفسـها : « قبحه الله انه لا يزال عثرة فى طريقنا وايقنت ان ذلك سيكون سببـا فى عدول على عن المسير معهـا فخاطبت محمدا فى الامر ، فقال : « لا تخف يا صاح انـا منجدوك . . وخاطب عليا فى ذلك فقال له : « انى اخاف اذا برحت المدينة فى هـذا الليل أن يقع ما نندم عليه . سر يا محمد مع هذا النزيل وافعل ما تراه وقم عنى فى كل خير يرجونه ثم عد الى بالخبر »

فلم تعد تتجرأ اسماء على الالحاح فقنعت بما وقع مخافة ان يقع ماهو شرمنه فالتفتت الىفرسها فاذا بالغلام يقوده وراءها فتهيأت للركوب. وبعث محمد فاستقدم فرسه ، وركب الاثنـان ومحمد ينظر اليها وهى تركب لعله يرى بعض ثيـابها تحت العباءة فى اثنـاء الركوب فلمح من

يونها شيئا أحمر اللون يشبه ثياب النساء ولكنه ما زال مستبعدا مثل هذه الجرأة من امرأة

وسار الاثنان يلتمسان قباء لايكلم أحدهما الآخر ، ولكن محمدا كان شديد الميل الى معرفة حقيقة رفيقه بعدما اسـه فيه من أمره . فخرجا من المدينة والظلام حالك وبعد هنيهة أشرفا على قباء . فلما اطلت اسماء على خيمة امها عرفتها من النار المضيئة خارجها فخفق قلبها مخافة ان يكون قد وقع فى اثناء غيابها ما يوجب حزنا ، فهمزت الجواد فطار بها حتى سبق جواد محمد بنساتها على مسه . ولم يدركا الخيمة حتى خرجت امرأة خادم الجامع لاستقبالهما ، فترجلت أسماء عند باب الخيمة وترجل محمد ، ثم دخلت وهى تحل عقالها وتنزع العباءة عن كتفيها ودنت من سرير أمها فاذا هى قد أفاقت وفتحت عينيها ونظرت الى اسماء بلهفة وعيناها تنظران الى باب الخيمة كأنها كانت نتوقع دخول أحد وقالت : « أين على ؟ »

فخافت اسماء اذا أخبرتها الحقيقة ان تحدث لها حدثا فيزيد مرضها فقالت لها : « انه آت يا أماه » . واغرورقت عيناها بالدموع

وذهب محمد فى اثر اسماء يتفرس فيها على نور المصباح فلما نزعت عقالها راى شعرها من الوراء طويلا مسترسلا ، ثم نزعت العباءة فبان رداؤها الارجوانى اللامع وهو عبارة عن قفطان من الديباج عليه منطقة من جلد عريضة تعودت لبسها فى السفر فتحقق انها فتاة فشعر باعجاب غريب ولم يبق بعد ذلك الا أن ينظر الى وجهها فأسرع فى أثرها حتى دنا من السرير فاعترضه منظر والدتها . وحالما وقع نظره عليها هاله نحولها وفرط سقمها وامتقاع لونها وشخوص عينيها ، ولكنه التفت الى أسماء فاذا فيها فضلا عن الجمال هيبة وجلال ، كأنما هى ملكة وجبار معا ، فلم يتمالك عن الاعجاب بها والانعطاف اليها وأحس باحساس غريب نحوها

□

اما هى فقد كانت فى شاغل عن حاله بما هى فيه من القلق على أمها ، كانت قد اطمأنت قليلا لما رأتها منتبهة وقد ندمت على عودتها بغير على ، ولكنها ايقنت ان مجيئه لم يكن ممكنا والناس فى انتظاره عند منزله على تلك الصورة . ثم حولت وجهها نحو محمد وعيناها شاخصتان اليه لا تتحركان الا تكلفا فلم تتفرس فيه قليلا حتى تساقطت دموعها على خديها . فلما رآها محمد تبكى انفطر قلبه فخاطب المريضة قائلا: «كيف أنت ياخالة ؟ »

فقالت : « ابن ابي بكر ؟ »

فلما سمع قولها اقشعر جسمه ، وابتدرها قائلا : « اجل اني هو ، ماذا تامرين ؟ »

قالت : « اين هوعلي؟ » . قال : « قد بعثني لانوب عنه لانه في شاغل مهم فامري بما تريدين »

قالت : « لا اريد احدا غيرعلي ، ادركوني به . لا اريد احدا سواه » . قالت ذلك وظهر الكدر في وجهها

فعجبت اسماء لما سمعت امها تقول : « ابن ابي بكر » . وشعرت عندما سمعت اسمه من فمها بارتياح اليه ولكنها تململت لاصرارها على استقدام علي فقالت لها : « ألا تزالين تطلبين عليا ؟ »

قالت : « نعم لا ازال اطلبه ادركوني به فان في نفسي سرا لا ابوح به الا له ، ادركوني به قبل انقضاء اجلي »

فنظرت اسماء الى محمد نظرة استحثاث اثرت فيه تأثيرا غريبا ، وشعر كان نظرها اخترق صدره حتى وقعت سهامه في قلبه فنهض للحال وقال لاسماء : « اذا لم يكن بد من استقدام علي فاني ذاهب لاستقدامه » . وخرج فامتطى جواده وهمزه نحو المدينة وعزم على الا يعود الا بعلي

وخرجت اسماء تنظره فسمعت وقع اقدام جواده يخترق السهل ، وتذكرت يزيد فبحثت عنه فاذا هو نائم في خيمة أخرى لايبالي شيئا فلم تكترث له

وعادت الى سرير والدتها وقلبها يخفق خوفا عليها فاذا هي قدغيرت وضعها فتحولت الى جنبها الآخر واطبقت اجفانها بعض الاطباق او هي ارختها وعيناها مفتوحتان على كيفية لم تعهدها فيها من قبل ورأت حدقتيها قدجدتا وشخصتا فخافت من منظرها ونادت العجوز وكانت قد خرجت لحاجة فقالت لها : « مابال أمي قد غيرت وضعها ومالي ارى عينيها شاخصتين جامدتين ! »

فبغتت العجوز وقد أيقنت أن المريضة في حالة النزع وبخاصة حين رأت كتفها يختلج وتنفسها يسرع ، فامتقع لون العجوز وظهر الخوف عليها ، فأدركت اسماء خوفها فصاحت بها : « مابالك خائفة ، لعل امي في خطر ؟ »

فقالت : « عسى الا يكون خطر يا ابنتي والاتكال على الله » . وخرجت مسرعة

فاضطربت الفتاة وامسكت بيد والدتها فجستها فاذا هي باردة

جافة ، ونظرت الى عينيهـــا وقد غارتا فى تجويفهما وذهب لمعانهمـــا ، فارتعدت فرائصـــها وخافت خوفا شـــديدا واسرعت الى باب الخيمة لتستقدم العجوز

وفيما هى تتحول شهقت امها شهقة عنيفة فاجفلت وعادت الى السرير وهى تحسبها تتكلم فانحنت عليها وقبلتها فى جبينها فاذا هو بارد جاف فاقشعر جسمها وازداد خفقان قلبها واصطكت ركبتاها ، ولم تكن رأت ميتا قبل ذلك الحين ، فنادت العجوز فاتت ، فجعلت اسماء تنظر اليها وتتبين عواطفها فراتها فى وجل فازداد خوفها ، فاعادت النظر الى وجه والدتها فاذا هى فاتحة فاها وقد برز فكاها واتسع شـــدقها وســـكن اختلاج صدرها وبرز انفها واستطال ، واصفر لونها . فنظرت اسماء الى العجوز فراتها قد خرجت من الخيمة فتبعتها فاذا هى تنادى يزيد وصوتها مختنق فتحققت وقوع القدر

فعـــادت الى السرير وصـــاحت : « اماه . اماه » . ولا من مجيب ، فدقت يدا بيد ولطمت فاذا بالعجوز عائدة وهى تلطم وتقول : « حلى شعرك يا ابنتى ، ان امك ماتت واحسرتاه »

فحلت اسماء شعرها واخذت تصيح وتلطم وجاءتها العجوز برماد لطخت به راسها ، وكان يزيد قد افاق فجاء ؛ واخذوا فى العويل والنوح فتجمع اهل القرية على صياحهم وعلا البكاء ، ولم يفعل احد منهم فعل اسماء فانها كادت تقتل نفسها لفرط البكاء والندب واللطم ، وعبثـــا كانوا يخففون عنها فكم القت نفسـها فوق والدتها وتوســـدت جثتهـــا واخذت فى تقبيلها وهى تقول : « لمن تركتنى يا اماه ؟ ولمن اشكو همى بعدك ؟ ومن يخبر عليا عن السر ؟ ومن يحمينـــا من غدر الخائنين . آه من الزمان ، لعل اجلك قد ساقنا الى هـــذه الصحراء لتدفنى فيها . ما النفع من بقائى بعدك وقد اصبحت وحيدة يتيمة لا ســـند لى ولا معين ؟ »

واما يزيد فكان يتظاهر بالبكاء ولا تذرف له دمعة

وفيما هم فى ذلك سمعتهم اسماء يقولون : « جاء على » . فصـاحت صيحة ارتج لها المكان وقالت : « لقد أبطأت يا أبا الحسن ، ان أمى ماتت ومات سرها معها » . ثم نظرت الى امها وكانوا قد غطوها بالملاءة وقالت لها : « قومى يا اماه احسرى نقابك فقد جاء على . قومى اليه واطلعيه على سرك . قومى واشفقى على ابنتك »

اما على فترجل وقد شـــغله امر الفتـــاة عن الالتفات الى الميتـــة . وكانت اسماء قد توردت وجنتاها وذبلت عيناها ونكسرت اهدابهما لما انسكب منهما من الدموع . ومما زادها هيبة ووقارا استرسال شعرها

الاسود على ظهرها وصدرها وحول كتفيها وقد غطى معظم وجهها ، ناهيك بانكسارها وذلها من الحزن واليأس فانهما يزيدان الجمال جاذبية . وكان أكثر الناس تأثرا من منظرها محمد بن أبي بكر فانه لم يتمالك نفسه عن البكاء لما لقيه من الفشل في مهمنه ، وقد أنهك جواده سوقا واستحث عليا على القدوم رغم ماكان فيه من المشاغل ووعده بالاطلاع على سر عظيم وظن نفسه قد عاد ظافرا فرأى الفشل ينتظره

وحالما وقع نظر علي على أسماء شعر بانعطاف نحوها وتوسم في طلعتها ملامح ارتاح الى التفرس فيها فحمل ذلك الانعطاف على محمل الشفقة لما رآه من تعاسة تلك الفتاة ، وندم ندما شديدا لتقاعده عن المجيء معها واحس بان عليه مواساتها جهد طاقته ، فوقف وقفة معتبر لمصير الانسان ثم أجال بصره في الناس وهم سكوت يسمعون وقال : « ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن ساعاها فاتته ، ومن قعد عنها واتته ، ومن بصر بها بصرته ، ومن أبصر اليها أعمته . انظروا الى هذا الميت فقد قبض بصره كما قبض سمعه وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله لا يسعد باكيا ولا يجيب داعيا . اعلموا ـ عباد الله ـ انكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا ، على سبيل من قضى قبلكم ممن كانوا أطول أعمارا وابعد آثارا ، فأصبحت أصواتهم هامدة ورياحهم راكدة وديارهم خالية وآثارهم فانية ، وأقاموا بمنازل شيدت بالتراب ، أهلها لا يستأنسون بالاوطان ، ولا يتواصلون تواصل الجيران ، على ما بينهم من قرب الجوار ، وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلى؟ وأكلتهم الجنادل والثرى؟ »

وكان علي يتكلم والدموع تتساقط من عينيه هادئة تنحدر على لحيته فأعجب محمد لما آنسه من ذلك البطل من الحنان ، وأشد الحزن ما يبكي الرجال

أخذ علي يخفف عن أسماء ، وكانت جالسة الاربعاء فاقترب منها وامسك بيدها وقال لها : « اصبري يابنيتي ان الحزن والبكاء لا يجديان ، ان امك قد سبقتنا الى دار اللقاء الاخير ، وأما ما تذكرينه من اليتم فلا تخافيه لأن الله كفيل باليتامى ، واتخذيني لك ابا والقي همك بعد الله علي ، واصبري ان الله مع الصابرين »

فنهضت أسماء وقد سقط منديلها من يدها ، فمسحت دموعها بكمها المسترسل من معصمها فعلقت أزراره بشعرها فانحسر بعضه عن وجهها فأطرقت خجلا واجابت عليا وصوتها مختنق وقالت : « شكرا لك يارجل المسلمين ووصي خاتم النبيين ، على مواساتك ، وسمعا

طاعة في مرضاتك ، وان امي هـذه (قالت ذلك واشـارت اليها وقد خنقتها العبرات) فاضت روحها وهي تذكر عليا وتناديه وفي صدرها سر أبت أن تبوح به الا له ، فها قد ذهب سرها معها وياليتها باحت به أو ليتني الححت عليك بالقدوم ، ولـكن ما الحيـلة وقد قضى الامر » . قالت ذلك وعادت الى البكاء متهيبة مجلس علي

أما محمد بن ابي بكر فلا تسل عما خالج قلبه ، وما احس به من الميل الشديد الى اسماء ، حتى شعر بأن المصيبة واقعة عليه ، ولم يدر كيف يعزيها أو يخفف عنها ، وتمنى لو بقي معها لمواساتها الى ساعة الدفن . واذا بعلي ينـاديه ، فلباه . وقال له علي بعد أن انتحى به ناحيـة : « لا أرى ثم ما يدعو الى بقائي هنا ، وقد ماتت حاملة السر » . فقال « أجل ياعماه ، انك مشغول بأمر الخليفة ، وقد أسفت على مجيئك بلا فائدة » . فقال علي : « اني اذن ذاهب ، وأوصيك بأهل هـذه الميتة خيرا ، وانظر فيما يحتاجون اليه فاذا تم الغسـل والدفن ، فأوصل الفتاة واباها ومن معها الى مقرهم ، واذا رأيتهم في حاجة الى الانفـاق فادفع اليهم ما يحتاجون اليـه ، على اني لا أرى أبا الفتاة حزينا الا بالانقياد »

فقال محمد : « سر في حراسة الله ، اني فاعل كل ما تأمرني به ولكنني آسـف لضـياع السر فانه لايخلو من أمر » . فقال علي : « اني أفكر في ذلك ولا أرى بابا لحله »

ثم التفت الى يزيد وناداه ، فجاء ووقف بين يديه وهو لايستطيـع النظر اليه الا خلسة ، فلما رأى علي مسارقته النظر ورفرفة أجفـانه وتردد بصره كأنه يرى مايبهره تحقق أن الرجل مراء يضمر غير مايظهر ، لأن من سلمت سريرته وأخلص نيته كان بصره ثابتا صافيا مثل قلبه ، وأما المرائي المخاتل فلا يستطيع تثبيت نظره في مخاطبـه كأنه يفكر في حيلة يخترعها . ونظر علي الى يزيد فعرف انه أموي فقال له : « اصبر يا أخا أمية ، انك بليت بما يبلى به كل ابن أنثى ولا حيلة الا الصبر »

فتظاهر يزيد بالبكاء ، فقال علي : « لقد أوصيت بكم محمـدا ليتولى قضاء حوائجكم ويواسيكم ، واذا نزلتم المدينة نزلتم في حمانا »

فشكر يزيد وأثنى وهم بتقبيل يده ، ثم تقدم علي الى اسماء وهي تبكي فعزاها وقال لها : « ان محمدا باق لمواساتكم » . فأجهشت ولسان حالها يشكره . فخرج علي وهو يقول لمحمد : « اني لأعجب مما بين هذه الفتاة وابيها من البون الشاسع فكأنها ليست ابنته »

ثم امتطى جواده وودع وسار قاصدا المدينة

أما محمد فأمر خادم الجامع باحضـار من تقوم بالغسل والدفن ، ثم افتقد يزيد فلم يجده بين الناس فعجب لغيابه ، وظنه باديء ذي بدء

قدذهب لحاجة له ، فلما طال غيابه ارتاب فى أمره حتى اذا انفلق الصبح رآه بين الناس فلم يسأله عن سبب غيابه لئلا يكون فى السؤال تطفل ، ثم غسلوا الميتة وصلوا عليها ودفنوها ، وأسماء لا تنفك عن البكاء والنحيب .

فلما عادوا من الدفن اقترب محمد بن ابى بكر من يزيد ، وسأله عما يحتاج اليه ، فبالغ هذا فى الثناء والشكر ، فسأله محمد : « أتريدون الذهاب الى المدينة فتنزلوا علينا ، فان عليا أوصانا بكم خيرا ؟ »

قال : « لقد تفضلتم علينا بما لاطاقة لنا على شكره ، ولانشك فى كرم مولانا ابى الحسن وحسن وفادته ، ولكن لنا اهلا فى المدينة لابد من النزول عليهم ، نخشى اذا نزلنا على غيرهم أن يعدوا ذلك منا امتهانا لهم ولكننا فى حمى ابى الحسن أنى ذهبنا »

فعجب محمد لما آنسه من تلطفه ، وكاد يحسن ظنه به فسأله : « واين يقيم اهلكم ياعم ؟ »

قال : « يقيمون بقرب الزوراء سوق المدينة »

وكانت أسماء أثناء الحديث جالسة تسمع ما يقولان وهى مطرقة حزنا وانكسارا وقد غطت راسها بخمار أسود زادها هيبة وجمالا . فلما ذكر ابوها محل اقامته قال محمد وهو ينظر الى أسماء : « اذن عسى الا تنسونا ، ومهما يعن لكم من الامور فانى رهن اشارتكم لأن عليا حفظه الله أوصانى بكم خيرا » . وتطلع الى أسماء فرأى الدمع يقطر من بين أهدابها وينحدر وهى مطرقة فازداد عطفا عليها وحنوا

قال يزيد : « اننا ابدا عبيد احسانكم فاذا أصابنا شر لجأنا اليكم ذاكرين حسن صنيعكم العمر كله »

فقال محمد : « الا تحتاجون الى دواب تحمل أمتعتكم ؟ »

قال : « ان دوابنا ما زالت عندنا ، وقد بعث الينا أقرباؤنا خدما يساعدوننا فى الحمل والنقل »

ثم نهض محمد فنهض يزيد وأسماء لتوديعه ، وتذكرت أسماء أن امها عرفته وذكرت اسمه على فراش الموت ، فنظرت اليه والدمع يتلألأ فى عينيها وقد ذبلتا وتكسرت أهدابهما وتنهدت ولم تجب . فحياها وتحول الى جواده فركب وعاد الى المدينة وقد علق ذهنه بأسماء واشتغل قلبه بها

اما ماظهر فى حديث يزيد من الرقة فقد اصطنعه تنفيذا لتعاليم

مروان . وكان قد ذهب الى المدينة خلسة ليستشير مروان فيما يصنعه اذا طلب اليه النزول فى جوار على ، وابدى خشيته من ان يكون هذا عقبة فى سبيل زواجه من اسماء ، بعد ان توفيت امها التى كانت عوناً لها على رفض هذا الزواج . وقد لقى مروان فى منزل الخليفة عثمان فانبأه بوفاة مريم ، واستشاره فاوصاه ان يحتال فى التخلص من محمد ، وعلمه كيف يشكر ويعتذر بالنزول عند اقاربه

وكانت اسماء خالية الذهن من كل ذلك لسلامة نيتها واشتغالها عن الدنيا باحزانها ، ولكنها شعرت بارتياح الى على ومحمد ، وبانهما سند عظيم لها اذا آنست من مروان او يزيد ما لا يرضيها

ولم يكد محمد يتوارى عن قباء حتى امر يزيد عبيدا كان مروان قد ارسلهم لخدمته فقوضوا الخيام وحلوا الامتعة ، وسار الركب الى المدينة بعد ان ودعت اسماء قبر امها واكرمت خادم الجامع وامراته فوق ما اكرمهما به محمد ، فودعاها وهما يبكيان

فلما اشرفوا على المسجد تذكرت اسماء لقاءها عليا هناك ، وما كان من اضطرابها وقلقها فى الليل الغابر ، وتاهت فى بحار التامل ، ولم يهمها شيء من ضوضاء اهل المدينة وتجمهرهم فى اسواقها . وقبل وصولهم الى المسجد مروا باحجار الزيت ، وهي موضع صلاة الاستسقاء بقرب الزوراء ، فراوا الناس هناك جماعات متكاتفين وهم اخلاط من اهل مصر والكوفة والبصرة ، وفيهم الامراء والفرسان والعبيد والخدم على اختلاف ازيائهم ، وكل حزب فى شاغل وحديث وجدال . وبلغوا دارا وراء الجامع فناؤها واسع يحيط به سور منيع ، ولها باب ضخم فى وسطه باب صغير ، وكان الباب مغلقا والحراس واقفون به ، فعلمت انها دار عثمان ، ولم يتجاوزوها حتى وصلوا الى باب وقفوا عنده . فترجل يزيد هناك فعلمت انه المنزل المقصود فترجلت وقد انهكها التعب والنعاس لما قاسته من المجاهدة والبكاء والحزن ، ولكنها لم تكد تدخل المنزل حتى لقيها مروان . فلما راته استعاذت بالله وندمت على مجيئها ، على انها لم تر بدا من النزول مع يزيد . فلما رآها مروان وقد تسربلت بالثوب الاسود وبدا تحته وجهها وقد زاده انكسار الحزن جمالا واشراقا ازداد تعلقه بها فتقدم نحوها مسلما ومعزيا ، فردت عليه ردا فاترا . اما هو فبالغ فى اكرامها وسار فى خدمتها الى داخل الدار وكان بعض نساء المنزل قد جئن لاستقبالها فدخلن بها حجرة ويزيد معها ، وهي لا تنطق بكلمة واذا كلمها احد لم يكن جوابها الا البكاء . ولما خلت الى يزيد سالته عن اهل ذلك المنزل فقال : « هؤلاء آل حزم »

ورأى مروان من الحكمة أن يتركها لتستريح فخرج يتدبر وسيلة لاسترضائها بالحسنى فخطر له أن يوسط بينه وبينها نائلة بنت القرافصة زوجة الخليفة ، وكانت نائلة ذات مقام رفيع لزواجها بالخليفة، على انها لم تكن من قريش بل قحطانية من بنى كلب ، وكان والدها القرافصة نصرانيا يقيم بالكوفة ، وكانت عاقلة حسنة الخلق . ولم تكن ترتاح الى مروان لنزقه وطيشه ، وكثيرا ما كانت تخالفه فيما يشير به على عثمان زوجها حتى انتهرته مرارا ونصحت لزوجها بألا يصغى اليه ، ولكنها لم تكن تبالغ فى جفائه احتراما لقرابته منه

فسار مروان اليها وكانت فى اضطراب عظيم لما أحاط بزوجها من الاخطار، فلما رأته قالت : « ما وراءك يا مروان ؟ » . قال : « ما ورائى الا الخير يا خالة ، انى أراك فى وجل من أمر هؤلاء الناس الذين يحاولون نزع الخلافة من أيدينا ، ورأس ذى النورين عثمان انهم لن ينالوا ذلك ، فقد كتبنا الى معاوية فى الشام ، والى عامر ورؤساء الاجناد من بنى أمية نستقدمهم الى نجدتنا ، فاذا جاءوا لم يستطع المصريون أو الكوفيون أو البصريون مناوأتهم فيتفرقوا أيدى سبا »

فتنهدت نائلة وقالت . « لا أظنهم يصلون الينا يا مروان الا بعد أن تنفد الحيلة ، والتبعة كلها عليك فانك وسعت الخرق بطيشك »

فضحك مروان وقال : «سوف ترين بعينك يا خالة مساعى مروان، وسوف تعلمين مدى فشل هؤلاء الاعداء المغرورين . فلا تجزعى ولا تخافى . اننا نحن الفائزون باذن الله »

قالت : « دعنا من الهزل يا مروان ان الأمر جلل »

قال : « بل هو اهون مما تظنين ، وما انا حاسب له حسابا ، ومما يدلل على ذلك انى بسبيل البناء بعروس جميلة جئت بها الى هذا المكان »

قالت : « وأية عروس ؟ » . قال أسماء بنت يزيد الأموية ، انها على جانب عظيم من الجمال وقد كانت فى دمشق ، وكانت أمها راغبة عن تزويجها وقد ماتت فى قباء ، وجئت بالعروس وابيها اليوم وانزلتهما فى دار بنى حزم ، وهى الآن نائمة تستريح من وعثاء السفر فأرجو منك اذا جاءتك غدا أن تقنعيها بأنى كفء لها »

فقالت : « أين نحن من الزواج يا غلام ؟ »

قال : « لا تقولى يا غلام وانا شاب بطل كما تعلمين ، واستحلفك براس امير المؤمنين أن تسترضيها ، وهى لاشك ستقتنع بكلامك . فاذا فعلت ذلك فديتك وفديت عمى الخليفة بروحى »

فسكتت نائلة وهي تعجب لنزق مروان ، ولكن استخفافه بمناهضي الخليفة طمأنها وبرد قلبها ، وما زال مروان بها حتى وعدته باسترضاء اسماء

فتركها وخرج الى يزيد فأخبره بما عزم عليــه ، ففرح وقال « حسنا فعلت وارى أن آتي بها انا الى نائلة فيكون ذلك أقرب الى نجاحنا »

فقال مروان : « وهب انها لم تقنع باسترضاء نائلة لها فاني أحمل الخليفــة على تزويجي بها قسرا ، وما انا براجع عن عزمي فانها فتــاة تعرف ما ينفعهــا وما ينفع اباها » . وقد اراد مروان بذلك ان يؤكد آمال يزيد بمنصب يناله بواسطة تلك المصاهرة

فأبرقت أسرة يزيد وقال : « طب نفسا يا بني فاني لن اجعلهــا تفعل الا ما أريد »

فودعه مروان وخرج ، وباتت اسماء تلك الليلة لا تدري بما بيتاه لها



نائلة بنت القرافصة

وفى الصباح التالى افاقت اسماء مذعورة وقد رات امها فى الحلم فبكت بكاء مرا ، ولم تكد تجلس بفراشها حتى دخل يزيد وهم بتقبيلها والرياء ظاهر فى وجهه ، فلم تطاوعها نفسها على تقبيل يده فلبثت فى الفراش صامتة كئيبة لا تبدى حراكا

فقال لها يزيد : « انهضى يا ابنتى واغسلى وجهك وهيا بنا لتحية مولاتنا نائلة زوجة امير المؤمنين ، ولا ريب انها ستعزيك فى أحزانك »

فقالت : « دعنى وحدى واغلق الباب فليس فى الدنيا ما يعزينى »

قال : « انهضى يا حبيبتى فان الحزن يضنيك ولا خير فيه . وهبى انها لا تستطيع تعزيتك فالذهاب اليها فرض لاننا فى حماها ». وما زال بها حتى انهضها . وفيما هى تتحفز للقيام دخل رجل فاستقبله يزيد قائلا : « اهلا بابى الجراح » . فبغتت أسماء لرؤيته فابتدرها يزيد قائلا : « انه مولى مولاتنا ام حبيبة واظنه جاء فى طلبك » . فقال ابو الجراح : « ان مولاتنا تدعوك اليها وقد علمت بما أصابك وبنزولك عند آل حزم فبعثتنى وجارية حبشية لناتى بك اليها »

فعجبت أسماء لهذه الحفاوة وشكرت تلك العناية ونهضت فلبست ثوبها وسرحت شعرها وعقصته وارسلته الى الوراء وارخت الخمار على راسها ، وتزملت بالرداء الأسود ، وخرجت والجارية معها ودخلت من باب موصل بين الدارين حتى بلغت دارعثمان فرات فيهما ما يليق ببيوت الخلفاء من الطنافس والأستار ونحوها ، ولقيت فى باحتها كثيرا من الجوارى والغلمان فمشت حتى اتت حجرة نائلة

فلما سمعت نائلة وقع أقدامها تحفزت للقائها . فلما دنت أسماء تنسمت رائحة الطيب ، وسمعت وسوسة اساور نائلة ودمالجها وعقودها وهى تتهيأ للوقوف ، فدخلت واستقبلتها نائلة وقد أعجبت بجمالها وهيئتها ، فهمت بها وضمتها الى صدرها وهى تقول : « أهلا بضيفتنا اهلا بابنتنا العزيزة »

فلما سمعت أسماء ذلك غلب عليها البكاء ولكنها تجلدت وقبلت

يدها وجلست الى جانبها ، وخرجت الجارية ، وبقيتا فى الغرفة وحدهما واسماء لا تتكلم

فهمت نائلة بمداعبتها فقالت : « أهلا بابنتنا الجديدة ومرحبا بها »

فشرقت اسماء بدموعها وقالت : « دعينى يا مولاتى ابكى أما حنونا فقدتها وارفقى بحالى »

فأثر هذا الكلام فى نائلة تأثيرا عظيما وترقرقت الدموع فى عينيها وقالت : « انى شريكتك فى احزانك يا حبيبتى ، أما ترضيننى بدلا من أمك »

فأجابت : « ان فى هذا أكبر تعزية لى على مصابى » . وتأوهت نائلة لتأوهها وقالت : «اصبرى يا بنيتى على مصابك ، فالحزن لا يجديك» . ثم أمرت بالمائدة ، فمد السماط فاعتذرت اسماء عن الطعام فألحت نائلة عليها فتناولت منه شيئا ، ثم أخذت نائلة تحادثها فى شؤون شتى حتى هدا روعها ، وجعلت تتأملها وتعجب لجمالها فاذا هى لا تشبه اباها فى شيء وكانت قد رأته عندما جاء معها

وكانت اسماء فى أثناء ذلك مطرقة غارقة فى بحار الهواجس فقالت نائلة : « ما بالك صامتة ، تكلمى يا اسماء واشغلى نفسك عن الحزن لعلك تتعزين »

قالت : « لا ارى شيئا يعزينى فى هذه الدنيا يا مولاتى ، ولا يحلو لى الكلام ، واحمد الله لما لقيته من مواساتك فقد استأنست بك كثيرا وشعرت بحنوك حنو الأم على ولدها » . قالت ذلك وهى تمسح دموعها وتشهق بالبكاء

فتأثرت نائلة وابقت الحديث فى شأن مروان الى فرصة أخرى . واحبت أن تسليها عن الحزن فدعتها لمشاهدة ما فى بيتها من الأثاث ، واكثره من الطنافس والسجاد والأوانى مما غنمه القواد فى فتح الشام والعراق من قصور الملوك والبطارقة واغنياء الروم والفرس ، وفيها اسلحة مرصعة وأعلام ودروع وآنية من الفضة والذهب من غنائم المدائن عاصمة الفرس على عهد عمر بن الخطاب ، وبينها تاج كسرى مرصع بالجواهر ، وثيابه ووشاحه وكلها من الديباج المنسوج بالذهب، المنظوم بالجواهر ، ودرع هرقل ، ودرع خاقان ملك الترك ، ودرع داهر ملك الهند ، ودرع النعمان بن المنذر ، وكثير من الاسياف المرصعة . وادركت اسماء من تكومها بعضها على بعض بلا تنظيم انها لم توضع لأجل الزينة . ثم خرجت نائلة بها الى غرفة صغيرة رأت فيها اريكة وعليها جواد من ذهب فوقه سرج من فضة ، وعلى ثغره

ولباته الياقوت والزمرد وعلى الجواد فارس من فضة مكلل بالجواهر . وبالقرب من الجواد ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ، ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب . فانبهرت أسماء لتلك التحف التى لم تر مثلها ولكنها علمت لأول وهلة أنها ليست من صنع بلاد العرب

فقالت : « ومن أين هذه التحف يا سيدتى ؟ »

قالت انها من غنائم المسلمين مما فتحوه من بلاد الفرس ، وهى من متاع بيت المال ، وانما نقلناها الى هنا لأمر اقتضى ذلك ، وسنعيدها اليه ، فأحببت ان أريكيها لأنها من أبدع ما صنع ولا نظن الزمان يأتى بمثلها »

فقالت أسماء : « لقد عرفت فائدة التيجان والسيوف والدروع ، ولكننى لم أفهم فائدة هذا الجواد والناقة ؟ »

قالت نائلة : « أخبرنى بعض من شهد فتح المدائن من امرائنا أنهم لما فتحوها ودخلوا ايوان كسرى راوا فى صدر الايوان الأريكة التى كان تاج هذا الملك قائما فوقها ، وعلموا أنه كان مركزا على اسطوانتين من المرمر المذهب وعلى قمة أحدى الاسطوانتين هذا الجواد وراكبه وعلى قمة الاسطوانة الأخرى هذه الناقة وراكبها . وكان الفرس قد نزعوا هذه وحاولوا الفرار بها فظفر بهم المسلمون وأخذوها منهم »

فأعجبت أسماء بما رات اعجابا عظيما . وبينما هى تنظر الى صحن الدار لمحت مروان مارا فأجفلت وانقبضت نفسها وارادت ان تعود الى حجرتها متظاهرة بالحاجة الى الراحة ، فودعت نائلة ورجعت فدخلت الغرفة واغلقت الباب وتوسدت الفراش وغرقت فى بحار الهواجس

أما مروان فكان قد علم بمجىء أسماء الى نائلة ، فأراد أن يعلم ما جرى بينهما فجاء متظاهرا بالرغبة فى لقاء الخليفة ثم تحول الى غرفة نائلة فرآها وحدها ، فسألها عما جرى فأخبرته أنها لم تفاتحها فى شىء وانها ستذهب اليها فى الغد وترى ما يكون . فألح عليها ان تستطلع ضميرها وتقنعها . فوعدته بأنها ستدعوها فى الغد الى الاقامة عندها

⊏⊐

وفى صباح اليوم التالى بكرت نائلة الى غرفة اسماء ، فوجدت الباب مغلقا ففتحته بلا استئذان ، فرات اسماء نائمة وقد اغمضت جفنيها وتوسدت احدى ذراعيها ، وجعلت الاخرى فوق راسها فانحسر كمها عنها فبان زندها وبانت عروقه مخضرة كانها خطوط متعرجة رسمها

الجمال تحت تلك البشرة الناعمة الفضة ، ونمت على كل زند عضلاته واستدارت حتى يخيل الى ناظره ان الصحة تتدفق منه . وكانت الشمس قد اشرقت فأرسلت اشعتها من نافذة فوق راس اسماء ، فمرت الاشعة حتى اجتازتها ولم تقع عليها ؛ ولكنها جعلت لزندها ظلا خفيفا وقع على محياها فاخفى ظل اهدابها الطويلة . فوقفت نائلة تتأمل ذلك الجمال المحلى بالصحة وهى تحاذر أن توقظها ، فلمحت على معصمها وشما على شكل الصليب فاستغربت ذلك لعلمها انها مسلمة ولا يتخذ ذلك الوشم غير المسيحيين . فتأملت فيه فاذا هورسم صليب لاريب فيه ، ثم دنت من راسها فرات العرق قد كلل جبينها وزادها بهاء وجمالا

وكأن اسماء احست بوقوف نائلة الى جانبها ، فغيرت وضعها ورفعت يدها عن جبينها واستلقت على ظهرها فانشق صدر ثوبها فبان من تحته قلادة من فضة تدلت منها تميمة صغيرة عليها رسوم مسيحية أيضا ، فازداد تعجب نائلة واشتد ميلها الى استطلاع السر . وبينما هى فى ذلك اذ رفعت اسماء يدها الى عينيها فمسحتهما فرات نائلة واقفة عند راسها ، فخجلت لنومها بين يديها ونهضت بعد أن ارسلت كمها فوق معصمها ، وأطبقت صدرها . فحيتها نائلة فردت التحية وهى تمسح عرقها وتهم بالوقوف ، فأقعدتها وقالت: « استريحى يا ابنتى انى لا أريد أزعاجك ولم آت الا التماسا لراحتك »

فأثنت اسماء على معروفها ودعتها الى الجلوس فجلست نائلة على جانب السرير وهى ممسكة يد اسماء تنظر الى رسم الصليب فيها ثم قالت : « لقد استغربت هذا الرسم على معصمك ، وعهدى بك مسلمة ، فهل رسمته على سبيل الزينة ؟ »

قالت : « لا أعلم ، ولا أذكر يوم وشمه ، لأنى كنت طفله . وقد سألت أمى عنه فلم تجبنى »

قالت : « وما هذه التميمة التى فى عنقك ؟ »

فمدت اسماء يدها الى التميمة فأخرجتها من بين ثوبها وقالت : « ولا أدرى من البسنى هذه أيضا » . قالت نائلة : « ولكنها تميمة مسيحية »

قالت : « لعلها كذلك ، وقد لبستها طوعا لأمر أمى فقد أوصتنى أن احتفظ بها منذ طفولتى »

فلم تعرف نائلة شيئا ، وازدادت رغبتها فى البحث ، فقالت : « الا اخبرتنى يا اسماء كيف وصلت اليك هذه التميمة ، وكيف رسم على يدك هذا الصليب ؟ اخبرينى ولا تخافى فان النصارى اهل ذمة عندنا .

ثم انى ولدت فى بيت مسيحى أنا أيضا وكانوالدى نصرانيا. فأخبرينى امرك وانا اعلم ان اباك يزيد مسلم أموى »

فتذكرت اسماء امها وكتمانها اسم ابيها الحقيقيفتنهدت وصمتت، فعجبت نائلة لسكوتها وتسترها وقالت لها: « ما بالك صامتة؟ بوحى لى بسرك ولا تخافى فانك بمنزلة ابنتى عندى »

قالت اسماء: « بماذا أبوح وانا لا اعلم من هذا السر شيئا، واعترف انى كنت منذ حداثتى ارى هذا الصليب وهـذه التميمة ولا أعلم من أمرهما شيئا »

قالت: « كيف يكون ذلك؟ »

قالت اسماء: « هذا هو الواقع يا مولاتى ولا اعلم من أمرهما و... » وصمتت

فقالت نائلة: « قولى يا اسماء ولا تخفى سرك على »

قالت اسماء: « ماذا اقول وأنا لا أعرف شيئا غير ما ذكرت؟ »

قالت: « يظهر لى من ترددك انك تخفين شيئا آخر »

فتنهدت اسماء تنهدا عميقا ونظرت الى نائلة والدموع ملء عينيهـا وحاولت الكلام فخنقتها العبرات فسكتت

فضمتها نائلة الى صدرها وقبلتها وهى تزداد اعجابا باشراق طلعتها وقالت: « قولى يا بنيتى، قولى ما فى نفسك وثقى انى حافظة سرك عن كل انسان »

فمسحت اسماء دموعها، وتنفست الصـعداء وقالت: « ماذا اقول لك ياخالة؟ ان سؤالك جدد أحزانى واذكرنى امى المسكينة » . قالت ذلكوعادت الى البكاء

فمسحت نائلة دموعها وقالت: « رحم الله تلك الأم الحنون، فانهاقد خلفت لنا ملاكا كريما . قولى ما هو سرك »

قالت: « ان سرى يا سيدتى قد ذهب الى القبر مع امى » . قالت ذلك واوغلت فى البكاء

فقالت نائلة: « هل كانت أمك تخفى السرعليك وماتت قبل أن تبوح به؟ »

قالت: « نعم، ماتت وخلفت لنا حرقة فراقها، وزادت تلك الحرقة لوعة بكتمانها سرا ذهب معها الى القبر، ولكنها .. »

قالت: « ولكنها ماذا؟ » . قالت: « ولكنها أخبرتنى أن يزيد الذى يزعم انه ابى ليس هو كذلك فى الحقيقة »

فبغتت نائلة ، وتذكرت أنها حدست ذلك مذ رأته فقالت : « لقد شككت فيه ، فاخبريني عما تعلمينه من تاريخ حياتك لعلي أستنتج شيئا »

فقالت : « لقد ربيت في دمشق الشام منـذ طفولتي ، وقد كفلتني أمي المسكينة وزوجها يزيد هذا معهـا ، وكنت أظنه أبي ثم علمت أنها تزوجته في مصر على أثر قدوم عمرو بن العـاص اليها ، وكان يزيد في جنده يوم الفتح ، فكانت أمي نصيبه من الغنيمة ، وكنت أنا يومئذ في العام الأول من عمري . هذا كل ما أعلمـه . وقد ألححت على والدتي أن تصدقني الخبر فوعدتني ثم سبقها أجلها »

فبهتت نائلة وظلت صامتة برهة تفكر وأغلق الأمر عليها

وفيما هما في ذلك اذ سمعتا وقع أقدام مسرعة أمام الباب فالتفتتا فاذا يزيد قد دخل مسرعا وعلى وجهه امارات البغتة ، فلما رأى نائلة تأدب في وقوفه وحياها . فقالت : « ما وراءك يا أخا أمية ؟ »

قال وعينـاه لا تسـتقران واجفانهمـا ترف : « ما ورائي الا الخير يا مولاتي »

قالت : « قل ما وراءك ؟ »

قال : « خرجت في هـذا الصباح في شـأن لمروان ، وعدت الآن فلم أستطع الدخول الى المنزل الا خلسة ! »

فنهضت نائلة وقد خفق قلبها وحدثتها نفسها بسوء كانت تتوقعه وقالت : « ما الذي منعك من الدخول ؟ »

قال : « عصبة تجمهروا على منزل أمير المؤمنين بخيلهم ورجلهم وقد علا ضجيجهم ولا أدري ما يبيتون »

فبغتت نائلة وقالت : « وماذا يبغون يا يزيد ؟ قـل » . قال : « لا أدري يا سيدتي ولعلهم يضمرون الشر »

فخرجت نائلة مهرولة وبدنها يترجرج لضخامة فخذيها ، وأسـماء في أثرها وقد نسيت حزنها واشتدت عزيمتها حتى دخلتـا دار عثمان وتحولتا الى أول حجرة تشرف على الطريق فأطلتا فرأتا الناس جماعات وقد تجمهروا بأسلحتهم وخيولهم ، وعلا صياحهم ، فاضطربت نائلة وامتقع لونها وأخذ الخوف منها كل مأخذ

أما أسماء فبقيت رابطة الجـأش ، وجعلت تشجعهـا وتقول لهـا : « لا تخافي ياسيدتي فانهم لايستطيعون الدنو من الدار فهي محاطة بهذا السور العالي ، واذا هم هموا بتسلقه فاننا نرميهم بالنبال والحراب »

فعجبت نائلة من شجاعة اسماء ورباطة جاشها ، وكأنما سرت اليها عدواها فأمسكتها وتوجهت تقصد غرفتها

وبينما همــا فى صحن الدار اذ ســمعتا لغطــا ورأتا هناك نفرا من المهاجرين يهمون بالدخول الى الدار وحالما وقعت عينـــــا نائلة عليهم همست فى اذن اســماء كلاما يتخلله ارتعــاش وقالت : « هؤلاء كبار الصحابة قد اتوا ، ولا ادرى غرضهم من أمير المؤمنين» . ونظرت اسماء اليهم فرات عليا بينهم فحدثتها نفسها بأن تكلمه ، فجذبتها نائلة وسارت بها الى أقرب حجرة هناك التماسا للحجاب ، واغلقت الباب فاذا همــا فى حجرة بينها وبين مجلس عثمان باب مقفل ، ونائلة ممسكة بيد اسماء فأحست هذه بارتعاش اناملها فقالت لها : « ما الذى أخافك ياخالتى؟ »

قالت نائلة بصوت مهدج : « أخافنى مجىء هؤلاء ، فانهم قلمــا جاءونا الا لتأنيب أو تهديد » . قالت : « ومن هم ؟ » .

قالت : « على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . وهم وجوه الصحابة ومن الطامعين فى الخلافة وكل يريدها لنفسه ، وما زلنــا منــذ تولاها أمير المؤمنين لايهدأ لنــا بال مما يتهمونه به من الأعمال . ارأيت الى الناس المحيطين بمنزلنا الآن ؟ هؤلاء أهل الكوفه والبصرة ومصر جاءوا يطالبون الخليفة بأمور ما أنزل الله بها من سلطان»



الفتنة وأسبابها

قالت أسماء : « بماذا يتهمونه ؟ » . فدنت نائلة من ادن أسماء وهمست : « يزعمون انه استأثر بالأمر وآثر آله بمناصب الدولة فولاهم الاعمال دون سواهم ، وانه غنم الاموال الطائلة واقتنى المماليك ، وانه يختص ذوى قرباه ، بالمال ، هذا ما يزعمونه . وما كانوا صادقين » فنظرت اليها اسماء كأنها تستوضحها

قالت : « وما هى الحقيقة اذن ؟ » . قالت نائلة : « أما استئثاره بالسلطة فذلك لأنه أمير المؤمنين له الامامة والسلطان، وأما ايثاره أقاربه فله أسوة بالرسول فقد كان يعطى قرابته، وأما احراز الأموال والتوسع فى المعيشة فانهما من مقومات هذا المنصب . ثم ان أمير المؤمنين يطعم الناس طعام الامراء ، وأما هو فوالله لقد رأيته يأكل الخل والزيت ، اتعدين من يفعل ذلك طامعا فى الدنيا ؟ »

قالت أسماء : « ادن فلماذا هذه الفتنة ؟ »

فسهدت نائلة وقالت : « انهم فعلوا ذلك حسدا ، وانى أعرف من زعماء هذه الثورة قوما عاشوا فى نعم أمير المؤمنين اعواما ، ثم وسوس لهم الشيطان . وقد أخبرنى ثقة أن الذى حرضهم على ذلك رجل يهودى اسمه عبد الله بن سبأ أسلم حديثا وأخذ يتنقل فى الحجاز والبصرة ثم الكوفة والشام ، يريد اضلال الناس فلم يصغوا له ، وأخرجوه من الشام فأتى مصر وأقام فيها فلقى هناك آذانا صاغية ، فجعل يقول لأهل مصر : (العجب ممن يصدق ان عيسى يرجع ، ويكذب ان محمدا يرجع ، فوضع لهم بدعة يسمونها (الرجعة) فقبلوا ذلك منه . وقال لهم : (كان لكل نبى وصى ، وان عليا وصى محمد ، فمن اظلم ممن لم يجز وصية رسول الله) . وزعم ان امير المؤمنين عثمان وثب على وصى الرسول وأخذ الخلافة بغير الحق فقال لهم : (انهضوا بهذا الامير ، ابدأوا بالطعن على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا به الناس) . وبث دعاته ، وكاتب أشياعه فى الامصار وكاتبوه ، وبثوا دعوتهم فى الخفاء وصاروا يكتبون الى الامصار كتبا يضعون فيها من أقدار ولاتهم ، وتوسعوا فى دعايتهم فبدأ الفساد

من ذلك الحين ، فثار المسلمون فى كل الانحاء الا أهل الشام والمدينة فانهم ثبتوا على الولاء للخليفة . هذا هو سر الامر يا ابنتى »

فتأثرت اسماء واقتنعت بما قالته نائلة ، ومالت كل الميل الى نصرة عثمان ، ومشت الاثنتان نحو الباب المقفل بينهما وبين مجلس الخليفة . فنظرت اسماء من شق فيه فرأت عثمان جالسا فى صدر المجلس على وسادة مزركشة وقد علته البغتة وامتقع لونه وآثار الجدرى لا تزال ظاهرة فيه . وتأملته جيدا فرأته مشرف الانف عظيم الارنبة ، وقد ادار نظره نحو الدار ويده اليسرى على لحيته يمشطها بأصابعه يتشاغل بها عن قلقه ، وخاتم الخلافة فى احدى أصابعه ، وفى يده اليمنى قضيب الخلافة . وكان قد نزع عمامته فبانت صلعته ، وسمعت فى بعض جوانب الغرفة رجلا يقرأ القرآن ولم تره . ورأت بين يدى الخليفة جماعة من امية لم تعرفهم ، ثم سمعت خفق نعال عند باب المجلس واذا بعثمان يضع العمامة على راسه ويقف تكريما للقادمين ، وكان أول من دخل منهم على بن ابى طالب فحيى عثمان بتحية الخلافة قائلا: « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . ثم دخل بعده رجل ربعة أميل الى القصر ، رحب الصدر ، عريض المنكبين ، اذا التفت التفت جميعا ، ضخم القدمين ، حسن الوجه أبيضه ، مشرب بالحمرة ، كثير الشعر ، ليس بالغزير ولا بالخفيف وقد شاب أكثره فلم يصبغه ، فحيى وجلس الى جانب على . فالتفتت أسماء الى نائلة وسألتها عنه فقالت : « هذا طلحة بن عبيد الله » . ثم دخل فى أثرهما رجل أسمر اللون خفيف اللحية معتدل العضل فقالت اسماء : « ومن هذا ؟ » . قالت : « الزبير ابن العوام » . ولما استتب بهم المقام قالت نائلة : « اجلسى يا ابنتى لنسمع ما يدور بينهم فعساهم ان يكونوا قد جاءوا لخير »

فجلستا تنظران وتسمعان ولا يراهما احد

بدأ على الكلام فى المجلس قائلا لعثمان : « أتدرى لأى شىء جئناك يا أمير المؤمنين ؟ »

قال عثمان : « الله أعلم » . قال : « يعلم الله أننا جئنا نريد بك خيرا ، انك يا أمير المؤمنين ابن عم الرسول الأعلى ، وقد تزوجت باثنتين من بناته ، وتلك كرامة لم يحزها أحد سواك ، وانت يا أبا عبد الله من السابقين الاولين ، فقد صليت الى القبلتين ، وهاجرت الهجرتين ، وانت أول من هاجر الى الحبشة ، وتوليت الكتابة للرسول ، وجمعت القرآن ، فأنت يا أمير المؤمنين من خير الصحابة ، وقد توفى رسول الله وهو عنك راض وبشرك بالجنة ، فلا نرضى ان تكون الامة ناقمة عليك ولا ان يهموا بخلعك أو قتلك ، ونحن نعلم انهم اذا فعلوا كانت الفتنة نعوذ

بالله منها فتقسم الامة وتكون العاقبة وبالا عليهـا » . وكان على يتكلم وعثمان مطرق يقلب فى صفحات مصحف بين يديه ، فلما اتم على كلامه رفع عثمان راسه وقال : « انيعالم بكل ذلك يا ابا الحسن . بم يقتلوننى وقدسمعترسولالله (صلعم) يقول : (لايحلدم امرىء مسلم الاباحدى ثلاث : رجل كفر بعد اسلام ، أو زنى بعد احصان ، او قتل نفسا بغير حق) . وما فعلت شيئا من هذا وانى اتقدم اليكم ان تشيروا على »

فقال على : « نرى ان تخاطب النـاس فانهم هاجوا واحاطوا بدارك ناقمين فقم اليهم وعدهم خيرا »

قال عثمان : « لقد طالما وعدتهم وامهلتهم فلم يقنعوا »

قال على : « وعدتهم ثم اخلفت ، ولا نعد ذلك اخلافا منك ولـكنك اصفيت لابن عمك مروان ، وهو غلام لايفقه شيئا ، فاذا نحن خرجنـ من بين يديك جاءك واعظم استرضـاءك المسـلمين وقـد فاته ان فى استرضائهم قطع دابر الفتنة فقم اليهم وكلمهم »

وكانت أسماء تسمع . فراقها انصياع عثمان ، واستبشرت خيرا . ولكنها لما سمعت ذكر مروان اقشعر بدنها

اما عثمان فقال : « ساقوم واخاطبهم ولا بأس من هذا ، ولكنماالذى حملهم على هـذه الثـورة ؟ أخبرونى ان كنت مخطئـا استغفرت لذنبى واذعنت »

فابتدره الزبير قائلا : « يقولون انك استأثرت بالامارة وجعلتها لنفع اقاربك ، وجمع الاموال والاستكثار من الخـدم والضـياع ، فانك تملك نحو مائة وخمسين الف دينـار ، والف الف درهم نقودا ، ومثلهـا من الضياع . وقد اقتنيت الخيل والابل وقد كان الفاروق عمر بن الخطاب يرقع ثوبه بالجلد ، وهـذا ابن عم الرسول يقول : يا بيضاء ويا صفراء غرى غيرى . »

فالتفت عثمان الى الزبير وقد نشط كانه شعر بأن الحق فى جانبـه وقال : « اانت تقول ذلك يا ابن العوام ؟ أتحسبون حشد الاموال ذنبا يستوجب القتل ونحن فيه سـواء ، الم تستكثر انت من الاموال ؟ الا تملك خمسين الف دينار والف فرس والف عبد والف امة ماعدا الدور والضياع . وهذا طلحة ايضا فان غلته من العراق الف دينـار فى اليوم وعنـده الف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم . وهـذه داره فى الـكوفة وتسمى الكناس . وهذا زيد بن ثابت، وعبد الرحمن بنعوف ، وغيرهم من الصحابة ، عندهم الاموال الوافرة . لعلكم ورثتموها عن آبائكم ، ام هى مال حلال لنا جميعا غنمناها فى الجهاد بنعمة الاسلام ؟ »

ثم توجه بقوله الى الجميـــع وقال : « اننا نعرف بعضنـــا بعضـــا فى الجاهلية ، وقد كنا نسكن ارضا غير ذات زرع ولا ضرع ؟ وكان فينـــا أناس يأكلون العقـــارب والخنافس ويفاخرون بأكل وبر الابل يموهونه بالحجارة فى الدم ويطبخونه. حتى أنارنا الله بالاسلام واجتمعت عصبية العرب على الدين وطلبنـــا ماكتب الله لنا من الارض بوعد الصـــدق ، فابتززنا ملكهم واستبحنا دنياهم . أليس ذلك مالا حلالا لنـــا ؟ فكيف نستحق القتل أو الخلع عليه ؟ . وأما اعطائى اقاربى فقد كان رسول الله يعطى قرابته . ولكنى أراكم قد غرتكم مقالة ابن سبأ » . قال ذلك وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما حتى رقصت لحيته

فلما سمع على مقالته أغفل الاشارة الى ابن سبأ لأنها تتعلق به وقد تسبب نفورا ولكنه قال : « يخيل الى يا أباعبد الله ان سبب هذه الفتنة انما هو ما ذكرت من اسكثار المال ، فانه يفرق بين الأب وابنه ، وهذا ماحملنى على كرهه حتى قلت : (ياصفراء ويابيضاء غرى غيرى) . فهما انها قد غرتكم . ولكن مالنا ولهذا الجدال فقد جئنا نطلب حسم الخلاف وهو لايكون الا بأن تخطب هؤلاء النـــاس المحيطين بالدار ، ولا آمن أن يجىء ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول : (يا على اركب اليهم) . فان لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمك واستخففت بحقك »

فقال عثمان : « انى اول من اتعظ ولا احب أن يهرق بسببى محجب من الدم » . قال ذلك ونهض وهو يصلح عمامته ويمكن برده على كتفيه والقضيب بيده . وخرج وتبعه على ورفاقه

قالت أسماء : « بورك فى على . فان به صلاح هذه الامة ، وكم أحب أن اسمع الخليفة يتكلم »

قالت نائلة : « أتبعينى فان فى حجرتى نافذة تطل على المكان الذى يقف فيه أمير المؤمنين »

فنهضنا ولبسا برهة ريثما خرج الناس ، ثم خرجتا الى غرفة نائلة واطلتا من النـــافذة بحيث تريان وتسمعان ولا يراهما أحد . فرأتا عثمان وقد أشرف على الجموع . فلما رآه النـــاس علا ضجيجهم ونظروا اليه فقال وصوته يتلجلج : « أيها الناس انى أول من اتعظ ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب اليه فمثلى من نزع وتاب . فاذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليروا فى رأيهم ، فوالله لئن ردنى الحق عبدا لأستنن بسنة العبيد ، ولأذلن ذل العبد ، وما عن الله مذهب الا اليه . فوالله لأعطينكم الرضا ولأنحين مروان وذويه ولا أحتجب عنكم »

ولم يتم كلامه حتى اختنق صوته وترقرقت الدموع فى عينيه ، فبكى كل من سمعه

وكذلك بكت نائلة واسماء ، وبينا هما خارجتان سمعتا وقع اقدام آتية الى الغرفة ، ثم رأتا عثمان داخلا وقد امتقع لونه واضطرب . فلما رآته أسماء همت بالخروج حياء فدعتها نائلة للسلام عليه ، فتقدمت اليه وهى مطرقة اجلالا وهمت بتقبيل يديه فحياها وهو يتأمل جمالها وهيبتها ثم نظر الى نائلة مستفهما ، فقالت : « انها ضيفة عندى يا أمير المؤمنين ، واحمد الله على أن قدومها كان خيرا فقد قضى الأمر » . فنهض وهو يبحث عن وسادة يجلس عليها فلما جلس دعاهما للجلوس فجلستا وهو لا يزال يتفرس فى أسماء وقد استغرب لباسها الأسود وقال : « مالى أراها فى السواد ؟ »

قالت : « لانها فقدت أمها بالأمس وهى قادمة من الشام فنزلت عند جيراننا بنى حزم مع أبيها »

قال : « ومن هو أبوها ؟ »

قالت : « يزيد الذى جاءنا منذ أيام » . فنظر اليها وابتسم ابتساما لم يغير شيئا من مظاهر اضطرابه وقال : « لقد جئت أهلا ووطئت سهلا عزاك الله على مصابك »

فقالت أسماء : « من كان فى جوار أمير المؤمنين فهذا عزاءه »

فأعجبه جوابها وقال : « وماذا يصنع ابوك ؟ »

قالت : « لا شيء يا مولاى »

قال : « سننظر فيما ينفعه » . ولم يتم عثمان كلامه حتى دخل مروان فجأة بلا استئذان ومعه جماعة من شباب بنى امية ، فلما رأته أسماء أجفلت وانقبضت وهمت بالخروج ، ولكنها استحيت فانزوت فى بعض جوانب الغرفة

أما مروان فانه دخل متقلدا سيفه وقد أرخى رداءه تيها وعجبا ، حتى اذا اقترب من الخليفة جلس الى جانبه وحياه بتحية الخلافة ثم حياه رفاقه وجلسوا ، وساد السكوت حتى لاحت من مروان التفاتة الى جانب الغرفة فرأى أسماء فسر لقربها من نائلة ، واحب أن يظهر لها نفوذه عند الخليفة لعله ينال حظوة فى عينيها ، فنظر الى عثمان وقال : « يا أمير المؤمنين اتكلم ؟ أم أسكت ؟ »

فابتدرته نائلة قائلة : « لا بل أصمت ، فانهم والله قاتلوه ومؤتمرون به . انه قد قال مقالة لا ينبغى أن ينزع عنها »

فحملق مروان فيها وقال : « ما انت وذلك ؟ فوالله قد مات أبوك وهو لا يحسن أن يتوضأ »

فقالت : « مهلا يا مروان عن ذكر الآباء . تخبر عن ابى وهو غائب

فتكذب عليه ، وان اباك لا يستطيع ان يدفع عن نفسه . اما والله لولا انه عمه (عم الخليفة) وانه ينااله غمه لأخبرتك عنه ما لن اكذب عليه فيه »

وكانت اسماء تسمع كلامها وهي تكاد تتميز غيظا ، ولكنها احترمت المقام وخافت أن يستهجنهاعثمان، فصبرت لتسمع ماذا يريد ان يقول

أما مروان فاعرض عن نائلة مخافة أن تزيده تعنيفا ونظر الى عثمان فقال : « يا امير المؤمنين اتكلم أم اسكت ؟ » . قال : « تكلم »

فقال : « بأبي انت وامي ، والله لوددت أن مقالتك التى قلتها اليوم على مسمع من المسلمين كانت وانت ممتنع فكنت أول من رضي بها واعان عليها . ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطبيين ، وبلغ السيل الزبى ، وحين اعطى الخطة الذليلة الذليل . ووالله لاقامة على خطيئة ويستغفر منها أجل من توبة يخوف عليها . وانت ان شئت تقربت بالتوبة ولما تقربت بالخطيئة ، وقد اجتمع بالباب امثال الجبال من الناس يريدون أن ينزعوا ملكنا من أيدينا »

وكان عثمان يسمع مقالة مروان وهو مطرق يفكر واسماء تراقب حركاته وتخاف أن يصغى عثمان له فيعود الأمر الى اعظم مما كان ، فوقفت بقامة تخجل البان وقد زادها العبوس مهابة وخاطبت الخليفة قائلة : « أيأذن امير المؤمنين لأمته في كلمة ؟ »

فأعجب بشجاعتها ، وتحولت اليها أنظار الحاضرين ، وقال عثمان : « قولى يا بنية » . فقالت : « ان وقوفي بين يدى امير المؤمنين ودخولي في شؤون امارته لتطفل جرىء ، وعذرى انني اقولها كلمة خالصة لوجه الله والخليفة . انى يا أمير المؤمنين أرى ما يقوله ابن عمك ايقادا للفتنة بعد أن نامت ، ومدعاة للقتال واثارة للحرب . وشرا مستطيرا »

فلما سمع مروان مقالها قهقه استخفافا ولم يجبها ، ولكنه حول وجهه الى الخليفة وقال : « كأن هذه الفتاة تريد ان يسمع امير المؤمنين لمشورة النساء ، وقد قيل انهن ناقصات العقول » . قال ذلك وأغرب في الضحك

فحمي غضب اسماء وثارت الحمية في راسها ، وقالت : « ان النساء مهما يكن نقص عقولهن لأكمل عقلا ممن يرى العبرة ولا يعتبر . فقد كفاك تغريرا بأمير المؤمنين ، واعلم أن الذين اشاروا عليه بما عمله انما هم نخبة المهاجرين وخير صحاب الرسول وليسوا ناقصي العقول»

وكانت نائلة تسمع كلام اسماء وقلبها يرقص طربا ، ولكنها خافت طيش مروان وتوقعت ان يغضب . فاذا به عاد الى الضحك وقال :

« لا اقول انهم ناقصو العقل ولكنهم يريدون اذلالنا ، ونزع هذا الأمر من يدنا ، وليس من شانك أن تشيرى على أمير المؤمنين »

قالت : «لم اقف فى حضرته الا باذنه ، وليس لك أن ترد ما أمر به »

فحمى غضب مروان فوقف ويده على قبضة حسامه وقال : «والله انى ضاربك بحد السيف فقاطعك نصفين »

فابتسمت مستخفة ، ورفعت يدها وقد انحسر بعض كمها حتى بان معصمها وقالت وهى تشير اليه بسبابتها تهديدا : « لا تظننى اخاف حسامك اذا جردته ، فلولا حرمة أمير المؤمنين لقتلتك بسيفك ، فاردد يدك عن قبضته فما انا ممن يخاف السيوف . ولا يغرنك انى فتاة ، واذا اردت أن تعرف من انا فعليك بالنزال فى ساحة الوغى »

فعجب الحاضرون لهذه الحماسة وبهتوا لما سمعوه مما لم يكونوا يتوقعونه من الفتاة . اما مروان فخجل من تأنيبها وكظم غيظه وتظاهر بالاستخفاف وعاد الى مجلسه ضاحكا وهو يقول : « لولا حرمة أمير المؤمنين لعلمتك معنى النزال »

قالت : « كان يجب عليك أن تحترم مجلس الخليفة قبل أن تقبض على الحسام ، وما رجوعك عن قحتك الا جبن وخزى »

فهم مروان بالوقوف ثانية وقد امتقع لونه وارتعشت انامله ، فامسكه عثمان واجلسه وهو معجب بجراة أسماء ، ثم وضع يده على كتف مروان وقال له : « لم اكن اتوقع منك اطالة الجدال ، وكأنى بك تجرد السيف امامى اذا تركتك وشانك »

فخجل مروان وسكت وفى نفسه حزازة ونقمة

واشار عثمان الى نائلة فنهضت واخذت بيد اسماء وخرجتا ، والحاضرون يتبعون أسماء بأبصارهم ويعجبون بما سمعوه وبما ينظرون من لين قوامها واسترسال شعرها وحسن خطاها

فلما دخلتا غرفة أخرى قبلتها نائلة وقالت والدموع ملء عينيها : « بورك فيك يا أسماء ، والله انك قد شفيت غليلى من هذا الغلام ، ولكننى ارى أنه سيقنع الخليفة ويحمله على الرجوع »

قالت : « فلنقف هنا لعلنا نسمع ما يدور بينهما » . ثم وقفتا فسمعتا مروان يقول له : « مالنا ولأقوال النساء ؟ ان الأمر جلل ولا ادرى اذا كنت قد قلت ما قلته مكرها »

قال عثمان : « ومن يكرهنى ؟ » . . !

أسماء ومحمد ومروان

اغلقت اسماء الباب وجلست على السرير تفكر فيما مر بهـا من غرائب الاحداث . فتصورت امها وحنوها وتذكرت كيف كانت تشكو اليها همها فى مثـل تلك الحـال ، فغلب الحزن عليهـا وبكت . وفيما هى فى ذلك اذ سمعت وقع أقدام أمام بابها فأجفلت وافتقدت الخنجر وتحفزت للوقوف وقد نسيت حزنها ، ولبثت هنيهة فلم تسمع صوتا . ثم سمعت نقرا على الباب فوثبت اليه وفتحته وقد تهيأت للقاء مروان فاذا بالباب محمد بن أبى بكر ، فأجفلت وغلب عليها الحياء واختلط حياؤها باجفالها فزاد وجهها مهابة وجلالا

اما محمد فلما رآها فى تلك الحال ابتدرها قائلا : « ما بالك يا اسماء ؟ ما الذى أخافك ؟ » . فغالطته وحيته ولم تجبه ، فرد التحية ومد يده فسلم عليها وشعر عند لمس يدها ببرد أناملها وارتعاشها فقال : « مابالك ترتعشين وانت وحدك ؟ » . قال ذلك وهو ينظر الى جوانب الغرفة لعله يرى أحدا هناك فازداد تعجبا

أما هى فتجلدت وقالت : « لا شيء يخيفنى يا محمد وأنا فى حمى ابى الحسن »

قال : « لقد صدقت ولكننى اراك فى اضطراب وهياج كأنك كنت تخاصمين أحدا أم انت ترتعدين لقدومى على غرة وانا انما فعلت ذلك طوعا لعلى فانه أرسلنى لافتقدك وانظر فى حوائجك »

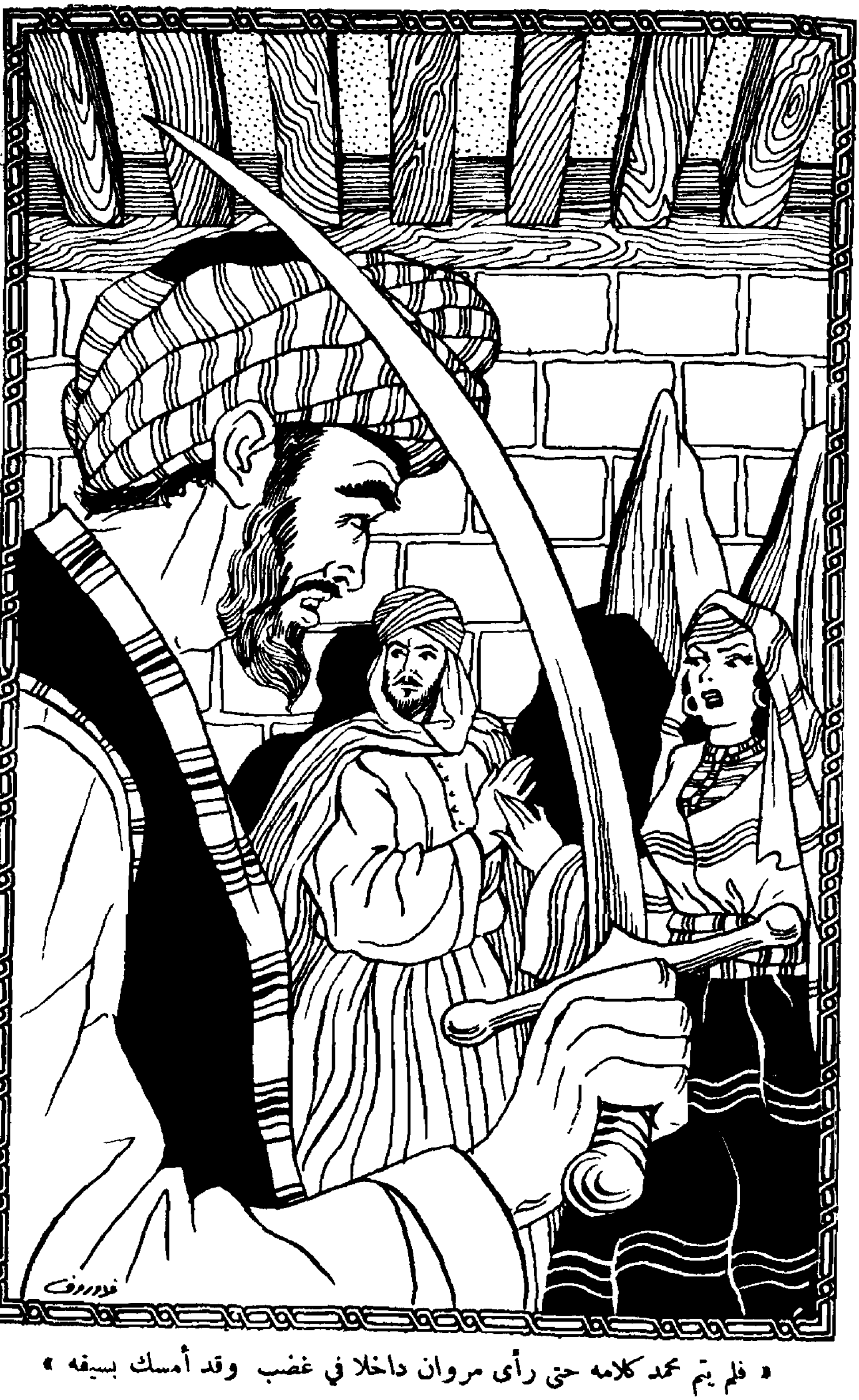
قالت : « بورك فيه وفيك ، واشكر لكما عنايتكما بى فانى بحمد الله فى خير وعافية أدعو لسيدى ابى الحسن بطول البقاء » . قالت ذلك وجلست على السرير

اما هو فود لو يمكث عندها ، ولكنه خاف أن تستهجن ذلك منه لخلو المكان من الناس فقال : « وأين ابوك ؟ »

فتنهدت وقالت : « لا أدرى أين هو الآن »

فقال : « ما بالك تتنهدين يا اسماء ، انى اراك تكتمين امرا »

قالت : « لا أكتم شيئا ولكننى » . وسكتت



« فلم يتم محمد كلامه حتى رأى مروان داخلا في غضب وقد أمسك بسيفه »

قال : « ولكنك ماذا . قولي »

قالت : « لا ادرى ماذا أقول وانا كلما نظرت اليك ذكرت امي التى ذكرت اسمك وهي على فراش الموت » . وترقرقت الدموع فى عينيها

فلما راى محمد دموعها انفطر قلبه شفقة وامسك بيدها وجوارحه تختلج وقال : « رحم الله تلك الأم فانى ما برحت منـذ رايتها وانا فى شغل شاغل لا يهدأ لى بال قلقا عليك ، وقد كان على أن افتقدك قبـل الآن ولكن الاحداث التى نحن فيها حالت بيني وبين ما أريد ، فامر هذا الخليفة قد أقض مضاجعنا فلا نكاد نرتق فتقا حتى يتفتق غيره »

وكانا يتكلمان ومحمد واقف والباب مغلق الى نصفه فلم يتم محمد كلامه حتى راى مروان داخلا وملامح الغضب تلوح على وجهه ، وقد حل سيفه ، فلما رآه محمـد لمح الغدر فى عينيه فنظر اليـه شزرا ولم يعبأ به

اما مروان فقال وقد علاه الأصفرار والبغتة : « ما الذى جاء بك الى هذا المكان يا ابن أبي بكر »

فقال محمد : « ما شأنك وما أنا فى بيتك ؟ »

قال : « انك فى دار الخليفة وقد دخلت على نسائنا بلا استئذان »

فاستغرب محمد قوله ونظر الى اسماء كأنه يستفتيها ، فقالت غير هيابة او وجلة : « ان مروان يتكلم متطفلا فيما لا تناله ذراعه ولو تطاول »

فابتسم مروان ابتسام المستهزىء وقد اشتد غيظه وقال : « سلى اباك اذا كانت ذراعى تنال ام لا »

قالت : « دع ذكر الآباء وارجع من حيث اتيت والا اسمعتـــك مالا يرضيك »

فضحك مروان وتوكأ بيده على سيفه وقال ويده الأخرى على شاربيه : « أراك تغررين بنفسك كأنك نسيت ما نالك بين يدى الخليفة ، الا تعلمين انك اذا بقيت على غرورك ندمت حيث لا ينفع الندم »

فاستغرب محمد هذا الجدال ، ولكنه ادرك ما فى نفس مروان فاتقدت فى قلبه نار الغيرة ، وعظم عليه التطاول وهم به يريد ضربه، فاعترضت اسماء بينهما وقالت : « دعه يا محمد لأرى ما هو فاعل » . قالت ذلك وتقدمت الى مروان ويدها على خنجرها كأنها تهم باستلاله ، وقد قطبت حاجبيها وحمى غضبها حتى كاد الشرر يتطاير من عينيهـا .

فأخذ محمد بشجاعتها ولم يكن يعهد مثل هذا فى النسـاء ، فأراد ان يحول بينها وبين مروان فلم تمكنه من ذلك

اما مروان فلما راى ما كان من اسماء وادرك أن محمدا منجدها خاف العاقبة ، وكان قد قبض على حسامه فرفع يده وتظاهر بالضحك ومد يده يريد أن يمسك بيد أسماء ليكلمها فجذبت يدها وقالت : « جرد حسامك وارنى شجاعتك ، وهذا ابن ابى بكر شاهد على ما يكون »

فقال مروان : « أأجرد حسامي على فتاة ؟ . اما دواؤك يا اسماء فهو عندي » . قال ذلك وخرج متغاضبا وهو انما خرج خائفا كاظما وعزم على الفتك بأسماء غيلة

ونظر محمد الى اسماء وقد علت وجهها مهابة الأبطال ، وذهب عنها ذل الحزن والضعف ، فاعجب بما خصها به الخالق من الهيبة والأنفة فامسكها بيدها وأرجعها الى غرفتها قائلا : « بورك فى شهامتك يا اسماء ، ولكننى أراك قد اكترثت بهذا الشاب التافه فاتركيه وشأنه»

قالت وهي تحاول تخفيف غضبها : « انى لا أبالي بشقشقته ووالله لو انه حل على بمائة مثله ما حسبت لهم حسابا »

قال : « مالك وللاقامة هنا ، تعالى نذهب معا الى منزل على فتقيمين ضيفة مكرمة »

فقالت : « اتريد ان افر من هذا المكان ؟ كلا ، لا ابرح حتى ارى ما يكون من امر هذا الغلام الغر »

قال : « اتحسبين ذلك فرارا ؟ »

قالت : « نعم دعني هنا لأرى ما يكون من امره »

قال : « وما يهمك ؟ دعيه وشأنه »

قالت : « يهمني طيشه الذى وسع الخرق واغضب المسلمين على الخليفة ، ولولا حماقته لقضى الأمر ولأمن الناس الفتنة »

فتحير محمد ولم يدر كيف يقنعها بالخروج واهمه بقاؤها هناك غيرة عليها ، فأحب ان يستطلع العلاقة بينها وبين مروان فقال : « وما الذى جعل له هذه الدالة عليك ، هل تعرفينه من قبل ؟ »

فتنهدت وعادت اليها ذكرى مصائبها وقالت : « اننا عرفناه فى الشام وقد رافقنا فى سفرتنا المشئومة الى قباء ثم دخل المدينة قبلنا ، وتسبب فى موت امى قبل وصول على »

فعجب محمد وقال : « كيف كان ذلك ؟ »

قالت : « ان حديث ذلك طويل يحتاج الى شرح ، ولكننى اقول بالاختصار ان هذا الشاب رافقنا من الشام لأرب فى نفسه بقصر عن

ان يناله ، ولولا ضعف ابى وانحيازه اليه لما استطاع المسير معناخطوة ولكن . . »

فقال : « واى ارب ؟ » . فلم تجب كأن الضعف والحياء قد عادا اليها فأطرقت صامتة

ففهم محمد مرادها فازداد بغضا لمروان وغيرة على أسماء ، ولم يعد يصبر على بقائها هناك وحدها ، ونظرا الى ما يعلمه من نفوذ مروان لدى الخليفة خاف ان يوسطه فى اقناعها او استرضائها فتقبله على كره منها . ولما تخيل هذا احس بنيران هبت فى بدنه ، وصار الى خلع عثمان او قتله أميل . فصمت برهة يفكر ثم قال وهو يريد أن يزيدها كرها واحتقارا لمروان : « انى اعرف من أمر هذا الغلام ما لا يعرفه سواى ، فقد سمعت من أختى أم المؤمنين (عائشة زوجة النبى) أن النبى لعنه وهو فى صلب ابيه فقال لأبيه الحكم بن العاص : (ويل لأمتى من صلب هذا) . فما نرجين منه بعد ذلك؟. اصغى لقولى وتعالى معى الى منزل على »

قالت : « ربما ذهبت اليه فى فرصة أخرى »

فبهت محمد وهو يود أن يبثها ما خالج قلبه من حبها ويستطلع ضميرها ولكن الحياء والهيبة منعاه من ذلك ، فظل برهة صامتا وهو لا يزال واقفا بازاء السرير واسماء جالسة مطرقة وقد خالج ضميرها مثل ما خالج ضميره وهى أكثر حياء منه ، فظلت صامتة تنتظر أن يفتح هو الحديث

□

قال محمد بن ابى بكر لأسماء : « انى لا أرى عارا فى خروجك من هنا الى منزل على ، وهو الذى اقترح هذا ، ولا أخفى عليك أن الهياج قد اشتد على الخليفة فهو لن ينجو من الخلع او القتل ، وبخاصة اذا ظل مصغيا لمشورة مروان ، فهيا بنا »

فهمت بالجواب . ولكنها لم تكد تفعل حتى سمعا سعال يزيد ، ثم راياه يدخل ، فبغت محمد ونفر من رؤيته لأنه لم يكن يحسن الظن به. أما يزيد فحالما رأى محمدا تقدم اليه وحياه وتظاهر بالترحيب به ، وسأله عن على قائلا : « كيف مولانا ابو الحسن ؟ » . فقال محمد : « فى خير »

قال : « الا ينوى الخروج الى الحج فقدآن اوانه وارى الناس يتأهبون له ؟ »

قال : « لا اظنه يستطيع ذلك هذا العام »

فقالت أسماء : « ولماذا ؟ » . قال محمد : « ان فى خروجه من المدينة الآن والناس فى هرج ومرج مجازفة ، وقد دعتنى شقيقتى أم المؤمنين الى أن اذهب معها الى الحج ، ولكن ما اظننى مستطيعا »

قالت : « ولماذا ؟ » . فلم يجب ولكن ملامح وجهه دلت على انه لايريد الخروج من المدينة واسماء فى ذلك المكان على تلك الحال

فأحست أسماء انه يحبها ويغار عليها ، فسكتت مخافة ان يلحظ يزيد شيئا من ذلك

وعاد محمد فخاطب يزيد فقال : « أرسلنى اليكم مولاى أبو الحسن لادعوكما الى النزول عنده تجنبا للنزول بالقرب من دار الخليفة والناس محيطون بها »

فقال يزيد : « لا أرى علينا بأسا هنا ، وقد فض الخلاف على ماسمعت »

فابتدرته أسماء قائلة : « كيف يفض الخلاف ومروان بالمرصاد ؟ »

قال : « وما الذى فعله ؟ » . قالت : « انه بعد أن استرضى الخليفة الثائرين وصرفهم بالحسنى عاد فحرضه عليهم ، فعاد الامر الى ما كان عليه ، واظن محمدا أعلم منا بما ينوون لأنه قادم من بينهم »

فهز محمد رأسه وقال : « نعم ان مروان فى صباح هذا اليوم قد وسع الخرق حتى استفحل الخطب ولم يعد تلافيه ممكنا ، وهذا ماخوفنى عليكما لقربكما من الخطر » . قال يزيد : « وماذا ينوون ؟ »

قال : « اذا لم ينل هؤلاء الناس ما يرجونه فقد تسوء العاقبة ، كفانا الله شر الفتنة »

قال يزيد والخبث والرياء باديان على وجهه : « اراهم تعصبوا عليه وتجنوا ، وهم انما جاءوه يلتمسون الدنيا وفيهم من حقد عليه لمغنم فاته ، أو لحديث سمعه من واش مبغض ، وما الى ذلك ، ويدعون الغيرة على الاسلام رياء الناس »

قال محمد وقد ضاق بجوابه : « كل يعرف مانواه » . وسكت ، ثم سأل : « الا تأتيان معى الى منزل على ؟ » . قال يزيد : « لانرى مايدعو الى هذا الآن »

فنهض محمد وودعهما وخرج غاضبا ناقما على مروان وحدثته نفسه بأن فى بقاء عثمان خليفة عونا لمروان على نيل أسماء

اما هى فلم يكد محمد يتوارى حتى ندمت على بقائها ، فان انفتها منعتها من الخروج

أسماء فى دار الخليفة

اصبح يزيد بعد أن راى اختلاء محمد بن ابى بكر بابنته ، يخشى ان يزداد ميلها اليه اذا جاءها مرة اخرى فيفشل مسعاه لتزويجها مروان. وفكر فى حيلة تنجيه من ذلك فاعتزم أن يبغضه اليها وقال لها : « أرى محمدا من الناقمين على الخليفة فهل تعلمين سبب نقمته ؟ »

قالت : « وما ذلك ؟ » . قال : « علمت انه كان طامعا فى ولاية مصر، بدلا من عبد الله بن ابى سرح أخى الخليفة بالرضاع ، فلما لم يؤثره الخليفة على عبد الله نقم عليه . وعلمت أيضا انه كان قد ولاه مصر ووجهه اليها ثم رجع عن عزمه وارجعه فعاد ناقما . وقد أشرت الى ذلك من طرف خفى فلم يجب »

فساء اسماء ظنه فى محمد ، وهى تشعر بعطف وميل شديدين اليه ، ولكنها سكتت . وفكر يزيد بعد ذلك فيما يأمن به خروج أسماء الى على فلم ير خيرا من ان يدخلها دار الخليفة . فتركها وقصد نائلة زوجة عثمان وترامى على قدميها وبكى، فلما سألته عما يبكيه قال : « يبكينى ياسيدتى ما عليه ابنتى من الحزن على فقد امها ، واخشى اذا بقيت مقيمة وحدها أن تصاب بجنون ، وكثيرا ما أراها تهم بالخروج الى مدفن أمها فى قباء ، فامنعها بالحسنى فلا تمتنع ، وهى كما تعلمين فتاة صغيرة لم تخبر الدنيا » . قال ذلك وشرق بدموعه مكرا وخداعا

فقالت نائلة : « وماذا ترى أن نصنع ؟ » . قال : « ارى ان تكون عندك تحت جناحك »

فسرت نائلة لأنها قد انست بأسماء وارتاحت لحديثها واعجبت بشهامتها . فقالت : « لك على ذلك فأت بها الينا »

قال : « أخاف اذا أنا حملتها على المجيء الا تطيعنى لفرط حزنها ، ولأنها اصبحت تسيء الظن بى ، فاذا رأيت ان تدعيها انت كانت اطوع لك »

قالت : « افعل ذلك حبا وكرامة » . وهمت بالنهوض والمسير اليها فابتدرها يزيد قائلا : « واتقدم اليك يا مولاتى برجاء الا تاذنى لها فى

الخروج من منزلك ، لانها قد تحتال فى الخروج لغرض تدعيه و قصدها الذهاب الى قباء »

قالت : « لن ترى سبيلا الى الخروج » . فودعها يزيد وخرج

اما اسماء فلما خلت الى نفسها تذكرت مصائبها وتسلط يزيد الغادر عليها فاخذت فى البكاء . وبينما هى تبكي اذ دخلت عليها نائلة ، فلما راتها على تلك الحال تحققت قول أبيها فاخذت تقبلها وتعزيها وقالت لها : « ما بالك تبكين يا اسماء ، فقد بالغت فى الحزن وقد عهدتك رابطة الجاش ، ولا خير يرجى من الحزن » . وزادت أسماء بكاء حتى هاجت اشجان نائلة وذكرت حال زوجها والخطر المحدق به فبكت معها

فلما راتها اسماء تبكي شكرت مشاركتها لها فى مصابها ، وشعرت بتعزية وقالت : « ما الذى يبكيك ياسيدتى وانت زوج امير المؤمنين مالك رقاب المسلمين ؟ »

قالت نائلة : « اما شهدت بعينك ما احاط بنا من البلاء بطيش ذلك الشاب الغر ؟ »

فانقبضت نفس اسماء عند الاشارة الى مروان ، وتنهدت تنهدا عميقا ولسان حالها يقول : « انه سبب بلائى انا أيضا » . ومنعها الحياء

فلما سكن روع نائلة قالت : « انت يا أسماء نعم العزاء لى فى هذه المحنة ، فاذا كنت تحبينني فتعالى فنقيم معا فى دارنا »

فاثنت أسماء على غيرتها ، وخيل اليها ان حب نائلة قد يكون عونا لها على النجاة من مروان اذا وسط الخليفة فى تنفيذ ماربه فقالت : « انى طوع ارادتك يا سيدتى فان الاقامة فى حماك شرف عظيم لمثلى »

فوقفت نائلة واستنهضت اسماء فنهضت ، وسارتا معا

قضت أسماء بقية اليوم تفكر تارة فى مروان وطورا فى محمد وآونة فى امرها مع يزيد ، وقد ندمت لانها لم تذهب مع محمد الى منزل على . ولكنها استأنست بنائلة وارتاحت لمجالستها . وكذلك كان شأن نائلة اذ اتخذت من أسماء تسلية لها فى ضيقها لما آنسته فيها من سداد الراى وثبات الجاش وحسن الخلق ، مع نفور من مروان هما مشتركتان معا فيه ، ولولا قرابته من الخليفة لقرعت له العصا وأوقفته عند حده

ولما اقبل المساء تناولتا العشاء ، والخدم والجوارى وقوف بين ايديهما ، والاضطراب باد على وجوههم على غير المعتاد

فلما فرغتا من الطعام وذهبتا الى حجرة الرقاد ، نادت نائلة قيم الدار فسالته عما لديه من الاخبار ، فقال : « ان مولاى الخليفة لم يذق طعاما

فى هذا المساء وهو فى اضطراب وقلق شديدين والناس حول الدار وعند الابواب ، وقد حاصرونا ومنعوا الماء عنا »

فبغتت نائلة وقالت : « وكيف يمنعوننا الماء قبحهم الله »

قال : « لقدمنعوه ياسيدتى ونحن انما نستقى الآن مما بقى فى الآنية من الامس ، ولا ندرى كيف نستقى اذا ظل الحصار . وهذا مادعا امير المؤمنين الى القلق »

فضربت نائلة كفا بكف وقالت : « ويلاه . كيف يمنعون الماء عن امير المؤمنين ؟ »

فقالت اسماء : « لا تحزنى ياخالتى ، انى كفيلة بالاستقاء مهما يبالغ القوم فى الحصار »

قالت نائلة : « وكيف تستطيعين ذلك ؟ »

قالت : « يحمل الماء الى بيت جيرانكم آل حزم ونحن ننقله سرا الى هذه الدار »

فاطمأنت نائلة لهذا الراى ، ولكنها بقيت تخشى عاقبة الحصار ، فصرفت القيم وجلست وهى تتنهد وتتأوه وأسماء تهون عليها . ولم تكد تجلس حتى سمعت جلبة ووقع اقدام فى الدار ، فنهضت مسرعة ولم تكد تفتح الباب حتى لقيها مروان وقد تزمل بعباءته وتقلد سلاحه كأنه على سفر . فلما رآها سلم وتقدم اليها فاستعاذت بالله من رؤيته وقالت : « ما الذى جاء بك يا مروان ؟ »

قال : « انى ذاهب فى امر ذى بال ، وقد جئت لوداعك . وهل تلك الفتاة عندك ؟ »

قالت : « هى عندى ، وما غرضك منها ، اذهب فى مهمتك »

قال : « اريد ان اراها قبل سفرى » . قال ذلك ودخل الغرفة ، فلما راته اسماء أجفلت ولكنها لبثت صامتة لا تتحرك فقال لها وهو يضحك : « الا تزالين على رغبتك فى منازلتى يا أسماء »

قالت وهى جالسة لا تعبأ بقوله : « لو كنت رجلا حرا لنازلتنى لما دعوتك للنزال »

قال : « لو لم اكن على سفر لأدبتك وربيتك ، وان ابن ابى بكر لايغنى عنك شيئا »

فلما ذكر محمدا ثارت فيها الحمية وقالت : « اراك تذكر الرجل فى غيبته ، فاذا حضر سكت ! »

فأغرب فى الضحك وقال : « سوف ترين وتسمعين ما تندمين عليه

حين لاينفعك الندم ، ولسوف يذوق هو مرارة الحرمان من منصب طالما طمح اليه ، ونقم من أجله على أمير المؤمنين وأثارالمسلمين وحرض على الفتنة »

فهمت اسماء بأن تجيبه، فاشارت اليها نائلة أن‌تكف وقالت لمروان : « اذهب ياولدى لعل فى السفر راحة لنا ولك ، اننا لم نر فى اقامتك خيرا »

فضحك مروان وظنها تمزح ، وامسك بيدهاحتى توارىا عن‌أسماء ، وهمس فى اذنها قائلا : « احتفظى بها فانى‌عائدقريبا للزواج بها . وانها والله لجميلة ، واراني احبها وأغار عليها بالرغم منى ، ولا ارى فى بنات قريش أجمل منها ولا أكمل، ولكنها لاتزال‌صغيرة لاتعرف مقام الرجال »

فتركته نائلة وعادت الى الغرفة وهى تعجب لطيشه ونزقه ، فلما خلت بأسماء عادت الى بلبالها وفيما هم فيه من‌الحصار، فلم تر وسيلة للافاة الفتنة الا ان يتوسط على فى ذلك . ثم تذكرت ما قاله بالامس وتحذيره زوجها من اغراء مروان‌فرجح‌عندها أنه لن ينصره ، فصبرت لترى ما يأتى به الغد

اما اسماء فسرت لذهاب مروان من المدينة لعلها تتمكن فى أثناء غيابه من وسيلة تصلح بها ما أفسده

قضت اسماء فى دار عثمان ردحا من الزمن كانت فيه نعم السلوى لنائلة ، فالدار محاطة بالرجال ليلا ونهارا ، وقد منعوا الماء عنها . ولولا ما أشارت به من الاستسقاء عن طريق آل حزم لمات اهل الدار عطشا

اما نائلة فلم تعد تستطيع صبرا على تلك الحال ، فاصبحت ذات يوم بعد أن قضت ليلتها باكية لما تراكم عليها من الهموم وما آنسته من اضطراب زوجها وقلقه وخوفه ، واخذت تفكر عسى ان ترى مخرجا فلم تر خيرا من استنجاد على . وأسرت ذلك الى اسماء واستحثت حميتها . فاستسهلت اسماء كل صعب فى سبيل اخماد الفتنة وانقاذ عثمان من عاقبتهما . فقالت لنائلة : « انى أرى رأيا أرجو ان ينال منك قبولا »

قالت : « وما هو ؟ » . قالت : « ادهب أنا الى على، ومروان غائب، واطلعه على جلية الامر لعله يسعى فى اخماد الفتنة وهو رجل الخير وبه صلاح هذه الأمة »

قالت : « لقد اصبت ، وانك بذلك تقلدينني جيلا لا انساه »

قالت : « سأذهب هذا المساء الى على والله ولى الأمر »

ولما كان الغروب ، تزملت بلباس الرجال ، وتقلدت الحسام تحت العباءة ، وغطت راسها بالعقال وخرجت من دار عثمان الى بيت بنى حزم ، ثم خرجت من هناك تخترق الجموع وسارت تلتمس عليا

وكان على فى بيته بعد صلاة المغرب ، وعنده طلحة والزبير وأمراء المسلمين القادمون من الانصار نقمة على عثمان ، وكلهم يحرضون عليه الناس . ولكنها لم تجد محمدا بن ابى بكر بينهم . وشاهدت فى فناء البيت الجموع من اهل مصر والكوفة والبصرة فى ضجة وغوغاء . فوقفت فى جلة الواقفين ولم ينتبه لها أحد ، فسمعت الأمراء يلغطون ويضجون وكلهم يقولون بقتل عثمان أو خلعه ، وعلى يخفف عنهم ويؤنبهم على ما يبغون من شر ويقول : « والله يا قوم لا ارى فى مقتل الخليفة الا تعاظم الفتنة ، انكم والله ستختلفون على من يلى الخلافة بعده ، فابقوه ، ذلك خير لكم »

فانشرح صدر اسماء لشهامة على وحسن دفاعه ، ولم تتمالك أن دخلت وهى فى ذلك اللباس ودنت من على فنظر اليها وقد عجب لجرأتها وهو يحسبها من بعض المتحمسين . فتفرس فيها مستفهما والتفت الأمراء اليها ، فكشفت عن وجهها ، فلما رآها على عرفها فاستغرب دخولها وانكر كشف وجهها على تلك الصورة ولكنه لم يسعه الا أن رحب بها قائلا: « أهلابفتاتنا ومرحبا ، ما الذىجاء بك ؟ »

فاستغرب الحضورترحيبه بها وهم لايعرفونها ، ولبثوا ينتظرون ما يبدو منها . اما هى فوقفت بين أيديهم غير هيابة أو وجلة وقالت : « هل تأذنون لفتاة بكلمة فى خير المسلمين ، تكشف لكم القناع عن كنه ما نحن فيه وقد خبرته بنفسى » . قال على : « تكلمى يا بنية » . قالت : « اغلقوا هذا الباب حتى لا يسمع من هم خارج الدار »

فأمر على باغلاق الباب ، ودعاها الى الجلوس فأبت الا الوقوف بين يديه ، ثم قالت : « يا معشر المهاجرين وخيرة أصحاب الرسول ، انكم ، والله شاهد ، اذا أردتم بأمير المؤمنين شرا لظالموه ، وهو برىء لا يستوجب قتلا أو خلعا ، وما اظنكم اذا قتلتموه او خلعتموه الا نادمين ، ولا ينفع الندم »

فاص فى الجميع وهم معجبون لتلك الجراة من فتاة صغيرة بين يدى كبار الصحابة ، ولبثوا صامتين فاستأنفت حديثها وقالت : « اما اذا شئتم اخماد الفتنة فاقلعوا اصل الشر . اقتلوا مروان بن الحكم فانه

سبب ذلك البلاء العظيم . ان الخليفة أيها الأمراء بريء مما يتقوله الناس عليه ، وهو كما تعلمون من خيرة الصحابة شفوق رؤوف . وقد اذعن واعتذر جهارا على مسمع من المسلمين ، ولكن ابن عمه مروان ذلك الغلام الغر هو الذي يفعل ما يفعل من عند نفسه ، فلا تقتلوا البريء بالمذنب . اقتلوا مروان بن الحكم فيستقيم الأمر ، أما اذا اصاب الخليفة ضيم فستسألون أمام الديان العظيم . قد كفاكم انكم منعتم عنه الماء اربعين يوما ولا يعلم ما يقاسيه من جراء ذلك الا الذين يعاشرونه »

فبهت الجميع لفصاحة اسماء ورباطة جأشها وجرأتها ونظر بعضهم الى بعض متسائلين ، فالتفت على اليهم وقال : « هـــذا ما أراه يا أصحاب رسول الله ، ان عثمان اذعن واستغفر ، ولولا ابن عمه لنامت الفتنة ، وارى كلام هذه الفتاة صوتا من أصوات أهل السماء »

فقال طلحة : « ولكننا لم نأل جهدا في نصحه ليرجع عن مشورة ابن عمه ، وهو يصغي اليه ويعمل بقوله ، أما سمعت ما قاله مروان على مشهد من المسلمين ؟ »

فقال علي : « وما ادراكم ان كلامه لم يكن من عند نفسه؟ يكفينا تأنيبا ان تقف البنات العذارى موقف الواعظين يحرضننا على العمل بسنة المسلمين . ومهما يكن من صبركم ونصحكم فاني أكثركم صبرا عليه، ولقد نصحت له مرارا وخرجت من مجلسه آخر مرة وقد عاهدت نفسي الا اتوسط في امره . ولكني لما علمت بمنع الماء عنه ركبت مغلسا الى محاصريه وهم وقوف ببابه وقلت لهم : (يا ايها الناس ان هذا العمل لا يشبه امر المؤمنين ولا الكافرين ، وانما الاسير عند فارس والروم يطعم ويسقى) . فلم الق منهم مصغيا . » . ثم وجه كلامه الى اسماء وقال : « والله ان كلا من هؤلاء الأصحاب قد دافع عن عثمان وسعى في حقن الدماء حتى ان ام حبيبة زوج الرسول (صلعم) ركبت اليه بغلتها وحملت عليها وعاء فيه ماء ، وادعت انها تريد أن تكلمه عن وصايا عنده لبني امية او تهلك اموال أيتامهم وأراملهم ، فقالوا : (لا والله) . وضربوا بغلتها فنفرت وكادت تسقط عنها فذهب بها الناس الى بيتها . اما انت فبورك فيك يا بنية ، والله انك انما جئت لخير » . ثم نظر الى من حوله ونادى الحسن والحسين ابنيه فقال : « اذهبا الى بيت امير المؤمنين وادفعا عنه وارجعا الناس عن بابه ، وانت يا طلحة ارسل ابنك ، وانت يا زبير ارسل ابنك ايضا » . فنادى كل منهما ابنه. ثم قال علي : « واين محمد ؟ » . فقالوا : « واي محمد تعني ؟ » . قال : « محمد بن ابي بكر اين هو ؟ » . فجعلوا يتساءلون عنه فلم يعثر عليه

احد ، فتأفف على وهز رأسه وقال : « والله انى خائف مما فى نفس محمد على الخليفة » . فعلمت أسماءأن محمدا حاقد على الخليفة انتقاما من مروان ، فلبثت تنتظر ما يقال عنه لعلها تعرف مقره . فلما لم يعثر عليه أحد قال على لابنيه ولسائر ابناء الصحابة : « سيروا فى حراسة الله ولا تألوا جهدا فى الدفاع عن حياة أمير المؤمنين ورد الناس عن بابه ، واذا رأيتم ابن ابى بكر فأنفذوه الى ، انى والله خائف مما يضمره »

فقال طلحة : « اتظنه ينقم عليه عزله عن ولاية مصر ؟ »

فنظر على الى طلحة ولم يجب . فسار أبناء الصحابة وقد هاج الناس وماجوا ، وكلهم يلتفت الى أسماء . اما هى فسارت بين الجموع وخرجت ولم يعد يراها احد

وعادت أسماء وهى تفكر فى محمد وخافت أن تكون غيرته من مروان قد حملته على مناهضة عثمان ، فأرادت أن تتحقق من نيته وهى فى دار عثمان فاذا أراد سوءا بعثمان حولته عن عزمه لأنهاأصبحت بعد سعيها فى نجاة عثمان تضن بحياته كثيرا

وكانت نائلة قد مكثت فى البيت بعد ذهاب أسماء وهى على مثل الجمر ، والليل قد أسدل نقابه ، فجلست تنتظر عودتها وهى تضمر لها كل خير اذا جاءتها بالفرج . وبينما هى فى ذلك والغوغاء قد تكاثروا على الدار خطر لها أن تذهب الى زوجها تستطلع حاله فخرجت ودخلت عليه فى حجرته ، فرأت مروان خارجا من عنده فاستعاذت بالله من رؤيته . أما هو فاعترضها قائلا : « لا تدخلى على الخليفة انه فى شغل شاغل عنده فارجعى الى بيتك » . قال ذلك وهو لا يكاد يخفى اضطرابه . فأذعنت لأنه كاتب الخليفة وحامل خاتمه ، فرجعت وهو يتبعها حتى وصلت الى حجرتها فدخل معها ونظر فى جوانب الغرفة فلم ير أسماء فقال : « وأين أسماء ؟ » . قالت : « ستأتى عما قليل »

قال : « هل خرجت من الدار ؟ » . قالت : « لا . ولكنها مشغولة ولا تلبث أن تعود ، فاصدقنى حبر الخليفة ما باله وما الذى شغله الآن ؟ »

قال : « لم يشغله شيء ولكنه يصلى والقرآن بين يديه » . فصدقته

وصمتت ، اما هو فأعاد السؤال عن اسماء فقالت : « قلت لك انها لا تلبث أن تجىء » . فتركها

ولبثت هى تنتظر عودة أسـماء بصبر نافد مخـافة ان يعلم مروان بخروجها فيصيبها من ذلك سـوء . ولم تكد تجلس حتى سمعت ضجيجا فى صحن الدار فاطلت فرأت جماعة داخلين وفيهم الحسن والحسين وأبناء الصحابة ، فخافت أن يكون فى قدومهم شر ، ولكنها ما لبثت أن سمعت الحسن يكلم اهل المنزل ويهدىء من روعهم ويقول : « لا تخافوا ، اننا جئنا للذب عن الخليفة » . فأدركت انهم انما جاءوا بمسعى أسماء ، وبعد هنيهة رأت أسماء قادمة وهى تخفى نفسها فاستقبلتها باسمة واستطلعتها الخبر فطمأنتها وقالت : « ان الصحابة ارسلوا أبناءهم للدفاع عن الخليفة وارجاع الناس عن بابه »

فسرت نائلة وهدأ روعها وشعرت بفضل أسماء عليها واعتزمت أن تسعى فى انقاذها من مروان ، فاحتالت فى الدخول على الخليفة فاذا هو جالس والقرآن بين يديه يقرأ او يصلى صائما ، ولا يلتفت يمينا ولا يسارا ، فدنت منه بخفة فانتبه لها وقال : «ما الذى جاء بك يا نائلة؟» قالت : « انما جئت أفتقد امير المؤمنين وأبلغه ان فى الدار الحسن والحسين وجميع ابناء الصحابة وقد جاءوا بعدتهم يدفعون الناس عن بابنا »

فقال وهو لا يزال ينظر فى صفحات القرآن : « لا حاجة بى الى من يذب عنى ولا اريد أن يهرق من أجلى محجب من الدم » . قال ذلك وعاد الى القراءة فعجبت نائلة لذلك وأرادت ان تذكر أسماء لديه فلم تر سبيلا الى ذلك ، فعادت الى غرفتها وقضت تلك الليلة لم يغمض جفناها ، وأسماء تعزيها وتشجعها ، ولولا ذلك لماتت قلقا ورعبا فقد كانت تسمع الغوغاء حول الدار عند بابها ولا تجرؤ ان تطل

أما أسماء فلما علمت بعودة مروان من سفره هرولت الى حجرتها لئلا تراه ، وبات ابناء الصحابة ليلتهم وهم يهددون الواقفين عند الباب، طورا ، وطورا يتوعدونهم ، وكل اهل الدار فى اضطراب وقلق الا عثمان فانه قضى ليلته يقرأ القرآن ويصلى

وفى الصباح التالى استيقظت أسماء على صوت مروان فى غرفتها ، ونائلة جالسة بجانبها ، فجلست واستعاذت بالله . فقال لها مروان : « ما الذى خرج بك من هذه الدار ؟ » . فقالت : « وما شأنك وخروجى او دخولى ؟ »

قال : « كيف لا وأنت امرأتى ؟ ! » . فأجفلت أسماء وصاحت : « خسئت يا نذل لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك ، دع عنك هذا الهذيان»

فمد مروان يده الى جيبه وأخرج رقا عليه كتابة ، وقال : « هذا

كتاب العقد وعليه خاتم الخليفة » . فنظرت أسماء ونائلة فراتا الخاتم فبهتتا . ولكن أسماء تبسمت ولم تعبأ بتهديده وقالت : « قد عرفناك قبل اليوم تزور الكتب على امير المؤمنين . ان الخليفة بريء مما تعمل وقد اخطأ اذ جعلك كاتبه ، أما كفاك ما ايقظت من الفتنة بتزوير الكتب ، حتى جئت تفتعل كتاب العقد ايضاً ، ان هذا البلاء الذى نحن فيه انما هو من تزويرذلك الكتاب على لسان الخليفة الى والى مصر ، وكان الناس قد عادوا الى بلادهم فارجعتهم وأعدت الفتنة ، فأرجع هذا الكتاب الى جيبك ، واخرج من هذه الغرفة قبل أن أذيقك الهوان » .

قالت ذلك وهمت به وهى تخرج خنجرها من بين اثوابها ، وكان لايفارق جنبها ابداً . فهمت بها نائلة لتجلسها فافلتت منها وهجمت على مروان تريد قتله ، ففر أمامها ، ثم عاد وقد جرد حسامه وهجم عليها ، ولكنه سمع ضجة عظيمة فى صحن الدار ، وصوتا ينادى : « مروان ، مروان » . فخرج مسرعا والسيف فى يده



مقتل عثمان

لم يلبث من فى دار عثمان ان راوا الدخان يتصاعد من جهة بابها ، فحسبوا أن قد شب فيها الحريق فهاجوا وماجوا واشتغل كل بنفسه وصاحت نائلة : « ويلاه ! قد احرقونا » . وهرولت مسرعة الى حجرة زوجها

واطلت اسماء من نافذة على باب الدار ، فرات الناس قد تجمهروا وعددهم يزيد على ألف وجعلوا يرمون الدار بالنبال حتى اصيب كثيرون . ثم رأت بعضهم قد اقتحموا الدار عنوة ، وابناء الصحابة وفيهم الحسن والحسين يدفعونهم ، ورات آخرين قد أوقعوا النار فى السقيفة فوق الباب ليحرقوها ويحرقوا الباب معا . وسمعت جموعهم يصيحون : « ادفعوا الينا مروان فنقتله وكفى » . فاضطربت اسماء وفتحت النافذة وخنجرها لا يزال في يدها ، وسارت الى غرفة عثمان لعلها تقنعه بتسليم مروان فينجو هو ، فرات الدارملأى بالناس وقد دخل بعضهم من ناحية دار بنى حزم ، ورات مروان وبيده السيف يريد أن يدفعهم فهجم عليه أحدهم وضربه بالسيف على عنقه فدار دورة ووقع . فصاحت اسماء : « بورك فيك يا من قتلته فانه أصل الشر كله » . ولكن الضربة لم تكن قاضية فقطعت أحد علياويه فعاش مروان بعد ذلك ، بينما حسبته أسماء قد مات وسارت وسط الجماهير الى حجرة الخليفة فراته جالسا والقرآن بين يديه وعنده نائلة واقفة والدموع ملء عينيها

ولم تكد تقف حتى دخل الحسن والحسين وأولاد الصحابة وفى أيديهم السيوف مسلولة ، ورأت ثياب الحسن مصبوغة بالدم ، وكان عثمان لما سمع بدفاعهم عند باب داره خاف عليهم فبعث يستقدمهم اليه ليردعهم عن ذلك قائلا : « اغمدوا السيوف وارجعوا ، فان الله قد عهد الى وانا صابر عليه ، وقد علمت ان الناس قد أحرقوا السقيفة فلم يحرقوها الا وهم يطلبون ما هو أعظم » . ثم وجه خطابه الى الحسن فقال له : « ارجع يابنى ، ان اباك الآن فى هم عظيم من أمرك » . فلم يصغ الحسن وأبناء الصحابة لقوله ، وعادوا يدفعون الناس ، وظل هو على مقعده يقرأ ولا يبالى الغوغاء وعنده زوجته نائلة

وكانت أسماء منتبذة مكانا بالقرب منها وقلبها يخفق خوفا عليه ، فما لبثت أن رأت رجلا من قريش دخل عليه وقال له : « اخلعها وندعك » ـ يعني الخلافة ـ فقال عثمان : « ويحك والله ما كشفت امراة فى جاهلية ولا اسلام ، ولا تغنيت ولا تمنيت ، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله (صلعم) . ولست خالعا قميصا كسانيه الله تعالى ، حتى يكرم أهل السعادة ويهين أهل الشقاء » . فخرج الرجل . ثم رأت رجلا عرفت بعد ذلك أنه عبد الله ابن سلام قد وقف فى الناس وقال : « يا قوم لا تسلوا سيف الله فيكم فوالله ان سللتموه لا تغمدوه ، ويلكم أن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة (السوط) فان قتلتموه (أي الخليفة) لا يقوم الا بالسيف . ويلكم ان مدينتكم محفوفة بالملائكة فان قتلتموه لتتركنها » . فصاحوا فيه : « ما أنت وهذا يا ابن اليهود » . فسكت

كل ذلك واسماء واقفة مضطربة القلب لاتدرى ماذا تعمل ، وكانت قد اطمأنت الى ما أصاب مروان لظنها أنه قتل ، ثم ما لبثت أن رأت محمدا بن أبى بكر قد دخل مسرعا ووراءه جماعة حتى دنا من عثمان . فأوجست خيفة من قدومه لعلمها بما فى نفسه ، ثم سمعت عثمان يقول له : « ويلك ، أعلى الله تغضب ، هل لى اليك جرم الا حقا اخذته منك » . فأمسكه محمد بلحيته وقال : « قد أخزاك الله يا نعثل » ـ وكان نعثل لقبا يلقبون به عثمان ـ فقال عثمان : « لست بنعثل ولكننى عثمان وامير المؤمنين »

قال محمد : « ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان »

فقال عثمان : « يا ابن أخى فما كان أبوك ليقبض عليها » ـ أى على لحيته ـ فقال محمد : « لو رأى أبى أعمالك لأنكرها عليك ، والذى أريد بك أشد من قبضتى عليها »

فقال : « أستنصر الله عليك واستعين به »

فلما رأت أسماء ما دار بينهما خافت ان يفتك محمد بالخليفة فيحيق به العار . فدنت منه ووقفت بحيث يراها وأشارت اليه ان يكف عما هو فيه وأن يتبعها . فلما رآها محمد ترك لحية عثمان وخرج ليعلم منها ما تريد . فانتحت به جانبا وقالت : « من أين دخلت الدار »

قال : « دخلت من دار بنى حزم » . قالت : « وانت ايضا على عثمان ، انه برىء مما يفترون » . ثم سمعت صياح نائلة ، فأسرعت اليها فاذا هى قد حلت شعرها ونشرته ، وعثمان يقول لها : « خذى خمارك ، فلعمرى لدخولهم على أعظم من حرمة شعرك »

ثم رأت رجلا ممن دخلوا مع محمد بن ابى بكر هم بعثمان وبيده



« فأكبت نائلة عليه ولاقت السيف بيدها فقطع أصابعها »

حديدة ضربه بها على راسه فسال دمه على المصحف ، وتبعه آخر ليضربه بالسيف فأكبت نائلة عليه والتقت السيف بيدها فقطع اصابعها ، فثارت الحمية فى رأس أسماء فاستلت خنجرها تريد قتل الرجل ، فأمسكها محمد ولم تمض لحظات حتى قتل عثمان ، وفر قاتلوه

فلما رأته نائلة مجندلا حلت يدها والدم يسيل منها وخرجت تبكى ، وتنادى الحسن والحسين فدخلا فرأيا عثمان مذبوحا يتخبط فى دمائه . فصاحا : « كيف يقتل عثمان ونحن فى داره ، وبماذا نجيب ابانا اذا سألنا فى ذلك ؟ »

أما أسماء فأجهشت بالبكاء ، وجعلت تنظر يمنة ويسرة لعلها ترى القاتل فتنتقم منه فاذا هو قد فر ، وتهافت الناس على بيت عثمان ينهبون ويسلبون ، وعلت الضوضاء واختلط الحابل بالنابل

□

أما محمد فهم بأسماء وأخذ بيدها وقال لها : « اتبعينى » . فتبعته حتى خرج بها من الدار وهى تود البقاء لترى ما حال نائلة ، ولكنها اطاعته طوعا لقلبها ، على أنها ما لبثت أن جذبت يدها من يده ، وقالت : « الى أين نحن ذاهبان يا محمد ؟ »

قال : « هل ترين لك مأربا فى دار عثمان بعد ، لقد نصحت لك بأن تخرجى منها منذ أيام فلم تذعنى حتى رأيته يقتل امامك ، وهذا ماكنت اخشاه عليك » . قالت : « انكم ظلمتموه يا محمد ، ولواستطعت انقاذه من أيديكم لفعلت . تبا لمروان انه أصل هذا البلاء » . قالت ذلك واغرورقت عيناها بالدموع ، فقال محمد : « دعينا من ذلك ، لقد قتل عثمان ولم يعد بقاؤك فى داره مستطاعا والناس قد دخلوها ينهبون . فافصحى الآن ان الوقت ضيق والأمر جلل ولا أستطيع البقاء معك الا قليلا »

قالت : « وماذا تريد منى ؟ » . فابتسم وقال : « الا تعلمين ما اريده ؟ »

قالت : « نفسى تحدثنى » . وسكتت حياء فقال : « ارجو أن يكون قلبك هو الذى يحدثك »

قالت : « يلوح لى أن مقتل عثمان لا يهمك . انى والله لا استطيع استعادة رؤيته والدم يجرى من عنقه »

فتنهد محمد وقال : « أتظنينى غير آسف لقتله ؟ »

قالت : « لا اظنك آسفا وأنت البادىء بالقتل . ووالله لو لم يسبق الى قلبى سابق ما استطعت النظر اليك »

قال : « اراك تؤنبينني وما هذا وقته ، ولو أطلعتك على اصل هذه الفتنة لطال بنا المقام ونحن فى حال تدعو الى المبادرة فلنجاوزها الآن. فانى مسرع الى على لانى اتوقع شقاقا عظيما يقع بين الصحابة ولا بد لى من غشيان مجلسهم . واما انت فلا ارى أن تقيمى هنا والحال فى اضطراب »

قالت : « ساصبر حتى اسمع عذرك فى قتل خليفة الرسول ، فان لم اقتنع » . واطرقت حياء مما كاد لسانها ان ينطق به

فاعجب بصراحتها وسلامة مبدئها ، وازداد شغفا بها وقال : « انى واثق بتبرئتى نفسى من تبعة القتل ، فاصبرى حتى نجتمع على سكينة واذهبى الآن الى مأمن »

قالت : « الى اين اذهب وامتعتى وجوادى فى دار عثمان ؟ »

قال : « لك على احضارها ، اما وجهتك فلا ادلك عليها قبل أن أعلم مرادك »

قالت : « وما مرادك انت ؟ » . قال : « انى صريع حبك فهل تأذنين ؟ »

فاحمر وجهها خجلا وارخت النقاب على وجهها ولم تجب

قال : « زيدينى بهذا الخجل غراما بك .. قد عزمت يا اسماء أن اريحك وانجيك من ابيك .. او الذى يدعى انه ابوك .. وقد تركك منذ أيام ولا اظنك تعلمين مقره . واما مروان فلا فضل لى فى انقاذك منه وقد نال نصيبه »

فلم يكد يذكر اسم مروان حتى تنهدت وقالت : « قبح الله مروان انه سبب هذا البلاء ، وقد كنت اود قتله بيدى لاشفى غليلى منه »

قال : « لا اظنه قتل وقد تركته فى الدار يعصب عنقه على أثر جرح اصابه ، دعينا منه ومن اسمه ، اما ابوك الشيخ الغر فلا اظنه يجرؤ على الظهور بعد مقتل عثمان ، وارجو منك الا تدعيه اباك بعد الآن فانه بعيد عن هذا بعد الارض عن السماء . وها انذا ذاهب الى بيت على ، واظنه سيلى الخلافة لانه احق بها واولى ، وانما دونها شقاق عظيم ، فلا آمن من شر يصيبك اذا كنت فى منزله فارى ان اذهب بك الى مأمن تبقين به حتى تهدأ الاحوال فنعيش معا باذن الله . الا ترين ذلك ؟ »

فأطرقت اسماء وقدهاجت اشجانها وتذكرت اباها غير آسفة لفراقه ولكنها اسفت لفراقها نائلة وهى على حزنها واضطرابها وزوجها ملقى

وتيلا . على ان اتقاد الحب فى قلبها انساها كل شيء الا محمدا ، وكانت احبته من اول نظرة عندما ذكرت أمها اسمه ، وأصبحت بعدما علمت منزلته من علي ، وانه ابن أول الخلفاء ، شديدة الميل اليه . فظلت صامتة تهم بالكلام ويمنعها الحياء وقد تخلت عنها جرأتها ، وانفثأت تلك الحمية التى كانت موضع اعجاب الرجال ، واحست بخفقان قلبها وهياج عواطفها فأبرقت اسرتها وتلألأت عيناها ، كأن لسان حالها يقول : (ان الله يتمنى ولكنه نظر الى فحببنى الى خير ابناء الصحابة)

وشعر محمد انها تكتم حبه فلم يزد . وقال لها : «مارأيك فى ان اذهب بك الآن الى احدى ذوات قرباى فى بعض أطراف المدينة ، تقيمين عندها حتى تنقضى الازمة التى نحن فيها ويبايع على بالخلافة فيرجع الامر الينا ، فنقيم فى رغد وهناء باذن الله » . قال ذلك ومشي ، ومشت فى اثره حتى انتهى الى منزل فى طرف المدينة ، واذا بامرأة عجوز لم تكد ترى محمدا حتى همت به وقبلته مرحبة

فقال لها : « جئتك بأعز شيء لدى فاحتفظى بها » . ثم التفت الى اسماء وقال : « أمكثى هنا يا أسماء ريثما أعود ، ولا تضجرى اذا طال غيابى »

فقالت : « لاتنذرنى بطول الغياب فقد لا أستطيع صبرا على البقاء » . قالت العجوز : « لعلك خشيت الاقامة بيننا ، والله لأقومن على خدمتك اكثر من خدمتى ابنى هذا » . وأشارت الى محمد . وأخذتها بيدها ودخلت بها فودعهما محمد ومضى

احست أسماء بالوحشة فدخلت غرفة تخلو بها الى نفسها ، ولم تكد تفعل حتى تمثل لها عثمان مطروحا أرضا ، ونائلة واقفة فوق راسه وقد حلت شعرها واخذت تلطم خديها وتندب . وسرى الحزن فى جوانبها واقشعر بدنها وندمت على تركها نائلة على تلك الحال

فقضت يومها وحيدة كئيبة ، ولما امسى المساء قصدت الى الفراش تلتمس النوم فلم يغمض لها جفن ، ولم تغب صورة عثمان وداره عن عينيها . فباتت ليلتها تتقلب على مثل الجمر ، تفكر تارة فى محمد ، وأخرى فى يزيد ، وهى لا تعرف مقره ، وآونة فى عثمان ونائلة . حتى مضى هزيع من الليل فغلبها النعاس فنامت ، واصبحت فى اليوم التالى وضميرها يبكتها على هجرها صديقتها نائلة فى ساعة الضيق ، وحدثتها نفسها ان تذهب اليها ، وخافت أن يجيء محمد فى أثناء غيابها فيغضب

وانقضى النهار ولم يأت محمد فاضطربت ، على انها التمست الفراش مبكرة عسى أن تنام فتنسى ما هى فيه ، فطال ليلها ولم تنم الا فى فترات حتى بدا الفجر فأغمضت فرات طيف نائلة فى حالة يرثى لها وقد احمرت عيناها من البكاء وقطعت شعرها فى الندب ، فلما صحت وتذكرت الرؤيا غلبها الخجل على امرها ، وشعرت ان خيال نائلة يؤنبها على خروجها على تلك الحال ، فأفاقت مذعورة وقد بلل الدمع وسادتها ، ونظرت الى السماء فرات الشمس قد طلعت ، فهمت بالمسير الى دار عثمان تفتقد نائلة ، ثم تذكرت ان محمدا أوصى العجوز بالاحتفاظ بها ، فخافت أن تمنعها فقضت نهارها قلقة مضطربة ، تتردد بين الذهاب والبقاء حتى أمسى المساء وذهبت الى فراشها ، فجعلت تتقلب كأنها توسدت شوكا فانقضى نصف الليل وهى فى أرقها وقلقها ، حتى اشتد بها الامر ولم تعد تستطيع صبرا ، فنهضت وارتدت بردائها وتقلدت خنجرها وانطلقت تطلب دار عثمان على عجل . وكان الوقت صيفا فجعلت طريقها فى أطراف المدينة لئلا يراها أحد وارخت نقابها على وجهها

وما كادت تسير بضع خطوات حتى رات اشباحا تفرست فيهم فعرفت من قيافتهم انهم من بنى أمية يهرعون بين راكب وراجل فرارا من المدينة كأنهم يطاردون ، فسارت فى حذاء الجدران مخافة ان يكون مروان فيهم فيعرفها حتى مروا . وطال بها المسير ولما تصل الى دار عثمان لأنها كانت تجهل الطرق فأرادت الرجوع الى منزل العجوز فضلت الطريق اليها . وكان الفجر قد دنا فخيل اليها انها اذا أشرفت على المدينة من مرتفع هناك تمكنت من تعيين محل الجامع فاذا عرفته عرفت منزل عثمان فتحولت الى سور المدينة فى مكان خارج البقيع وهناك أرض مهجورة قل من يمر بها . ولم تكد تدرك المكان حتى رات بضعة عشر رجلا مهرولين من بعيد ، وفيهم أناس يحملون لوحا عليه شىء . فحسبتهم من الهاربين يحملون امتعتهم وانهم انما طلبوا الطريق البعيد خوفا من العيون . فتنحت الى زقاق ضيق واستترت بنخلة بحيث ترى المارة ولا يرونها . فلما دنوا منها عرفت منهم اناسا منهم مروان وعبد الله بن الزبير وكانت قد رأته فيمن جاء للدفاع عن عثمان من أبناء الصحابة ، فلما رأت مروان بالغت فى الانزواء ، وتفرست فيما يحملونه فاذا هو جثة مطروحة على باب وجمجمتها عارية تقرع الباب لاسراعهم فى المسير من شدة الخوف ورات على الجمجمة لحية كبيرة غضة مضفرة عرفتها انها لحية عثمان . ونظرت الى الثياب فاذا هى ثيابه ولا يزال الدم عليها ، فلم تشك أن الجثة جثته. فخفق قلبها وارتعدت فرائصها لما لحق بهذا الخليفة العظيم بعد موته ، وادركت انهم خرجوا به ليلا

ليدفنوه . ولبثت مستترة وراء النخلة تنظر الى تلك الجنازة المحزنة ، فلما وصلوا الى حائط هناك يقال له « حش كوكب » حفروا له حفرة دفنوه فيها وهم يتلفتون يمينا وشمالا جزعا

فصبرت حتى انتهوا وتفرقوا فصعدت الى مرتفع اطلت منه على المدينة فاشرفت على جامعها ، فاذا هو بعيد عنها كثيرا فجعلته وجهتها ونزلت تخترق الاسواق فلم تجد فيها الا نفرا قليلا ، فخافت ان يلاقيها محمد وهي على تلك الحال ، وما زالت حتى وصلت الى منزل عثمان والشمس تملأ الفضاء ، فرأته موصدا ، فالتمست باب بني حزم فرأته مغلقا ايضا ، فتسمعت فلم تسمع صوتا ، فوقفت برهة ثم همت بالباب فقرعته فلم يجبها احد ، فأعادت القرع فاطل رجل من كوة عرفت انه من خدم عثمان فلما رآته أومأت اليه أن يفتح . فلما عرفها فتح لها فدخلت وسألته عن نائلة ، فأشار اليها الا تتكلم وسار أمامها ، فتبعته فدخل بها حجرة رأت فيها نسوة احطن بنائلة وهي ما زالت محلولة الشعر كما رأتها في منامها بالامس

□

فلما وقع نظر نائلة عليها صاحت قائلة : « ما الذي جاء بك يا أسماء ياحبيبتي ؟ هل اتيت لترى أمير المؤمنين ! لقد فاتك ما لاقاه من اكراه المسلمين له بعد موته » . قالت ذلك وأجهشت في البكاء

اما اسماء فألقت نفسها على نائلة تبكي وتشهق وتقول : « ان خسارتك خسارة المسلمين كافة ، فقد فسد أمرهم بعد عثمان لأنهم سفكوا دما بريئا بجوار قبر الرسول »

فلطمت نائلة خديها بكفيها ، فرأت اسماء احدى يديها معصوبة فتذكرت انها اليد التي أصيبت بالسيف فقطعت أناملها . وقالت نائلة : « ياضيعة تعبك يا أسماء ، وياخيبة مسعاك . لقد خدعونا والله وغدروا بنا فأرسلوا أبناءهم يذبون عنه وبعثوا يقتلونه مع آخرين . الم ترى ابن ابي بكر يقبض على لحيته ؟ »

فلما سمعت اسم محمد حزنت على فعله ، ولم تجد ما تدافع به عنه فسكتت وهي تفكر في عبارة تعزيها بها فلم يفتح عليها . فقالت « اصبري ان الله مع الصابرين . فقد كنت بالامس تعزينني وتواسينني وانت اليوم اولى بالمواساة وبالعزاء »

فصاحت نائلة : « اواه يا اسماء ، كيف اصبر وقد قتلوا عثمان شر قتلة . لقد طعنوه في صدره ثلاث طعنات ، وضربوه على مقدم الجبين ضربة اسرعت في العظم . والله لكأني اسمع صوته يرن في اذني وهو يقرأ

القرآن ولايبالي مايفعلون ، واحسبك رايتني وقد سقطت عليه اتقى عنه وهم يهمون به يريدون قطع راسه حتى اتت هذه الفتاة بنت شيبة (واشارت الى فتاة بجانبها) فألقت بنفسها عليه دفاعا عن أمير المؤمنين »

ثم تنهدت تنهدا عميقا وقالت : « ولم يكتفوا بقتله فى بيته وعلى فراشه ولكنهم منعوا الناس ان يصلوا عليه وقالوا : (لايدفن فى مدافن المسلمين) . كأنه كفر اوكان من المشركين. جزاهم الله بما فعلوا . فظل فى بيتنا ثلاثة ايام وجثته ملقاة بين أيدينا ونحن نبكيه ونبكي الاسلام من بعده ، ولو لم نلق اخوانا من أهل المروءة يحملونه خلسة فى الليل لظل غير مدفون . وكم احزنني ما أصاب الذين قتلوا معه فقد جروهم بأرجلهم ولعلهم القوهم على التلال لتأكلهم الكلاب . ولا ادرى اذا كان أبوك المسكين قد اصابه مثل مصابهم »

فلما سمعت اسماء ذكر أبيها ارتجفت وامتقع لونها وصاحت : « وماذا أصاب أبى ؟ »

قالت : « ألم تعلمي ما أصابه وقد كنت معنا فى الدار ؟ »

قالت : « لا . . ماذا اصابه ؟ »

قالت : « بلغت انه قتل مع الخليفة فى بعض جوانب الدار »

فلطمت أسماء وجهها وصاحت : « ويلاه يا أبتاه » . وأوغلت فى البكاء مذعورة وصاحت : « وأين هو الآن . أرونى أين هو ؟ »

ولم تكن نائلة تتوقع من اسماء حزنا شديدا على أبيها لما تعلمه من حديثها عنه

اما اسماء فبكت وناحت والنساء يخففن عنها ويقلن : « اصبرى فان له اسوة بأمير المؤمنين وسوف يلقيان ربهما معا والله ينتقم من القوم الظالمين . وسوف يثأر له بنو أمية جميعا . انهم لم يدركوه حيا ليدفعوا عنه القتل ، ولكنهم سوف يسرعون الى الثأر اذا رأوا قميصه الملوث بالدم وأصابعي المبتورة . فقد أرسلت القميص والاصابع الى معاوية فى الشام ، وأصبح الامر لبنى أمية وهم سواد قريش . ولقد ظن بنو هاشم انهم اذا قتلوا عثمان ضعف شأن بنى أمية ، ووالله انهم أكثر رجالا واوفر عدة وأصعب مراسا ، وسوف يلقى بنو هاشم عاقبة ما جنته ايديهم »

فلما سمعت تهديد نائلة وحكاية قميص عثمان وأناملها وما ذكرته من تفضيل بنى امية على بنى هاشم علمت انها انما ارسلت الاصابع والقميص استحثاثا لبنى أمية على الثأر لدم عثمان ، وتحققت انها تضمر السوء لعلى ، فلم تسكت عن الدفاع عنه وقالت : « لقد كان بنو هاشم

أكثر الناس دفاعا عنه فان عليا أرسل الحسن والحسين لرد الناس عن بابه ، ولو أذن لهما أمير المؤمنين لجاهدا فى الذب عنه الى آخر نسمة من حياتهما . أمثل هؤلاء يطالبون بدم عثمان أم يقال انهم دافعوا عنه جاهدين ؟ »

قالت : « دعك من هذا . فوالله لوأرادوا دفاعا لما مات عثمان ، انما أخذوا الامر بالتريث والمداورة وأظهروا العجز وساء ما يضمرون . ولا يغرنك ارسالهم أولادهم » . قالت ذلك وحرقت أسنانها وسكتت فعذرتها أسماء لما رأت من هياج عواطفها على مقتل زوجها ولم تجبها ، ولكنها عادت الى السؤال عن أبيها فقالت لها احدى النساء : « لاتتعبى يا أسماء ان أباك قتل مع الذين قتلوا مع عثمان وهم اثنان هو ثالثهم . وقد حملوا جثثهم خلسة الى حيث لا ندرى . فتعزى وتأسى بمقتل أمير المؤمنين خليفة رسول الله »

وظلت أسماء تبكي مع الباكين حتى هدأ روعها وذكرت أن وفاة أبيها خير لها فى مستقبل حياتها فنظرت الى نائلة وقالت : « وما الذى اعتزمته الآن ؟ »

قالت : « لقد عزمت على الرحيل من هنا الى حيث لا أرى هاشميا ولا أسمع بهاشمىّ ، ولكننى لا أستطيع الخروج الا خلسة وما مقامنا هنا الا خفية . ولو عرف هؤلاء الظالمون مقامى لأدركونى وقتلونى ولكن بنى حزم أهل جوار فقد خبأونى جزاهم الله خيرا »

ثم تذكرت أسماء انها تركت بيت العجوز على غرة ، فخافت أن تقلق عليها اذا افتقدتها ولم ترها ولا سيما اذا عاد محمد ولم يجدها ، وزد على ذلك انها خافت أن يجىء مروان فى حين انها لا تريد أن ترى وجهه . فنهضت واستأذنت محتجة بالذهاب الى بعض ذوى قرابتها فى أطراف المدينة

فقالت لها نائلة : « لو كان لى بيت لدعوتك اليه يا ابنتى ، ولكنى اصبحت غريبة بين أهلى اتوقع الشر فى كل لحظة . فاذهبى حرسك الله ووقاك ، واذا من الله علينا باللقاء فعسى أن أكافئك على صنيعك » . قالت ذلك وضمتها الى صدرها وودعتها وهى تبكى ، وبكت أسماء أيضا وقد انفطر قلبها لما سمعته من كلام نائلة ، وشق عليها أن تراها هكذا وقد كانت بالأمس زوجة أمير المؤمنين وصاحبة الأمر والنهى

□

خرجت أسماء تلتمس بيت العجوزوهى تحسب انها تعرفه ، لكنها

تاهت لأن البيت صغير لا يرى عن بعد . ووصلت اليه بعد لأى وقد مالت الشمس الى المغيب فوجدت الباب مغلقـا فقرعته مرارا فلم يجبها احد

فوقفت تفكر فيما تفعله فلم تر خيرا من الذهاب الى بيت على تفتقد محمدا فاذا لم تجده باتت تلك الليلة هناك فقد طالما دعاها للاقامة عنده ، ولكنها خشيت ان هى سارت بلباس النساء أن تكون هدفا للناس فى الطريق او فى فناء الدار لأن بيت على كان يعج بالغادين والرائحين . فأخفت نفسها وكانت ممنطقة (بكوفية) فحلتها ولفت بها رأسها كما يفعل الرجال فى أسـفارهم ، وتزملت بعباءة كانت قد خرجت بها بالامس ، وسارت صوب بيت على فلم تبلغه الا عند العشاء . فرأت نفرا قليلين فى فناء الدار وكانت تتوقع أن ترى ازدحاما ، ثم علمت ان أهل البصرة والكوفة والمصريين الذين كانت تزدحم بهم المدينة قبل مقتل عثمان ذهبوا الى مضاربهم خارج المدينـة للمبيت . فسألت عن على فقيـل لهـا انه فى خلوة مع بعض الامراء لايدخل عليه احد ، فوقفت تنظر فى الأمر فحدثتها نفسها أن تدخل المنزل فتبيت عند بعض نساء على ولكنها هابت الدخول عليهن وهى لا تعرفهن من قبل

وبينما هى فى ذلك رأت محمدا بن أبى بكر خارجا من الدار فتبعته فلما رأى عباءتها ومشيتها عرفها فدنا منها وتفرس فيهـا فقالت : « محمد ؟ » . قال : « أسماء ؟ » . قالت : « نعم أين أنت ؟ »

قال : « لقد قلقت لغيابك اين كنت ؟ »

قالت : « خرجت لحاجة سأقص عليـك امرها الآن . وأين هى عجوزك ؟ »

قال : « أتتنى فى الصباح وهى قلقة لغيابك ، وقد قضينا نهارنا كله فى البحث عنك ، فشغلنا به عما نحن فيه من عظائم الامور . تعالى معى أدخلك الى أمى »

قالت : « هل تقيم امك فى منزل على ؟ »

قال : « نعم وهى زوجته بعد أبى ، واسمها مثـل اسمك ، بورك فى هذا الاسـم »

فسرت أسماء لمعرفة أمه ورأت بابا للفرج بالاقامة عندها فقالت : « وهل تزوجها على من زمان طويل ؟ »

قال : « تزوجها بعد موت أبى ، وكنت أنا طفلا فربيت فى حجره فأنا أعده بمنزلة الأب وهو يحبنى كأحد أولاده »

قالت : « لقد آنست فيه هذا البر فرحم الله والدا ولدك ، وعاش

والد رباك » . قالت ذلك وقد ابرقت أسرتها اعجابا ولكنها أظهرت فتورا فى كلامها لم يعهده فيها ، فشعر هو بذلك فقال : « أراك قد تغيرت يا أسماء بعد خروجك اليوم من بيت العجوز »

قالت : « بل انا باقية على ما تعلم ، ولقد كنت سـألتنى عن سبب خروجى منه »

قال : « نعم والى أين كان ذهابك ؟ »

قالت : « خرجت الى تلك المسكينة التى قتلتم زوجها وتركتموها حزينة وحيدة عسى ان أستطيع تعزيتها مثلما عزتنى فى أيام محنتى »

قال : « هل ذهبت الى نائلة ؟ »

قالت : « نعم سرت اليها ورايت دفن قتيلكم رحمه الله . فقد حملوه على باب وساروا به خلسة ليدفنوه خارج المدينة ، وسمعت طعنا فيك ساءنى سماعه ، كما ساءنى الا أستطيع دفعه ، فانى رأيتك داخلا متعمدا قتل الخليفة » . قالت ذلك وفى رنة صوتها مالا يصدر الا عن سلطة الدالة وسلطان الدلال

فأدرك محمد ان اعتقادها هذا سيكون صفحة سوداء فى كتاب حبها فساءه ذلك ، ولكنه أعجب بأنفتها وصدق ادبها وأحب ان يبرىء نفسه فى عينيها فقال وهو يبتسم تأكيدا لبراءة ساحته : « لقد قلت لك يا أسماء ان الرجل لم يقتل ظلما ، على انى لو كنت انا القاتل فلست بنادم ، وسأبرر الامر لديك عما قليل ، أما الآن فهيا بنا أدخلك على أمى وهى تتولى تقديمك الى على »

□

ولم يكد يدنو من البـاب حتى سمع وقع أقدام فى الدار ثم رأى الحسن بن على يمر به ويسلم . فأجابه محمد : « وعليك السلام يا ابن أمير المؤمنين» . فقال الحسن : « أراك تبشرنى بخلافة انا خائف منها »

قال : « لاتخف يا ابن بنت الرسول ، انكم أولى الناس بها »

وكان الحسن يكلم محمدا وينظر الى اسماء ليعرف المتلثم فابتدره محمد قائلا : « ان صاحبى اموى جاء للمبيت عندكم فهل تقبلونه ؟ »

قال : « اهلا به أيا كان فليدخل » . قال ذلك ودخل ، فدخلا فى اثره واسماء لا تزال ملثمة والحسن ينظر اليها ويتوقع حسر اللثام . ولما وقع نظره عليها تذكر انه رآها فى منزل عثمان يوم الدار . فوقعت من نفسه موقعا حسنا واعجب بها . فقال : « اهلا بك يا اخية »

اما اسماء فتهيبت الموقف ونظرت الى الحسن فاذا هى امام شاب ابيض اللون مشرب بالحمرة ادعج العينين سهل الخدين كث اللحية ربع القامة جعد الشعر ، لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان اشبه الناس بالنبى ، وغلب عليها الحياء فاطرقت وقالت : « بورك فى بيت شرفه الله » . فقال محمد للحسن : « وازيدك معرفة بها ، فهذه اسماء بنت يزيد التى جاءت منذ بضعة أسابيع تدعو مولاى ابا الحسن الى امها على فراش الموت لتطلعه على سر ، فقضت رحمها الله قبل وصوله وذهب السر معها الى القبر »

قال الحسن وهو ينظر الى اسماء : « ان ابى لا يزال يذكر ذلك ويأسف لضياع السر ويعجب بما آنسه فى هذه الفتاة من الهمة والانفة » . قال ذلك وسار امامهما فمشيا فى اثره وقد اتقدت نار الحب والغيرة فى قلب محمد وكأنه ندم على مجيئه بها فسأل الحسن : « أين نحن ذاهبون ؟ »

قال الحسن : « الى خالتى امامة اعرفها بأسماء فتبيت عندها الليلة » . فلم يرق الأمر لمحمد لأن الحجاب يمنعه من الدخول معهما الى امامة ؛ فبقى خارجا على مثل الجمر ، ودخل الحسن الى حجرة امامة بلا استئذان . وكانت جالسة وحدها وقد لبست ثوبا بسيطا وفى عنقها قلادة من جزع كانت شديدة الاحتفاظ بها . فلما رأت الحسن داخلا أرادت ان تسأله عن أمر الناس والخلافة فاذا هى بأسماء تتبعه فلما راتها اعجبت بطلعتها ، فدنت اسماء تهم بتقبيل يدها فمنعتها وقبلتها فابتدرها الحسن قائلا : « هذه يا خالة اسماء، واظنك تذكرين حديث ابي عن أمها وعن سرها ، الذى مات معها »

ثم التفت الى اسماء وقال : « انك بين يدى امامة زوج أبى . بنت زينب بنت الرسول ، وكان جدى يحبها كثيرا وانظرى الى هذه القلادة فى عنقها فقد اهداها اليها رسول الله وكانت احب اهله اليه »

فازدادت اسماء اجلالا لامامة وظلت واقفة حتى دعتها الى الجلوس فجلست على وسادة بالقرب منها . فقال الحسن : « انى أوصيك ضيفتك ؛ ولا سيما وقد علمت مكانتها عند ابى » . قال ذلك وخرج فراى محمدا فى انتظاره على مثل الجمر ، فقال له : « كيف عرفت هذه الفتاة يا محمد ؟ » . قال : « عرفتها يوم جاءت تدعو مولاى ابا الحسن الى امها ، وقد صحبتها الى قباء وهى فى زى الرجال ثم رايتها مرة فى دار عثمان ، ورايتها اليوم جاءت تبحث عن منزلكم فانها غريبة ، وكان ابوك قد دعاها الى الاقامة عندكم تعزية لها على حزنها ويتمها »

فقال الحسن : « انها والله ذات جمال ووقار ، وليتها تبقى عندنا »

مبايعة علي بالخلافة

أدرك محمد مدى اعجاب الحسن بأسماء ، فاتقدت نار الغيرة فى صدره ، ولكنها غيرة لم يشبها بغض لما يكنه للحسن وآل بيته من الحب ، فانتقل بالحديث الى سؤال الحسن عن ابيه ، فقال الحسن : « تركته فى مجلسه وقد اجتمع الأمراء حوله يريدون مبايعته ، وهو يقول لهم : « لا حاجة لى فى أمركم فمن اخترتموه رضيت به » . وهم يلحون عليه فى القبول ويقولون له : « لا نعرف احدا احق بها منك ، ولا أقدم سابقة ولا اقرب قرابة من رسول الله .. »

فقال محمد : « وهل قبل ؟ » . قال : « لا ، وقد تركته يقول لهم : (لا تفعلوا فلأن أكون وزيرا خيرا من أن أكون اميرا) . وهم يقولون : (ما نحن فاعلون حتى نبايعك) .. »

فقال محمد : « انى لأعجب من رفضه امرا هو أولى به من سواه . ويجب والله الا يليها غيره »

فقال الحسن : « وانى اشد تعجبا منك » . قال محمد : « وماذا فعل طلحة والزبير ، فانى اخالهما غير راضيين ، لأن كلا منهما يريد الخلافة لنفسه ؟ »

فابتسم الحسن وقال : « سيبايعان كارهين ان شاء الله ، على انهما يتظاهران بالقبول ، وسنرى ما يكون منهما فى الغد فقد ذهب اليهما بعض الناس يدعونهما الى المبايعة »

وافترقا بعد هنيهة ، فسار محمد الى فراشه وقد أهمه أمر أسماء مثل ما أهمه أمر الخلافة ، لعلمه ان الحسن اذا وسط أباه فى تزويجها به ، فسينالها لا محالة ، فلم يبق لديه الا أن يسعى فى ابعادها عنه ، وقضى ليلته يفكر فى وسيلة ليخرج بأسماء من بيت على حتى يخلو بها فيقنعها ببراءته من دم عثمان ، ثم يتزوجها قبل ان يبدو من الحسن مايشعر برغبته فيها ، فبكر فى الصباح التالى وجاء الى حجرة الحسن فلم يجده ، وقيل له : « انه ذهب الى حجرة أمامة ، فعلم انه سيقابل أسماء هناك ، وسارع الى ارسال من يستقدمه ، فجاء الحسن مشرق الوجه ، بادى الابتهاج ، فانقبضت نفس محمد ، وكادت الغيرة

ن تبين فى وجهه ولكنه تجلد وحياه وقال : « كيف اصبحت فتاتنـا اليوم ؟ »

فقال الحسن : « هى فى خير ولكننى اراها منقبضة النفس »

فسرى عن محمد اذ رأى فى ذلك دليلا على بقائها على عهده . وقال : « أظنها حزينة على ابيها فانه قتل فى دار عثمان ، وارى ان نخرج بها لتحضر مجلس ابيك وحديث القوم فى امر البيعة لعلها تشغل بما تراه هناك عن أحزانها »

قال : « وكيف تجالس الرجال؟ » . قال : « ارى ان تذهب متنكرة »

وكان الحسن اشد ميلا من محمد الى اصطحابها ، ولايدرى ما يخالج قلب محمد فقال : « لقد رايت صوابا » . وذهب لاستقدامها ، وما لبث ان عاد وهى معه وقد تنكرت . فلما رآها محمد حياها وهو ينظر الى وجهها نظرة لا يفقهها الا من عانى الحب والغيرة ، ولبث ينظر الى ما يبدو منها ، فأبرقت أسرتها حالما وقع نظرها عليه فسرى عنه وقال لها : « اظنك تودين حضور مجلس مولاى ابى الحسن ؟ »

قالت : « كيف لا ، وانت تعلم ما يجول فى خاطرى ! » . فأدرك محمد أنها تشير الى حبها ، فوثق من انها باقية على عهده ، فقال : « اذا فرغنا من هـذا المجلس سلمت لك جوادك ومتـاعك الذى كان لك فى منزل عثمان . وقد وعدتك ان أحتفظ به »

فأثنت عليـه ، وأشارت بعينيها اشارة فهم محمدا منها مرادها والحسن لا يشعر

ثم قال الحسن : « هلم ندخل الى ابى قبل حضور الناس عنده » . فدخل هو أولا ، ثم دخلت هى ومحمد

وعندما دخلت أسماء وهى فى لباس الرجال حسرت بعض اللثـام وهمت بتقبيل يد على ، وكان جالسا فوق وسادة وعليه ازار وطاق وعمامة خز ، وقد ازدادت هيبته ، وارسل عمامته الى الوراء حتى ظهرت صلعته ، ثم اخذ يمشط لحيته بأصابعه وعينـاه الدعجاوان تتلألآن فى وجهـه والذكاء ينبعث منهمـا . فلما رأى اسماء مقبلة ابتسم وحياها وسألها عن حالها ، فقالت : « انى بفضل مولاى فى خير وعافية »

قال : « ان كلامك يا بنية ما زال يرن فى اذنى مذ جئتنا قبل مقتل عثمان رحمه الله ، فقد قلت : (ان فى مقتل الخليفة ايقاظا للفتنة) . واراها

استيقظت وانك كنت على صواب »

قالت : « ان الفتنة لتستحيي من ابن عم رسول الله فتعـود الى نومها اذا هو قبض على زمام الخلافة »

فأعجبه أسلوبها وحدة ذهنها ، ودعاها الى الجلوس وهو يقول : « اراك خلعت زى النساء ولبست زى الرجال يا أسماء »

قالت : « لقد ارتديت هذا اللباس لأستطيع أن القى رجل هـذه الامة »

ولم تكد اسماء تجلس حتى جاء فتى يستأذن عليا فى دخول بعض الصحابة فأذن ، ودخل عليه جماعة من المهاجرين والانصار فيهم طلحة والزبير ، وكانت اسماء تعرفهما من قبل . فجلسوا حتى غصت القاعة بهم ، وتصدرطلحة والزبيرالقوم وعلا وجهيهما انقباض كأنهما يخفيان أمرا ، فادركت اسماء انهما جاءا مكرهين ، وما لبثوا حتى نهض واحد من اهل المدينة وخاطب عليا قائلا : « لقد جئنا الى على بن ابى طالب نطلب منه امرا ونرجو ألا يردنا فيه خائبين »

فقال على : « وماذا تريدون ؟ »

قالوا : « جئنا نبايعك على الخلافة لأننا لا نرى أحدا احق بها منك »

قال وهو ينظر اليهم جملة : « ما زلت أرجو اعفائى من هذا الأمر ، فانى أراه طريقا وعرا »

قال قائل منهم : « ومن ترى اقدم منك سـابقة واقرب قرابة من رسول الله وقد صرح بأنه (لايحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق) . »

قال : « كلكم لها اكفاء ، وسأبايع بها من تبايعون »

قالوا : « لا نرى غيرك أحق بها وقد قال رسول الله : (على منى وأنا من على ، وهو ولى كل مؤمن بعدى) . . »

قال : « قلت لكم دعونى واطلبوا غيرى فانا مستقبلون امرا له وجوه وله الوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول »

فوقفوا وقد نفد صبرهم وقالوا : « نناشـدك الله ، الا ترى ما نحن فيه . الا ترى الاسلام ألا ترى الفتنة . الا تخاف الله ؟ »

فلمـا سمع على تأنيبهم سكت وقد ضاق بهم درعا وعظم عليـه الأمر فأطرق يتململ . ثم نظر اليهم فاذا هم سكوت ينظرون جوابه فقال لهم : « قد اجبتكم »

ولم يكد ينطق بها حتى ضج الناس استحسانا وتهللت وجوههم فرحا الا طلحة والزبير فانهما ظلا صامتين

فلمــا رأى على حسن لقــائهم برغم ســكوت طلحــة والزبير نهض فنهض الناس وهم ينظرون اليه ليروا ما يقول فاذا هو يضطرب كأنه تنبأ بما يتوقعه من جلائل الامور ، ثم اشار اليهم وقال : « اعلموا انى اذا اجبتكم ركبت بكم ما اعلم ، فانما انا كاحــدكم الا انى اســمعكم واطوعكم لمن وليتموه »

فقالوا : « كلنا اطوع لك من بنانك ، ومن ذا الذى لا يطيع ابن عم رسول الله ، واخاه ، ووصيه ، ونصيره ، وربيبه وحبيبه وخليفته ، والذى قال فيه : (من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه) . وقال : (على منى بمنزلة هــرون من موسى) . فكيف نبايع سواك ؟ »

فقال : « اذا كنتم لا ترون بدا من المبايعة فلتكن فى المسجد »

قالوا : « هلم بنا الى المسجد »

□

فنهضوا ونهض على بن ابى طالب ومشى وهو ينكفأ ، وبيده قوس يتوكأ عليها ، حتى اقبل على المســجد والناس بين يديه . وكان محمد وحسن واســماء بالقرب منه . فلما دخلوا المســجد قرأ على الفاتحه وصلى ، ثم وقف ووقف الناس ، فنظرت أسماء الى الجمع وقدهاجوا وماجوا فرأت طلحة وقد تقدم اليه قبل الجميع ومد يده فمد على يده فصافحه طلحة ، وقال : « انا نبايع ســيدنا ومولانا الامام ، المفتــرض الطاعة على جميع الانام ، عليا بن أبى طالب . على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد امير المؤمنين . ونســلم له النظر فى امورنا وأمور المســلمين لاننازعه فى شيء ونطيعه فيما يكلفنا به من الامر على المنشط والمكره . وعلى ألا خليفة سواه » . وادركت أسماء من هيئة طلحة وغنة صوته ومجمل حاله انه انما بايع مكرها . ثم سمعت رجلا من الوقوف خلفهــا يقول لجاره همســا : « انا لله وانا اليه راجعون ، ان اول يد بايعت يد شلاء ، لايتم هذا الامر » . فالتفتت اسماء الى محمــد كأنها تستفهمه مغزى مايقوله الرجل ، فدنا منهــا وقال لها : « ان فى يد طلحة شــللا خفيفا من يوم احد ، والذى سمعته يتكلم رجل من أهل العيافة تشاءم تلك المبايعة »

قالت : « ارجو الا تصــدق عيافته » . وبعد ان بايع طلحــة تنحى وتقدم الزبير فبايع ، ثم بايع غيره من الامراء جملة وفرادى

فلما تم الامر لعلى واصبح امير المؤمنين ، ارتقى المنبر . فلمــا رآه

الناس صاعدا علموا انه يريد ان يتكلم وهم طالما سمعوا خطبه وسحروا ببلاغته ، فانصتوا الى ما سيقول . وظلت اسماء فى موقفها ومحمد الى جانبها ، فلما وقف الامام على اصغت كما أصغى الجميع ، فمسح على لحيته بيمينه واجال نظره فى الناس والعمامة الخز على رأسه وعليه الازار وبطنه يتقدمه لأنه كان ذا بطن، فلبث هنيهة لا يتكلم حتى سكت الجميع وتطاولوا باعناقهم لسماع كلامه وهو اول كلام له بعد الخلافة . فحمد الله واثنى عليه ثم قال بصوت سمعه من فى المسجد جميعا :

« ان الله تعالى انزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر ، فخذوا نهج الخير ، وأصدفوا عن سمت الشر . ادوا الى الله ، يؤدكم الى الجنة . ان الله حرم حرما غير مجهول ، واحل حلالا غير مدخول ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فى معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق . ولا يحل اذى المسلم الا بما يجب . ان الساعة تحدوكم من خلفكم . تخففوا تلحقوا ، واتقوا الله فى عباده وبلاده فانكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم . وأطيعوا الله ولا تعصوه . واذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه واذكروا انكم قليلون مستضعفون فى الارض »

□

وكان محمد قد خامر سروره قلق ، لما قام فى ذهنه من ميل الحسن الى اسماء ، فلما انفض الجمع ورأى الحسن مع ابيه والناس حوله يهنئونه اشار الى اسماء فتبعته وقد ادركت ما فى ضميره ، واحست ما فى نفس الحسن وقد استملحته ولكنها بقيت على حب محمد وهو اول من طرق قلبها . فلما دعاها سارت فى اثره وهى تتجاهل مراده حتى وصلا الى بيت العجوز

فلما خلا باسماء نظر اليها نظرة لم يخف مغزاها عليها. فابتدرته قائلة : « ارى المدينة غاصة بالناس وقد شغلوا بخليفتهم فلم يعد يطيب المقام فيها »

فأعجب محمد بحسن فراستها ورقة احساسها ، ولكنه خاف ان تكون مضمرة غير ما تظهر فقال : « وما الذى بغض اليك الاقامة بالمدينة ؟ » . قالت : « بغضها الى ماحبب محمدا الى »

قال : « وكيف تتركين عليا واهله ؟ » . قالت : « مالى ولأهله ؟ »

قال : « الا ترين ان امامة تفتقدك ؟ » . قالت : « اظنها تفتقدنى وقد يفتقدنى غيرها ولكننى لا ابالى احدا »

فأدرك انها عرفت نيتــه فقال : « لقد تم الامر لعلى فهو اليوم امير المؤمنين ، وقد استقام لنا الامر وسانظر مايكون من تبــديل عماله على الامصار ، ونتدبر ذلك في حينه . اما الآن فأرى ان تقيمي عنــد اختي عائشة أم المؤمنين »

وكانت اسماء قد علمت منه انها سارت الى مكة لقضــاء مناســك الحج عندما كان عثمان محاصرا ، ولم تسمع انها عادت فقالت : « هــل عادت ام المؤمنين من مكة ؟ »

قال : « لم تعد بعد وقد قتل عثمان وتولى على وهي غائبــة ، وقد تقيم هناك حقبة أخرى » . قال ذلك وهو يعلم ان مجيئها قريب ولكنه خشى ان هو أعلم اسماء بذلك الا تعود ثمة حاجة في خروجها من المدينة فتضطر الى أن تقيم ببيت علي وتأبى عليه غيرته ذلك

قالت اسماء : « هل أذهب اليها ؟ »

قال : « ارى أن تذهبي فتقيمي عنــدها وتشاهدى بيت الله الحرام ومشاهد مكة ، فاذا عادت أختي عدت معهــا واذا أقامت طويلا ذهبت انا لاستقدامك ونكون قد عرفنا مصيرنا »

قالت : ان في ذهابي اليها شرفا عظيما ، ولكن كيف اسير وحدى »

قال : « ارى ان تصحبك هذه الخالة (واشار الى العجوز) فان لهــا دالة على اختي ، وذهابها معك يغنيني عن الايصاء بك وسأرسل معكما من يوصلكما اليها . ويحسن بك ان تطلبي انت الشخوص اليهــا » . قال ذلك ونظر اليها وهو يبتسم

ففهمت مراده وادركت انه يخاف ان يعلم على أو الحسن انه هو الذى حملها على الشخوص . فقالت : « نعم فأنا الراغبة في المسير لاكون بجوار أم المؤمنين . أين جوادى وأمتعتى ؟ »

قال : « هنا عند الخالة فامكثي عندها الى الغد فآتى اليك بمن يسير بك الى مكة » . قال ذلك وهم بالخروج

فقالت له اسماء : « ولا يبرح من ذهنك انى مازلت أتوقع اليقين عن مقتل عثمان وتفصيل ما تبرىء به نفسك »

قال : غدا تلاقين أم المؤمنين فاسأليها عن عثمان وهل اســتحق القتل وهى تجيبك بما يغنيك عن سؤالى . ألا ترضين بها حكما ؟ »

قالت : « أرضى » . قال : « انها من أول القائلين بقتله ، ومن قولها : (اقتلوا نعثلا ــ لقب عثمان ــ فقد كفر) . »

وتركها محمــد ومضى ، فلما كان صبــاح الغد جاء وقد اعد جــالا وهودجا . فلما رات اسماء الجمال قالت : « وما تلك ؟ » . قال : « هى

جمال ولايصلح لركوب الصحراءغيرها ، فان بيننا وبين مكةبضع مراحل والطريق وعر »

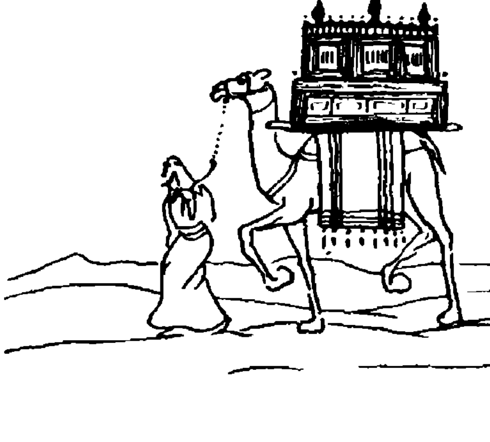
قالت : « ولكنني أوثر الفرس ، وكذلك فعلت فى قدومي من الشام ، وقد خوفوني ركوب الافراس فى الصحراء فأبيت الا ركوبها »

قال : «لايجمل بك أن تركبي فرسا ورفيقتك هذه لاتستطيع ركوبه، فاركبي الجمل فانه اصلح لهذا الطريق واتركى جوادك هنا فلا خوف عليه . وقد علمت أن رجلا من أخوال أم المؤمنين من بني الليث واسمه عبيد بن ابي سلمة عاد الى مكة ، فعهدت اليه فى أن تسيرا معه فيوصلكما الى منزل أختى »

فعجبت أسماء لوصفه الرجل بأنه من اخوال اخته وحدها ، فسألته عن ذلك . فقال : « ان عائشة من أم غير أمي ولم تسنح لك الفرصة ان تريها بالامس ، فعسى أن تريها فى فرصة أخرى »

قال ذلك وأمر العجوز فأخذت فى اعداد مايلزم للسفر وجعلت تجمع صررها ، صرة فيها المشط ، وصرة فيها السواك ، وصرة للنعال ونحو ذلك . ولم يمض ساعتان حتى تهيأ كل شيء . وجاء عبيد بن ابي سلمة فأوصاه بالعجوز والفتاة خيرا وودعهما

فقالت له أسماء وهي تشد منطقتها حول خصرها وتتهيأ للدخول فى الهودج : « متى اراك ؟ » . قال : « أرجو أن اراك قريبا فى مكة اوابعث فى استقدامك متى استقام الامر وهدأت الاحوال » . فودعته وسارت وقد تلثمت بلثام السفر



المطالبة بدم عثمان

لم تكد اسماء تخرج من المدينة ، حتى اشرفت على قباء فهاجت اشجانها وتذكرت امها ، فترجلت عند المسجد فلقيها خادمه الشيخ فدعا امراته فرحبت باسماء ومن معها ، فطلبت اسماء ان تزور قبر امها فزارته وبكت بكاء مرا حتى كاد يغشى عليها لو لم ينهضها الرفاق . ولما رآها ابن ابي سلمة على تلك الحال ، اسرع في الترحال فشدوا الاحمال وركبوا قاصدين الى مكة . وكان قد تأثر لما رآه من حزن اسماء فاراد ان يواسيها فلما شارف جبل احد وهو على اربعة اميال من المدينة غربا احب ان يشغلها بالحديث فقال لها : « انظرى الى هذا الجبل فانه احد الذى وقعت عنده الوقعة بين المسلمين ومشركي قريش على عهد النبى صلى الله عليه وسلم » . وقص عليها حديث الغزوة

وقصوا في سفرهم ثلاثة ايام حتى شارفوا جبال مكة عند قريه يقال لها « سرف » على ستة اميال من مكة ، فراوا ركبا فدوصل وفيه ناقة عرف عبيد انها ناقة عائشة لما راى هودجها وعليه رداء احمر يجلله كله ، فسرحل وترحلت اسماء والعجوز واشتغل العبيد في عقل النوق

وسرت اسماء برجوع عائشة على عجل لعلها ترجع معها الى المدينة فنلقى محمدا . فقالت للعجوز : « واين ام المؤمنين ، ولم اسرعت في الرجوع من مناسكها ؟ » . فالتفتت العجوز يمنة ويسرة حتى استقر بصرها على فسطاط كبير مبطن بالحرير الاحمر عند بابه بدويان واقفان. فقالت : « هذا هو فسطاطها وقد وقف الخدم عند بابه »

فقالت : « وهل نذهب اليها الآن ؟ »

قالت : « تمهلي لنرى مايكون من ابن ابى سلمة» . ثم سارت العجوز اليه وكان يعقل ناقته ويصلح حاله قبل الدخول الى الفسطاط ، فازدادت اسماء تهيبا من الدخول على أم المؤمنين وقالت للعجوز : « وهل تنوى الاقامة بهذا المكان ؟ »

قالت : « يلوح لى انها على سفر » . ثم دنت من قائد جلها فسألته عن سفر ام المؤمنين فقال : « انها شاخصة الى المدينة »

فقالت اسماء : « وما العمل الآن هل نرجع معها أم نظــل فى طريقنا الى مكة ؟ »

قالت : « سنرى فى ذلك متى التقينا بها ، فاذا أمرتنا بالرجوع معها رجعنا واذا ارادت أن ندخل مكة دخلنا »

قالت : « هل ننتظر رفيقنا لندخل معه ام نسبقه اليها ؟ »

قالت : « ارى ان ندخل فسطاطها قبله مخافة أن تكون هى مسرعة فى القيام فلا نتمكن من التكلم معها »

قالت : « وهل تعرفينها من قبل ؟ »

قالت : « اعرفها جيدا وقد عشت فى بيت ابيها رحمــه الله ، وكثيرا ما حملتها على عاتقى وهى طفلة ، ولهذا أحن اليها حنين الوالدة »

قالت : « فلندخل عليها » . قالت : « هلم بنا » . ومشت أمامها فتبعتها أسماء حتى دنت من الفسطاط ، فاســتأذنتا فى الدخول ، فأذن لهما ، فدخلتا وكلتاهما هائبة الوقوف بين يدى زوج النبى

اما أسماء فكانت على شجاعتها وثبات جأشها قد شعرت عند دخولها الفسطاط باضطراب وازداد خفقان قلبهــا واحمرت وجنتاها ثم امتقع لونها رهبة من لقاء أم المؤمنين

وكانت عائشة جالسة الاربعاء على وسادة من الخز فى صدر الخيمة . فنظرت اسماء اليها فاذا هى ربعة ممتلئة الجسم تتلألأ الصحة والذكاء من عينيها وفوقهما حاجبان متقاربان يشيران الى ما أودعه الخالق فيها من الانفة والمهابة . وقد تجلببت بجلباب من الحرير يغطى كل أثوابهــا فوقه نقاب يكسو رأسها فيزيدها جلالا ووقارا

فاستأنست اسماء برؤيتها لشدة ما أشبهت محمدا ، حتى لايشك الناظر اليها انها اخته ، وكانت قد علمت انها قاربت الثالثة والاربعين من عمرها ، فلما رأتها خيل اليها انها دون الثــلاثين لما فى وجههــا من اشراق وصحة وشباب

فلما دخلتا حيتاها ، وهمت العجوز بتقبيل يدها فمنعتها عائشــة وقالت : « اهــلا بك ياخالة اهــلا بك » . وأمرتها بالجلوس فجلست وتقدمت اسماء فى خفر واحتشام وقبلت يدها ، ووقفت متأدبة حتى اذنت لها فى الجلوس فجلست مطرقة لاتتكلم وقد ذهبت عنها جراتهــا لتهيبها اللقاء

فنظرت عائشة الى العجوز وابتسمت كأن فى نفسها امرا تخشاه او كأنها مشتغلة بأمرها ، وقالت : « مرحبا بك يا خالة ، ما الذى جاء بك الينا . كيف فارقت محمدا ؟ »

قالت : « فارقته فى خير وعافية ، وقدبعثنى اليك بهذه الفتاة اودعها عندك لتكون فى كنفك حتى يجىء » . قالت ذلك وتبسمت

فنظرت عائشة الى اسماء فأعجبها ما فيها من الجمـال والـكمال ، وادركت مما علا وجهها من ظلال الحيـاء عند ذكر محمـد انها تحبه ، فتبسمت ورنت الى العجوز بعينيها مشيرة اشارة اثبتت ظنها

فقالت لأسماء : « اهلا بالضيفة العزيزة وديعة اخى فانت اذا أختى»

فتوردت وجنتا اسماء خجلا ، ولم تجب

فقالت عائشـة : « اظنكما جئتمـا لتقيما عندى بمكة ؟ » . قالت العجوز : « نعم يامولاتى »

قالت : « ولكننى شاخصة الآن الى المدينة فاذهبا الي بيتى بمكة حتى اعود ، أو تعاليـا معى الى المدينة » . ثم التفتت الى اسـماء وقالت : « ما بالك لا تتكلمين ؟ »

فرفعت أسماء راسـها وقالت : « تلعثم لسانى بين يدى أم المؤمنين زوج الرسول »

فابتدرتها عائشة قائلة : « ولكنك ستكونين من ذوات قربانا باذن الله فلا تتهيبى . اهلا بك ومرحبا »

فقالت العجوز وهى تريد أن تداعب اسـماء : « لتعلـم مولاتى ان اسماء بنت يزيد من بنى امية قدمت المدينة من قبل منذ بضعة اشهر فقط وكانت مقيمة بالشام فلا تعرف عادة اهل الحجاز »

فقالت عائشة : « مهما يكن من أمرها فلن تلبث حتى تصير حجازية»

□

وسكتت عائشة هنيهة وهي مقطبـة الوجه ثم اسـتأنفت الحديث فقالت : « وهل جئتما فى رفاق ام مع قافلة ؟ »

قالت : « جئنا مع عبيد بن ابى سلمة احد اخوالك »

فلما سمعت عائشة اسمه اجفلت وقالت : « وأين هو ؟ » . قالت : « آت عما قليل »

فلم تصبر عائشة ونادت بعض من على بابهـا وأمرته أن يأتى به ، وارخت النقاب ولبثت صامتة ، وهما صامتتان هائبتان ، حتى دخل عبيد وهم بتقبيل يد عائشـة فمنعته ، وقالت : « أهلا بالخـال ، قل ما وراءك ، كيف فارقت المدينة ؟ »

قال : « فارقتها وقد قتل عثمان وبقى ثمانية »

فلما سمعت ذلك قطبت حاجبيها وظهر الغضب على وجهها ، فتفرست في عبيد والشر يكاد يتطاير من حدقتيها واسماء تراقبها من خلال النقاب وقد ذهلت لما بدا منها

اماعائشة فلم تصبر حتى يتم حديثه. فقالت وكأنها تتحفز للنهوض : « ثم صنعوا ماذا ؟ »

فلم يستغرب عبيد مابدا منها ، ولعله كان يتوقعه فقال : « اجمعوا على بيعة على »

فهبت عائشة من مجلسها ، ثم وقفت واطرقت وقد امسكت طرف نقابها كأنها تصلحه ، ثم رفعت رأسها بغتة واشارت بيدها الى السماء ثم الى الارض وقالت : « ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الامر لصاحبك » . قالت ذلك وخرجت مسرعة وهي تقول : « ردوني ، ردوني الى مكة . قتل والله عثمان مظلوما . والله لأطالبن بدمه »

فبغتت اسماء لما رات من اهتمام عائشة بالامر الى هذا الحد، وساءها ما سمعته من التعريض بعلى ، ولكن التهيب منعها من الكلام

اما عبيد فبقي رابط الجاش ، وربما كان على بينة مما سيبدو من ام المؤمنين فأعد لكل خطاب جوابا ، فاستوقفها وقال لها : « ولم ؟ والله ان اول من امال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر . الم تخرجي قميص رسول الله وشعره لما نقمت بأعمال عثمان وتقولي : (هذا قميصه وشعره لم يبل وقد بلي دينه) . . »

فلماسمعت عائشة قوله ادارت وجهها اليه وقالت : « انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقولي الاخير خير من قولي الاول » . قالت ذلك وأمرت رجالها ان يهيئوا الاحمال للرجوع الى مكة . فنظر اليها عبيد وهي خارجة وانشد :

فمنك البداء ومنك الغير	ومنك الرياح ومنك المطر
وانت امرت بقتل الامام	وقلت لنا انه قد كفر
فنحن أطعناك فى قتله	وقاتله عندنا من امر
ولم يسقط السقف من فوقنا	ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرا	يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها	وما من وفى مثل من قد غدر

فلم تعبأ عائشة بقوله فتركها وانصرف

أما اسماء فلبثت هي والعجوز وكأن على راسيهما الطير لا يفقهان حديثا ، وكانت أسماء قد همت بأن تجيب عائشة ولكنها خافت غضبها فرات من الحكمة والتعقل ان تؤجل ذلك الى فرصه اخرى

فلما تهيأت الاحمال بعثت عائشة الى العجوز واسماء ، فركبتا معهما وسار الجميع قاصدين البيت الحرام ، واسماء صامتة وقد أدهشها ما راته من تغير عائشة بغتة لأمر لم تكن تتوقعه . على انها مالت لمعرفة الدليل على صحة قولها في مقتل عثمان وهو الأمر الذى كان يقض مصجعها ، وكانت من جهة أخرى تخشى ان يثبت قتله ظلما فيحدث مايدعوها الى البعد عن محمد وهذا مالا تطيقه ، فقضت مسافة الطريق هائمة الفكر . حتى أطلت على مكة واشرفت على الكعبة وهى فى وسطها كأنها ملك والابنية حولها جنود . ولم يمض قليل حتى وصل ركبهم الى الكعبة فترجلت عائشة وترجل الجميع وسارت توا الى الحجر فاستترت فيه . وهو مصطبة محوطة بحائط الى ما دون الصدر منه ما تركت قريش من الكعبة واقتصرت فى بنيان الكعبة عنه ، ويقال أن فيه قبر سارة . فلما راتها أسماء تدخل الحجر دخلت هى فى اثرها والعجوز معها ولكنهما لم تتكلما لتهيبهما من غضبها

ماكادت عائشة تدخل الحجر حتى اجتمع الناس حولها وفى مقدمتهم عبد الله بن عامر الحضرمى عامل عثمان على مكة . ورات اسماء بينهم جماعة من بنى امية ممن غادروا المدينة بعدمقتل‌عثمان ولم يكن مروان معهم . ولم يكد يستقر بالناس المقام حتى وقفت فيهم عائشة وقالت وهم سكوت يصغون اليها وكانت جهورية الصوت : « أيها الناس ان الغوغاء من اهل الامصار واهل المياه وعبيد أهل‌المدينة ، اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه ، وقد استعمل أمثالهم من كان قبله . ومواضع من الحمى حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم عنها . فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان ، فسفكوا الدم الحرام . واخذوا المال الحرام . والله لأصبع عثمان خير من طباق الارض امثالهم ، ولو ان الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه او الثوب من درنه »

فما اتمت كلامها حتى هاج الناس وماجوا ، ثم تصدى عبد الله بن عامر الحضرمى وقال والناس يسمعون : « ها أنذا أول طالب » . وكان هو أول من أجاب الدعوة الى المطالبة بدم عثمان

وكانت اسماء تزداد حيرتها ولاتفقه لهذا الامر سببا معقولا ، فالتفتت الى العجوز فراتها صامتة مطرقة وقد امتقع لونها وارتجفت شفتاها . فادركت ان فى الامر سرا لا تستطيع ان تبوح به

وأذنت الشمس بالمغيب فاشارت عائشة الى الناس أن ينصرفوا

فتفرقوا ، وخرجت هي الى منزلها واسماء فى أثرها وقد هالها ما رأته فى يومها من المدهشات

وجاء القوم الى منزل عائشة فى العشاء فاطعموا ، ولم تجرؤ العجوز ولا اسماء ان يجلسا معها تلك الليلة ، فباتتا واسماء تنتظر الغد لترى عائشة وتستطلعها الخبر اليقين ، فلما اقبل الصباح نهضت اسماء والعجوز . وقالت اسماء : « لقد ادهشنى أمر لم يبق لى صبر على السكوت عنه وليس لى من يفرج كربتى سواك »

قالت : « سلى ما تريدين ؟ »

قالت : « لقد سمعت من ام المؤمنين ما جهرت به فى شأن امير المؤمنين على بن ابى طالب . وهو كما تعلمين ابن عم الرسول ، وهى زوجه ، فما بالها تعمل عليه وكان أولى بها أن تكون معه ؟ »

ففهمت العجوز ، وجالت بعينيها ونهضت كأنها تقول : « لا يعنينى هذا ولا أريد البحث فيه » . وكانت ملامح وجهها تنم عن تكتمها ، فتوسلت اليها والحت عليها فقالت : « ان فى الامر سرا قل من يعرفه سواى ولكننى اخاف أن ابوح به »

فازدادت اسماء شوقا لسماع السر ، وجرت نفسها على البساط حتى التصقت بها وقالت : « بالله عليك فرجى كربتى بكلمة ، ولن أبوح بشىء مما تقولين »

فالتفتت العجوز يمنة ويسرة تحاذر أن يسمعها احد وأدنت شفتيها من اذن اسماء وهمت بالكلام ، ثم أجفلت بغتة وابتعدت عنها واصغت فاذا بوقع اقدام خفيفة ثم بقارع يقرع الباب وجارية تناديها ، فنهضت وفتحت الباب فدخلت جارية حبشية حيتها وقالت : « ان مولاتى ام المؤمنين تدعوكما اليها »

◻

فسرت اسماء لهذه الدعوة على أمل أن تتمكن من الاطلاع على شىء مما ترومه ودخلتا على عائشة فاذا هى جالسة على طنفسة من السجاد الثمين ، وقد خلعت الجلباب فبانت أثوابها الزاهية ، وبان معصماها وعنقها ، وعليها الدمالج والاساور والعقود مما زادها مهابة وجمالا . فلما دخلتا قبلتا يديها وجلستا على وسائد من الدمقس الملون بالقرب منها . فلبثت برهة لاتتكلم ثم وجهت خطابها الى العجوز وقالت : « كيف قتلوا عثمان ياخالة ؟ »

قالت : « دخلوا عليـه عنوة وقتلوه فى داره بعد ان احرقوا البـاب والسقيفة »

قالت : « ومن قتله وكيف كان ذلك ؟ »

فسكتت العجوز برهة ثم قالت : « لا اظننى استطيع وصف الحادثة كما تصفها اسماء فقد شهدتها بنفسها وكانت فى داره ساعة مقتله » . فالتفتت عائشة الى اسماء وقالت : « هل كنت فى الدارساعة القتل؟ » . قالت : « نعم يا مولاتى »

قالت : « وكيف كان ذلك ؟ » . فشق على اسماء ان تقص الواقعة كما جرت ، لأنها تمس محمدا ، ولكنها لم تر بدا من الجواب فقالت « يطول الحديث لو اردت بسطه ، ولكنى أوجزه فأقول : انهم استتابو، فتاب ، ثم رجع . ولقد نصح له على بأن يصم اذنيه عن سماع مشور، كاتبه وابن عمه مروان فلم يصغ ، وغاد الى ماكان عليه . وعلم الثائرون ذلك فطلبوا اليه أن يسلمهم مروان فيعودوا ، فلما أبى ، دخلوا منزله عنوة وقتلوه »

قالت : « ومن قتله ؟ » . قالت : « اثنـان لا اعرفهما ولكنهما من صعاليك العرب وليسا من الصحابة ولا من ابنائهم »

فتأوهت عائشة وحرقت اسنانها وقالت : « كيف يقوى الصعاليك على قتل الخليفة ، وكبار الصـحابة ينظرون لايدفعون عنه بسيف أو لسان ؟ »

فقالت اسماء : « انهم دافعوا عنه جهدهم ، ان عليـا ارسل ابنيـه الحسن والحسين الى الدار ، وكذلك فعل الصـحابة . رأيتهم هنـاك يدفعون الناس عن بابه حتى تلطخ وجه الحسن بالدم . ولكن عثمان رحمه الله منعهم »

فتبسمت عائشة ابتساما انكاريا ، وقالت : « أتصدقين انعليا أراد أن يدفع الناس عن عثمان فلم يستطع ؟ » . وسكتت . كأنها ضاقت ذرعا بالخوض فى تفاصيل الموضوع ، وكادت تهم باسـتئناف الحديث فابتدرتها قائلة : « اسمحى لى يامولاتى أن أؤدى شهادة لا أستحى أن أصرح بها امام الديان العظيم . أن عليا برىء من دم عثمان ، بل هوأول ناقم على هذه الفتنة ويراها مضعضعة الاسلام لا سمح الله »

قالت : « اراك يا بنيـة تنظرين الى ظواهر الامور دون بواطنهـا ، أيعقل ان عليا وهو صاحب الكلمة التى لاترد فى أهل المدينة قصد الى الدفاع عن عثمان وانه غلب على امره ؟ »

قالت : « عرفت يقينا انه أول غاضب على القائمين بهذه الفتنـة ؛ ولقد سمعته اتفاقا ذات ليلة وهو يناجى رسول الله عند قبره ، يشكو

اليه ما اصاب أمته من التشتت بعده ، فسمعت كلاما يتفتت له الصخر يتخلله البكاء حزنا على الاسلام . ان عليا يا مولاتى مخلص فى قوله و فعله ولا لوم عليه ، ولعلك ان وجهت اللوم الى القاتلين او المحرضين وجدت القول ذا سعة ، واما الى على فلا » . قالت ذلك وهى ما زالت تتهيب موقفها بين يدى أم المؤمنين ، فما اتمت كلامها حتى تصبب العرق من جبينها . فتحركت عائشة فى مجلسها و قالت وقد اخذ منهــا الغضب ماخــذا عظيما : « ان اولئك القتلة قد اقترفوا اثما عظيمــا واكثرهم لايشعرون ، وانما حرضهم على هذا المنكر شيوخهم ورؤساؤهم ، فانك تجهلين امورا أعلمها ولا اجهل شيئا تعلمينه » . وسكتت برهة وأسماء مطرقة وقد تحيرت كيف تجيب . فاستأنفت عائشة الحديث وقالت : « لقد وقع الى ان اخي محمــدا كان فى عداد المغرورين » . ثم خفضت صوتها وقالت وهى تلقى يدها على الوسادة لتتكىء عليها : « ولكنه غير ملوم »

فلما سمعت اسماء ذلك ثارت ثائرة حبها محمدا وهمت بأن تدرأ عنه التهمة وخشيت أن يؤدى بها الدفاع الى الكذب فلبثت صامتة، ونظرت الى العجوز فراتها ترتعش خوفا ورهبة ، وظل الجميــع برهة لا تفوه احداهن بكلمة حتى عادت عائشة الى الكلام فنظرت الى اسماء وقالت وهى تحاول اخفاء غضبها : « لا أنكر ان عثمان اخطــأ فى تصريفه أمور الخلافة ، ولكنه خطأ لايدعو الى القتل »

فأحبت اسماء أن تسمع راى عائشة فيما ارتكبه عثمان من الخطــأ فقالت : « هذا ما سمعته من أخيك محمد ، ولكنه يرى ان خطأه اعظم من ان يغتفر »

قالت وقد عادها غضبها : « ان محمدا لايعرف ما اعرفه ، ولو جاءنى الآن لجادلته واقنعته بضلاله » . ولم تكد تتم كلامها حتى دخلت احدى الجوارى تقول : « ان بعض الامراء بالبـاب » . فلما سمعت أسماء ذلك نظرت الى عائشة فراتها توقفت عن صرف الجارية فأدركت انها راغبة فى مقابلة القــادمين ، فنهضت واســتأذنت فى الانصراف الى حجرتها فأذنت لها ، فخرجت والعجوز فى اثرها وكلتاهما صــامتة تفكر فيما سمعته

□

واحســت اسماء عقب خروجها بقشعريرة شديدة فأوت الى الفراش والبرداء تعمل فى احشائها ، فتبعتها العجوز وجلست الى جانبها وجست يدها فاذا هى باردة كالثلج، فدثرتها واكثرت فى غطائها وهى تنتفض بردا .

فقلقت العجوز وسألتها عما بها فقالت : « أحس بارتخاء في أعضائي ورعدة في احشائي » . قالت ذلك واسنانها تصطك . فأرادت العجوز ان تخفف عنها فقالت لها : « لابأس عليك ، ان ما اصبت به من أثر التعب الذي قاسيناه في الطريق »

وظلت العجوز تخفف عنها حتى خفت البرداء واحمر وجهها احمرارا شديدا . فجسنها العجوز فاذا هي محمومة فخففت من دثارها ، وخرجت تستشير أهل الدار في علاجها . فأشارت عليها بعض النساء بعسل تشربه ممزوجا بالماء فجاءتها بقدح من مزيجه فلم تتناول منه شيئا . فتقدمت اليها وقبلتها وتوسلت اليها ان تشرب العسل فلم تجبها ، ثم ما لبثت أن رات دموعها تهمي وهي تحاول امساكها ، فألحت عليها أن تشرب فازدادت اسماء بكاء وشهيقا وقد احمرت عيناها وذبلت أجفانها واشتدت عليها الحمى اشتدادا عظيما

فحارت العجوز في أمرها وحدثتها نفسها أن تنبيء أم المؤمنين بما حدث فتذكرت اشتغالها بمن قدم اليها من الامراء . فلبثت بجانب الفراش تنظر الى اسماء ولا تتكلم

ثم سكنت اسماء وأغمضت عينيها كأن النعاس غلب عليها ففرحت العجوز لنومها فتركتها وخرجت لعلها تلقى من تستشيره في علاجها ، ولم تكد تخرج حتى سمعت اسماء تتكلم فظنتها تدعوها فأسرعت اليها فاذا هي تهذي وقد انكشف الغطاء عنها وانحسر درعها وقميصها عن صدرها وانكمشت اكمامها لفرط تقلبها . فهمت العجوز بأن تغطيها وتصلح أثوابها فخافت ان توقظها فدنت من الفراش لترفع الغطاء الى صدرها فرات الحجاب في عنقها ورسم الصليب على معصمها . فبغتت وتأملت في وجهها فراعها ان رات لمحة من غير ملامح العرب العرباء . وتفرست في رسم معصمها فاذا هو رسم الصليب وتحققت ان الحجاب من احجبة النصارى فاستغربت الامر . ثم تذكرت ان اسماء قلما كانت تبالي التحجب في حديثها مع محمد أو غيره . فقالت في نفسها : « لعلها كانت نصرانية وربيت بين النصارى في الشام »

وكانت اسماء ساكنة استغرقت في النوم ، وقد أطبق جفناها وتوردت وجنتاها واسرع تنفسها من الحمى ، فكانت تلهث وفمها مفتوح فأزاحت العجوز الغطاء الى صدرها خوف البرد ، فسمعتها تهذي فاصغت لهذيانها فاذا هي تقول : « أماه يا أماه يا مريم ، آه ياعلي يا ابا الحسن كيف ضاع السر ؟ تعال ياحبيبي يامحمد . لا . لا . اذا كنت قد قتلت عثمان فأبعد عني . لا . لا . بل تعال يامنيتي ورجائي. ان اسمك كان آخر ما نطقت به أمي . آه يا أماه . من هو أبي؟ اخبريني .

قولى . احى هو ام سبقك الى العالم الآخر ؟ » . ثم خفضت صـوتها وتلجلج لسانها فلم تعد تفهم العجوز شيئًا منه . ثم سكتت سكوتا تاما واستغرقت فى النوم ، فجلست العجوز بالقرب من الفراش وهى تهم بأن تجسها لتتحقق الحمى وخافت ان توقظها فعاذت بالصمت تفكر فيما سمعت منها وتعجب لجهلها اباها

وفيما هي فى ذلك اذ جاءتها جارية تسعى وتقول : « ان ام الفضل جاءتك زائرة »

فلما سمعت اسم ام الفضل تحفزت لملاقاتها وقد سرت بقدومها . وبعد هنيهة أقبلت أم الفضل تمشى لايسمع لمشيها صـوت وكانت فى نحو الستين من عمرها ، فهمت العجوز بها وحيتها وقبلتها ودخلت بها الى حجرة أسماء ودعتها للجلوس على البساط

فقالت أم الفضل وهى لم تنظر أسماء بعد: « انى اشم فى هذه الحجرة رائحة الحمى». والتفتت الى الفراش وقالت : « من هو المريض عندك؟ »

قالت : « لقد جئتنى فى ساعة حرجة فعسي أن تخففى عنى »

قالت : « انما جئت لأسألك عن قتل الخليفة رحمـه الله وما آل اليه الامر بعده ، فقد اهمنى أمره كثيرا ، وسمعت بقدومك فأسرعت اليك، فأخبرينى أولا من هذا المريض عندك ؟ »

قالت : « هى فتاة جئت بها من المدينة بايعاز من ابن أختك محمد بن أبى بكر ، لتقيم بضعة أيام عند أم المؤمنين حتى نرى ما يكون »

قالت : « وما شأن ابن أختى وشأنها »

فالتفتت العجوز الى فراش أسماء حذر أن تستيقظ فتسمعهـا ، ودنت من أم الفضل وهمست فى أذنها فقالت : « انه ينوى ان يعقـد قرانه بها »

وأرادت ام الفضل أن تسأل العجوز عن تفصيل مقتل عثمان ، فاذا بأسماء تتـأوه ، وأدارت رأسها نحوها وفتحت عينيهـا . فنهضت العجوز وجست يدها فاذا هى مبللة بالعرق وقد خفت الحمى قليـلا فقالت لها : « كيف أنت الآن يابنيتى ؟ »

فأشارت برأسها وعينيها انها فى راحة ، ثم رأت ام الفضل فاستحيت منها وهمت بالجلوس ، فنهضت أم الفضل اليها ودنت منها وهى تقول : « لا تزعجى نفسك يا ابنتى »

فتوسطتهما العجوز وقالت : « أظنك تستأنسين بلقاء أم الفضل لبابة خالة محمد بن ابى بكر أخت امه ، وازيدك علما بأنها أول من أسلم بعد خديجة ، وهى أيضـا زوج العباس عم النبى ، واخت ميـمونة زوج

النبى . ومن ولدها عبد الله بن العباس من خاصة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، بل هو ابن عمه وابن عم الرسول ، وأظنك رايته غير مرة فى مجلس على ، أو لعلك رأيتــه فى دار عثمان فقــد كان يتردد اليه وهو محاصر ، حتى انتدبه ليحج بالناس » . فلما سمعت أسماء ان أم الفضل خالة محمد استأنست بها ، ولما علمت انها زوج عم النبى وأم عبــد الله ابن العباس زاد احترامها لها ، فجلست وهى تمسح العرق عن جبينها . ورحبت بها فأسرعت أم الفضل وقبلتها وقالت : « أهلا وسهلا بك كيف فارقت محمدا ؟ »

فتعجبت أسماء لسؤالها عن محمد وهى لا تحسبها تعرف علاقتهــا به . فلما رأت العجوز استغرابهــا ضحكت وقالت : « لا تســتغربى يا أسماء فانها عالمة بكل شىء ولا يلبث المسك أن يضوع »

فأطرقت أسماء خجلا ولم تجب

فجلست أم الفضل الى جانب العجوز بالقرب من الفراش وقالت لها بصوت منخفض كأنها تحاذر أن يسمعها أحد : « هل اجتمعت بأم المؤمنين وكيف وجدتها ؟ »

قالت : « وجدتها ناقمة على قتلة عثمان ولا أدرى ماهى عازمة عليه »

قالت : «علمت أنها يوم وصولها الى مكة دعت الناس الى المطالبة بدم عثمان ، وكان اول من أجابها منهم عامل هذه المدينة »

قالت : « نعم ، وقد سمعت كلامها وكلامه ومعى أسماء . ولــكننى لا أظنها تقرن القول بالفعل »

فابتسمت أم الفضل استغرابا وقالت : « وما الذى حملك على هــذا الظن » . والتفتت الى أســماء فرأتها تلتحف وقد أحست بقشعريرة على أثر جلوسها . فأدنت أم الفضل فمها من أذن العجــوز وخفضت صوتها وقالت : « هل تجهلين ما فى نفسها على أمير المؤمنين ! »

فعضت العجوز شفتها وأشارت بعينيها كأنها لا تريد الخوض فى هذا الامر أمام أسماء وقالت : « اذن تظنينها مقدمة على الامر ؟ »

فتطاولت أم الفضل بعنقها نحو الباب حتى أطلت على الدار مخافة أن يسمعها أحد وقالت : « لابد لها من ذلك فان أهل مكة يد واحدة فى هذا الامر ، وفيهم بنو أمية الذين هربوا من المدينة ! وقد وفد الى أن الزبير وطلحة قادمان أيضا وكل منهما يريد الخلافة . وقد ســار قوم لاستنصار أهل البصرة ، وآخرون للــكوفة ، وغيرهم لتحريض أهل اليمن ، وآخرون الى الشام »

فابتدرتها العجوز قائلة : « أما أهل الشام فليسوا فى حاجة الى من يحرضهم ، وفيهم معاوية ابن عم عثمان ، وقد حملوا اليه قميص عثمان

الملطخ بالدم وأصابع نائلة ليهيجوا اهل الشام على القاتلين »

فتنهدت ام الفضل وتأوهت وقد عظم عليهـا ما تتخوفه من نفاقم الفتنة حتى تناثر الدمع من عينيها ؛ وسكتت

□

كانت اسماء تسمع حديث ام الفضل والعجوز وهي مضطربة لاتقوى على جواب ؛ فلما رات أم الفضل تبكى تذكرت بكاء على عند قبر النبى فى الليلة التى رات فيها محمدا لأول مرة . فانتقل ذهنها الى محمد وما يعترض آمالها فيه من أمر اتهامه بقتل عثمان . وكانت لما سمعت من قبل كلام عائشة انقلبت على محمد وكادت تتحقق ما سمعته لو لم يقم فى قلبها برهان حبه . . على انها لم تزل على رغبتها فى سماع دفاعه أو دفاع من يقول بقوله ويرى قتل عثمان . فلما رأت سعة علم أم الفضل وقد رافقت الاسلام فى كل أطواره ، كلمتها بصوت مختنق من تأثير الحمى فقالت : « ان فى نفسى شيئا لاصبر لى عليه » . قالت : « وما هو ؟ »

قالت : « لقد شهدت مقتل عثمان رحمه الله وسمعت دعوى النـاس عليه . ولكننى تحققت مما وقع من حوادث كثيرة انهم ظلموه وان الذنب ليس ذنبه ولـكنه ذنب مروان ابن عمه فقد كان يصرف شئونه كيف يشاء . لكن ابن أختك (تريد محمدا) يزعم انه يستوجب القتـل وقد جادلته فى الامر فوعد بأن يقنعني ويجيئنى بالبرهان »

فلما سمعت ام الفضل كلامها تنهدت وقالت : « وقعت على خبير . فانى أعرف عثمان قبل اسلامه ، واعرف ترجمته ما استتر منها وما ظهر ، وهى لا تخلو مما يهيج الاحزاب عليه ويبعث الضغائن ، وأظنـه لو وفق الى وزير أو مشير عاقل أو كاتب غير مروان لما بلغ الامر حده . واليك ما صنعه عثمان مما أثار الصحابة عليه :

« أولا ـ انك قد تعلمين ان الصحابة هم الذين قاموا بنصرة الاسلام وتأييد دعوته منذ ظهوره ؛ فهم أولى من سـواهم بولاية الامصـار وتولى الاعمال . وكانوا كذلك على عهد ابى بكر وعهد عمر بعده ؛ فلمـا تولى عثمان عزل الصحابة وولى آخرين من ذوى قرابتـه ؛ كما فعل بعمرو بن العاص فى ولاية مصر وهو الذى فتحها وغرس الاسـلام فيها فعزله وولى مكانه عبد الله بن ابى سرح ، أخاه من الرضاعة ، وقد كان عبد الله هذا فى جملة من ارتدوا بعد اسـلامهم ولحق بالمشركين فأهدر النبى دمه ، فأخذ له عثمان الامان بعد فتح مكة

« ثانيا ـ اسرف عثمان اسرافا شديدا فى بيت المال ، فكان يعطى منه اناسا من قرابته طردهم النبى (صلعم) . ولايغرنك ما يقال عن تقشفه وزهده فى طعامه

« ثالثا ـ أساء الى جماعة من اعلام الصحابة وذوى المكانة فى الاسلام ، منهم عبد الله بن مسعود ، وأبو ذر الغفارى، فنفاهم من أوطانهم وانتهك حرمة كعب بن عبدة البهرى وحرمة الاشتر النخعى فى امور يطول شرحها

« رابعا ـ اكثر من الضرائب على الاسواق ، وحمى سوق المدينة فى بعض ما يباع ويشرى ، فأمر الا يشترى منها احد النوى حتى يفرغ وكيله هو من شراء ما يحتاج اليه . وحمى البحر من أن تجرى فيه سفينة الا فى تجارته

« خامسا ـ اقطع اصحابه اقطاعات كثيرة من بلاد الاسلام مما لم يكن له فعله . وهناك اموراخرى نسبوها اليه كمخالفة الجماعة فى اتمام الصلاة بمنى ، وانفراده بأقوال شاذة ونحو ذلك. ولكن لأصحابه حججا يدفعون بها عنه وهى طويلة لو اردت ذكرها لطال بنا الكلام »

وكانت ام الفضل تتكلم بصوت منخفض ، واسماء تمد عنقها وكلها آذان مصغية فاطمان قلبها لأنها وجدت لمحمدعذرا وافق هواها ، كأنها القت عن ظهرها حملا ثقيلا . وكان الاعياء قد بلغ منها مبلغه فاستلقت ونامت ، وخرجت العجوز وأم الفضل الى بستان فيه نخلات متقاربة فجلسنا تتبادلان الحديث واسماء نائمة ، وام المؤمنين فى شاغل عنهما بمن عندها من الامراء

واخيرا قالت ام الفضل : « رحم الله عثمان ، وأيد عليا ، فانى لا أرى خيرا منه للقيام بأمر المسلمين لقرابته وعلمه وفضله وشجاعته وسبقه الى الاسلام ، على أن ابنى عبد الله (عبد الله بن عباس) يرى انه ضعيف الرأى ولكنه يؤثره على كل من سواه ، وقد رأينه فرحا بخلافته عندما لقيته بالامس »

قالت : « اولايزال هنا منذ ان جاء للحج ؟ »

قالت : « حينما حاصروا عثمان امره ان يحج بالناس ، فلما جاءه نبأ قتل عثمان وولاية على ، اسرع ليكون بين يديه »

وتذكرت العجوز حال اسماء فقالت : « ماذا ترين ان افعل بأسماء ومرضها ؟ » . قالت اظنها تشفى غدا ، اسقيها العسل »

فقالت : « سأحمل ام المؤمنين على أن تسقيها اياه »

وبينما هما فى الحديث رأتا الغلمان فى حركة وهم يهيئون الخيل ويعدون الجمال للركوب ، فعلمتا ان الامراء اوشكوا على الخروج من عند ام المؤمنين ، فنهضت أم الفضل وودعت العجوز وانصرفت

وسمعت العجوز جلبة ، ثم رات جماعة خارجين من الدار معظمهم من بني امية وعلي وجوههم سمات الظفر ، ولم تجد بينهم احدا تعرفه فانزوت حتى انصرفوا ، ودخلت حجرة اسماء وهى فى قلق لئلا تكون قد أفاقت فى اثناء غيابها ، فوجدت الحجرة مفتوحة وعند بابها خف عرفت انه خف ام المؤمنين فعلمت انها جاءت تتفقد أسماء فأسرعت فراتها واقفة عند رأس أسماء ، فأشارت أم المؤمنين اليها بأناملها وشفتيها أن تمشي الهوينى والا تخاف . فأبطأت فى خطاها حتى دنت من اسماء فوجدتها نائمة وقد كلل العرق جبينها فسألتها عائشة عن حالها فقالت : « انها شعرت بالبرداء عندما خرجنا من عندك ثم أصابتها الحمى »

قالت : « أسقيها العسل »

قالت : « جئت اليها بقدح منه فلم تشرب »

قالت : « الى به . انا أسقيها فانه فيه شفاء . والتفتت الى اسماء فراتها تحركت واخذت تمسح العرق عن وجهها بكفيها فدنت من فراشها ففتحت اسماء عينيها ولما رات ام المؤمنين اجفلت ونهضت وقد توردت وجنتاها . فقالت لها عائشة : « لاتزعجي نفسك يابنية » . وجست يدها فاذا هى لاتزال حارة وقد ذبلت عيناها واحمرتا من شدة الحمى

فقالت لها عائشة : « ألم تشربى العسل يا اسماء ؟ »

فقالت : « لا أشتهى طعاما يا مولاتى ولا حلواء »

قالت : « انما هو دواء فيه شفاء للناس وقد سمعت رسول الله يقول : (الشفاء فى ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار . وأنهى امتى عن الكى) . وكان يحب الحلواء والعسل) . » قالت ذلك ودفعت القدح الى اسماء فأخذته وشربته ، ولم يمض قليل حتى احست برطوبة حلقها . وأوصتها عائشة بأن تشرب شيئا من لبن الابل أيضا فأطاعت ، وبعد شرب اللبن انتعشت فجلست فى الفراش . ورجت من ام المؤمنين ان تمكث عندها لأنها استبشرت بها خيرا

فقالت عائشة : « بل أرى ان ننزل الى البستان بالعريش لأنى مللت الخباء وقد تزاحم الناس على اليوم » . فنهضن هن الثلاث ومشين حتى وصلن الى البستان وهو محاط بسور من سعف النخل وفى وسطه عريش مصنوع من الجريد يستظل به ، وقد نصبوا فيه مقاعد من الجريد والخشب ، فدخلنه وجلسن فيه وام المؤمنين صامتة

طلحة والزبير

لم يكد يستتب بهن الجلوس حتى سمعن جعجعة وصهيلا وجلبة ، فقطبت عائشة حاجبيها تطلعا لما يأتيها من أخبار القادمين وماعتم الخادم أن دخل فقالت : « ما وراءك ياغلام ؟ » . قال : « ان ركبا قادمين من المدينة وفيهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام يستأذنون » . فلما سمعت أسماء ذلك اجفلت وتحفزت للنهوض للعود الى البيت لتخلو أم المؤمنين بالقادمين

فقالت عائشة : « لا أرى مايدعو الى دخولك البيت الآن ، واذا رأيتما الا تحضرا مجلسنا فكونا وراء هذا العريش »

فنهضتا الى مقعد وراء العريش جلستا عليه ، وقد سرت أسماء ببقائها لعلمها أن طلحة والزبير قادمان من المدينة بعدها ، ولابد من خبر جديد جاءا به ، أو انهما جاءا فى أمر يهمها الاطلاع عليه لعلاقته بالامام على ، وهى تعلم انهما بايعا عليا مكرهين . فلبثت مستترة بجانب العريش وأصاخت بسمعها وهى تنظر من خلال الجريد الى من يدخل العريش

فأذنت عائشة لطلحة والزبير ، وأرخت نقابها ، فدخلا وهما ما زالا بثياب السفر وقد علاهما الغبار ، ومعهما رجال آخرون

دخل أولا طلحة بصدره العريض ولحيته البيضاء الكثيفة ، وكان قصيرا ، وقد ازداد وجهه احمرارا من طول السفر واثر الشمس . وكانت أسماء قد رأته غير مرة فى المدينة فلم تستغربه . ثم دخل الزبير وهو يمتاز عن طلحة بخفة عضله وقلة شعر لحيته

ودخل فى أثرهما ابناهما . فقالوا : « السلام عليك يا أم المؤمنين »

قالت : « وعليكم السلام يا أصحاب الرسول ونخبة المهاجرين وحماة الاسلام » . واذنت لهم بالجلوس فجلسوا مطرقين لاينظرون اليها اجلالا لحرمتها . فخاطبت طلحة والزبير قائلة : « من أين أتيتما ؟ »

فأجابها طلحة : « جئنا من المدينة »

قالت : « وكيف فارقتماها ؟ »

قال : « انا تحملنا هربا من غوغاء واعراب ، وفارقنا قوما حيارى

لايعرفون حقا ولا ينكرون باطلا ولا يمنعون انفسهم » . قال ذلك والغضب باد من خلال حديثه والزبير يهم بالكلام كأنه لم يكتف بما قاله طلحة

فقالت : « وكيف يقتل عثمان وانتم تنظرون ؟ »

قال الزبير : « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لقد دافعنا عنه بأولادنا وأنفسنا ، ولكن الغوغاء غلبتنا على أمرنا فلم نمنع قدرا واقعا »

قالت : « ثم بايعتم وأنتم راضون ؟ »

فقالا بصوت واحد : « لم نبايع الا والسيف على اعناقنا وما نحن براضين »

قالت : « انهضوا اذن الى الغوغاء واطلبوا دم ذلك المقتول »

قالا : « انما جئناك لذلك »

فقالت : « وقد جاءنا أيضا عبد الله بن عامر ابن خال عثمان وعامله على البصرة فانه لما سمع بقتله حمل ما فى بيت المال وجاء الينا ، وكذلك يعلى ابن منية جاء من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة الف درهم وقد اناخ فى الابطح وقد كانوا عندى اليوم »

ولم تتم كلامها حتى جاءها غلام ينبئها بقدوم ابن عامر وابن منيه فقالت ليدخلا . فدخل أولا ابن عامر وهو شاب فى الثلاثين من عمره وعليه جبة حمراء ، ثم دخل يعلى بن منية وهو يمشى عرجا وقد كسر فخذه فى طريقه من اليمن وكان قد سمع بقتل عثمان فجاء لينصره فسقط عن بعيره فى الطريق فانكسر فخذه ؛ فجاء برجاله وماله . فلما دخل ابن عامر وابن منية سلما على طلحة والزبير ، فقال طلحة لابن منية : « مالى اراك تمشى عرجا ؟ »

قال : « كسرت رجلى وانا قادم لنصرة عثمان ولكن معى المال والرجال قوموا بنا للأخذ بالثأر » .

فقال الزبير : « هلم بنا الى الشام »

فاعترضه ابن عامر قائلا : « مالنا وللشام وفيها معاوية وهو يكفيكموها ، ولكنى أرى أن تأتوا البصرة فان لى بها صنائع ، ولهم فى طلحة هوى ، وهم راغبون فى مبايعته » . فقالوا : « قبحك الله انك تريد الفتنة فلنسر الى البصرة » . فأجمع الرأى على أن يسيروا الى البصرة يدعون من بها للطلب بدم عثمان وينهضونهم كما أنهضوا أهل مكة

وكانت أسماء تسمع حديثهم من وراء العريش ، فلما علمت بما اجمعوا عليه ، عظم الامر عليها وتحققت ان الفتنة واقعة لاريب فيها ، فحز ذلك فى نفسها فاضطربت وخفق قلبها ، وثارت الحمية فى رأسها

حتى كادت تهم بالنهوض والدخول على الجمـــع . فادركت العجوز اضطرابها فأمسكت بيدها فاذا هي ترتعش ، فأخذت تهدىء من روعها خوفا عليها ، ولكن هذه قالت لها : « لاصبر لي على ما اسمع ، وهم انما يريدون الانتقــاض على الامام على ، بعــد ان رايتهم يعبني يبــايعونه ويقسمون على الطاعة »

وما لبثت ان سمعت صــوتا ارتعدت له جوارحها ، وكان صــوت مروان وقد اقبل ودخل العريش وقبل ان يلقى التحيــة خاطب طلحة والزبير ضاحكا يقول : « على ايكما أسلم بالامارة واؤذن للصلاة ؟ » . يلمح الى أن أحدهما سيكون أمير المؤمنين

فأجابه عبد الله بن الزبير : « على ابى » . فاعرضه محمد ابن طلحة وقال : « بل على أبى » . فضحك مروان وقال : « بل اجعلوا الخلافة فى ولد عثمان لأنكم انما خرجتم تطلبون بدمه » . فقال طلحــة : « كيف ندع شــيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنــائهم ؟ » . فأجاب وهو يتمتم : « لا اراني أسعى الا لاخراجها من بنى عبد مناف »

فابتــدرته أم المؤمنــين قائلة : « اتريد أن تفرق امرنا يا مروان . ؟ ليصل بالناس ابن اختى » . تعنى عبد الله بن الزبير

فلما سمعت اسماء كلام مروان لم تعد تستطيع صبرا ، ولا سيما بعد ان رات عائشة تنتهره . فنهضت واسرعت الى العريش واخترقت الجمع وهى ترتجف وقد امتقع لونها ، فلما رآها النــاس بهتوا ، وكان طلحة والزبير يعرفانها ، فوقفت غير هيابة ولا وجلة ونظرت الى مروان وقالت : « اما كفاك يا مروان ما ايقظت من الفتنة فى المدينة . ؟ اما كفى انك السبب فى مقتل الخليفة حتى جئت تلقى الشقاق بين بقية الصحابة ، والله لولا حرمة أم المؤمنين لأرقت دمك بين يديها . فلا أراك براجع عن غيك حتى تفنى المسلمين وتغرى بعضــهم ببعض » . والتفتت الى أم المؤمنين لترى ما يبدو منها

فلما سمع القوم كلامها ، لاذوا بالصــمت وهى ترتجف وتتجــلد ، فأجابها مروان وهو يضحك وقال : « تذكرين انى قتلت الخليفــة ، فى حين لم يقتله الا صاحبك محمد ربيب على ؛ وسوف يلقى كل منهمــا جزاء ماقدمت يداه »

فقالت : « لا تنطق باسم ابن ابى بكر شقيق ام المؤمنــين ؛ ولا تلفظ اسم ابن ابى طالب امير المؤمنين ، ووالله لو انه بيننا لتلعثم لسانك وما نجوت »

فهم مروان بأن يجيبها ؛ فأســكتته أم المؤمنين قائلة : « اتذكر اخى

محمدا يا مروان . اسكت . وانت يا أسماء خففي عنك وانت مريضة . اذهبي الى فراشك »

وكانت العجوز واقفه بجانبهــا فامسكتها وخرجت بها من العريش وهي تكاد تقع لفرط اضطرابها ، فلمــا خرجتا من البستان صاحت أسماء بالعجوز قائلة : « اخرجي بي من هنا اني لا أستطيع البقاء »

قالت : « والى اين يا ابنتي ؟ » . قالت : « الى يثرب »

قالت : « كيف نذهب ؟ وماذا نفعــل اذا افتقدتك أم المؤمنــين فلم تجدك ؟ »

قالت : « لا ادري ما العمل ، ولكنني لا أستطيع البقاء هنا ولابد لي من الذهاب الى المدينة » . قالت : « لا أستطيع الذهاب اليها الآن ؟ »

قالت : « اذهبي بي الى منــزل آخر غير هــذا المنــزل » . قالت : « اتذهبين الى ام الفضل »

قالت : « هيا بنا اليها » . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها غيظا . فسارت بها العجوز الى منزل ام الفضل، فلما دخلتاعليها رحبت بهما ، وقد استغربت مجيئهما ، رغم مرض اسماء

اما أســماء فلم تكد تصل الى المنزل حتى عاودتها الحمى واصــابها الدوار ، فهمت بالاستلقاء على المصطبة امام البيت ، ولــكن أم الفضل دعتها الى حجرتها فأبت وقالت وقد توردت وجنتاها من شدة الحمى « خذوني الى المدينة ، احملوني الى الامام على لأطلعه على مايكيدون . . انهم تواطــأوا على الطلب بدم عثمان . ولو طلبوه من قاتله لعذرناهم ، ولكنهم يريدون عليا وانا أعلم الناس ببراءته » . قالت ذلك وبكت

فعجبت ام الفضل لقولها ، وشق عليها أمرها وخافت عليها العاقبة وتاقت لسماع الخبر فقالت : « ما الذي حدث بعد مجيئي ؟ »

فقصت العجوز عليهــا ما جرى في العريش ، فأجفلت وصــاحت : « ويلاه لقد تقدمت الفتنة ، ليت عبد الله ابني هنا . اذن لحملته الخبر الى على فصــاحت اســماء : « دعوني اذهب بالخبر ، دعوني اسر الى الجهاد دفاعا عن المتهم زورا . ان عليا ياقوم بريء من دم عثمان فكيف يطلبونه منه ؟ »

فقالت أم الفضل : « دعي هذا الي ، فاني مرسلة رسولا الى على بكل ماوقع » . قالت ذلك ودعت خادما فجاءها برجل من جهينــة يدعى ظفر ، فاستأجرته على أن يحمل كتابها الى على بالخبر ، فركب الرجل هجينه وسار ، وأسماء تشيعه بنظرها وتود أن تكون على رحله

فلندعها ولنرجع الى المدينة لنرى ماذا جرى لمحمد

ودع محمد أسماء عند ركوبها الى مكة ، وعاد وفى نفسه شيء اقلقه لايدرى ماهو ، وكان قد خامره شيء من الخوف على أسماء أن تميل عنه الى الحسن بن على ، ولكنه كان يحبه كثيرا وقد ربيا معا فى حجر على . فقضى مسافة الطريق غارقا فى لجة الهواجس . ومما زاده قلقا ارساله اسماء على هذه الصورة وقد شغلته الغيرة قبل سفرها عن تقدير الامر حق قدره . فوقع فى حيرة لايدرى ما يجيب به الحسن اذا ساله عنها . وكيف يعتذر او ينتحل سببا لسفرها وشعر لساعته بوطاة الحب وشدة سلطانه ، فأجال نظره فى الطريق الذى سلكته اسماء وتلفت قلبه ، فحدثته نفسه أن يعرج على مكان يقضى فيه نهاره قبل الذهاب الى دار على مخافة أن ينم ظاهره عند لقاء الحسن عما فى باطنه . ولكنه لم يجد عذرا لتخلفه يومئذ والناس يتالبون جماعات ووحدانا من كل صوب ، ويؤمون منزل الامام على وهم بين آمل وخائف وناصر وناقم وقد علم محمد أن بعض الناس قد بايع عليا وهم يضمرون السوء

فقضى برهة تتقاذفه الهموم وهو يمشي فلم يشعر الا وهو بباب على ورأى الناس قد تكاثفوا حوله والخيل فى بستانه والجمال معقولة الى جذوع النخل والخدم والعبيد وقوف بينها . فذكر هول ما يشغل عليا وبنيه فى ذلك الحين من مهام الخلافة ، وأحب أن يشارك الحسن فى حمل بعض العبء الى أن تنتهى الازمة

فدخل الدار ومشى الى حيث تقيم امه وقد عزم على كشف سره لها لعلها تواسيه ، فدخل فرآها جالسة وحدها والهم باد على وجهها فهشت له فحياها ورأت فى وجهه انقباضا فابتدرته قائلة : « مالى أراك مشرد الذهن يا محمد ؟ »

قال يغالطها : « ليس فى نفسى شيء غير ما نحن فيه »

قالت : « اخائف انت على مصير هذه الخلافة ؟ »

قال : « لست بخائف ، ولكننى ارى المركب خشنا ، فان طلحة والزبير لم يبايعا الا كرها ، والكوفيون والبصريون على رأيهما ، فأخشى أن يدعوا الناس الى نقض البيعة »

قالت : « لاتخف فقد تم الامر لأبى الحسن وحوله نخبة من الصحابة يشدون ازره فاذا احسنوا الرأى استقام له الامر باذن الله »

قال : « لا تغرنك كثرتهم وفيهم من يضمر غير ما يظهر . . ليت عبد الله هنا (عبد الله بن عباس) فان له رأيا سديدا وهو ابن عم أمير المؤمنين »

قالت : « لعله لايزال فى مكة منذ أن ذهب بالحجيج اليها » . قال : « نعم »

قالت : « ولكن لنا فى المغيرة بن شعبة خير مشير ، وقد وقع الى انه

دخل على امير المؤمنين فى الصباح وما يزالان مختليين »

فقال : « ان المغيرة يا اماه من خيرة الصحابة أصحاب الراى والدهاء ، ولايخفى عليك انه أحد دهاة العرب الاربعة »

فقالت : « ومن هم الثلاثة الآخرون »

قال : « معاوية بن ابى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وزياد بن ابيه »

وما اتم محمد كلامه حتى سمع وقع اقدام عرف انها خطوات الحسن ، فبغت وقال : « هذا اخى الحسن ، فلعله يخبرنا بما دار بين الامام على والمغيرة »

قالت : « ادعه » . فخرج محمد ليدعوه فاذا هو قادم ، فابتدره محمد بالسلام ، فرد الحسن تحيته ولم يزد عليها . فخشى محمد أن يكون فى نفسه شيء ، فقال : « أهلا باخى ابن امير المؤمنين ، لقد كنا فى حديث الخلافه ، وترانا فى شوق لمعرفة مادار بين مولاى ابى الحسن والمغيرة »

فجلس الحسن على وسادة بالقرب من الباب ، وتشاغل باصلاح عمامته ولم ذيل ردائه ، وهز راسه ولم يجب

فازداد قلق محمد وظهر الاضطراب على وجهه فتقدم اليه والح عليه ان يطلعه على جلية الخبر وهو يحاذر ان يسمع منه لوما او عتابا مشأن اسماء ، فاذا به قد زفر زفرة وقال : « تسألنى عن المغيرة ان حديثه لذو شجون »

قال محمد : « وماذا عسى ان يكون ؟ » . قال : « ان المغيرة صاحب راى وحزم ، ولكن ابى لم يرض أن يعمل بما اشار به ، وقد سمعت ما قال واعجبنى رايه ولكن امير المؤمنين راى غير ما راه »

فقال محمد وقد اطمأن من ناحية اسماء : « وماهو الراى الذى رآه ؟ »

قال : « انت تعلم ان بعض الناس بايعونا على دخل (يريد طلحة والزبير) وان اخشى ما نخشاه ليس من أهل المدينة ولا من أهل مكة . وانما من عمال الامصار فى مصر والشام والكوفة والبصرة ، واشد هؤلاء دهاء واكثرهم عداوة معاوية بن أبى سفيان فى الشام ، وهو كما تعلم ابن عم عثمان ، وكذلك ابن عامر فى البصرة وهو ابن خال عثمان » . قال محمد : « نعم ، ولكن بماذا اشار المغيرة ؟ » . قال : « اشار على ابى بأن يبقى عمال عثمان هؤلاء على اعمالهم ليأمن ثورتهم ، ولنرى ما يكون بعد أن يستقيم لنا الامر ، فلما أصر ابى على رايه ، قال له : « اعزل من شئت واترك معاوية فان فيه جراة وهو فى أهل الشام ، ولك حجة فى اثباته ، وكان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام قبل عثمان » . فأقسم ابى لايستعملن معاوية يومين ، فخرج المغيرة ولم يزد حرفا »

فقال محمد : « اترى المغيرة مصيبا ؟ »

قال : « نعم انه راى الصواب لان سكوتنا عن معاوية ورفاقه يهدئهم حتى نرى ما تؤول اليه الحال »

فقالت أسماء ام محمد : « تمهل ريثما يأتى ابن اخى عبدالله بن عباس من مكة فان الامام يقدر رايه حق قدره »

قال الحسن : « لا اظن ابى يلين فقد آنست منه اصرارا شديدا ، فلنصبر عسى أن يحدث ابن عباس أمرا » . قال ذلك وسكت هنيهة يفكر ثم انبسطت اسرته فجاة كأنه تذكر امرا سره وتبسم وقال : « ان شؤون الخلافة شغلتنى عن امر آخر كنت قد ذكرته لك تلميحا ، وكنت قد عزمت على ذكره لأبى اليوم فامسكنى عن ذلك اشتغاله بالمغيرة وحديثه »

فأدرك محمد انه يريد خطبة اسماء . فكادت البغتة أن تظهر على وجهه ولكنه تجلد وقال : « وماذا عسى أن يكون ذلك الامر ؟ »

قال : « لا اظنك تجهل ما فى نفسى نحو اسماء ، تلك الفتاة الاموية التى نزلت ضيفة علينا » . ثم حول وجهه الى ام محمد وقال : « انها ياخالتى بارعة الجمال وفى وجهها مهابة يندر مثلها فى النساء »

فارتبك محمد فى أمره ولم يدر بماذا يجيب ، ولكنه تجلد وقال : « لماذا لم تبد رغبتك قبل سفرها ؟ » . فبغت الحسن وقال : « أين سافرت ؟ » . قال : « الى مكة فى صباح هذا اليوم »

قال : « وكيف ذلك ، وما الذى حملها على السفر ، ومن سافر بها وهى وحيدة ؟ »

قال : « سافرت مع عجوز من قرابتى ورجل من بنى الليث من اخوال أختى أم المؤمنين »

فقطب الحسن وجهه وقال : « وما الذى حملها على السفر ؟ »

قال : « سمعتها تذكر انها تؤثر البعد عن المدينة فى اثناء هذا الاضطراب ، وطالما ارادت التعرف الى أم المؤمنين فأظنها ذهبت لتقضى عندها بضعة أيام ثم تعود »

فاطرق الحسن يفكر ، ثم قال : « لابأس من ذهابها الآن وسأنتهز فرصة يخلو فيها وجه ابى فاطلب منه ان يخطبها لى ، فاذا لم تكن قد عادت نبعث فى استقدامها » . قال ذلك وخرج

فبغت محمد وامتقع لونه ولحظت امه ذلك فيه فقالت : « لقد اهمك حديث الحسن ؟ » . فتنهد ولم يجب

فقالت : « مالك لا تجيب ؟ » . فتردد بين ان يكشف لها سره وبين

ان يظل على كتمانه ، ولكنه لم يعد يستطيع صبرا فقال : « لقد أهمني الامر اكثر مما تظنين بكثير »

قالت : « ولماذا ؟ » . قال : « ان الفتاة التى أشار اليها الحسن مخطوبة » . قالت : « ولمن ؟ »

قال : « لى » . قالت : « ماذا تقول ؟ » . قال : « هذا هوالصدق »

قالت : « وكيف يطلبها هو لنفسه ؟ » . قال : « لأنه لايدرى من الامر شيئا »

قالت : « ولماذا لم تطلعنى على هذا من قبل ؟ »

قال : « كنت قد عزمت على ذلك وجئت بها اليك فلم أجدك »

قالت : « وما العمل الآن ؟ » . قال : « لا ادرى وساصبر » . ق ذلك وحرق أسنانه

قالت : « اتغضب أخاك الحسن من أجلها ؟ » . قال : « معاذ فانت تعلمين حبى له ، ولكننى ساری ما يأتى به القدر » . ثر وقد اخذ القلق منه ماخذا عظيما



عبد الله بن عباس

مرت أيام والحسن يترقب فرصة يخاطب فيها اباه فى شـأن اسماء فلم يتسن له ذلك لاشتغالهم جيعا فى ايفاد العمـال وتقلب الاحوال .
فان الامام عليا لم يهدأ له بال منذ ولي الخلافة. وكان اكثر عمال الامصار ناقمين عليه ، ولعله لو اطاع المغيرة لخفف شيئا من نقمتهم ، ولكنه اصر على أن يستبدل بهم عمالا من رجاله وموضع ثقته

وكان الحسن متهيبا مفاتحة ابيه فى امر الخطبـة لئلا يخيل اليه انه نل بالحب عن الخـلافة فبدا له ان ينتظر مجيء عبد الله بن عبـاس طه فى الامر لما يعلم من دالته على أبيه . وذكر ذلك لمحمد بن ابى م يجبه ولكنه قلق واشتدت غيرته . فلما سمع محمد بمجيء عبد عباس أراد أن يشغله بحديث الخـلافة عن السعى فى الخطبـة ، أليه قبـل أن يعلم الحسن بمجيئه وانبـاه بما كان من حديث بن شعبة ، وما أشار به على الامام على ، الى ان قال : « قد كنا ار مجيئك لعلك تثنى الامام عن عزمه ، فقد أصر على خلع عمال ، وهم ناقمون ولهم انصار ، ومن بينهم معاوية »

ال عبد الله : « أصاب المغيرة والله ونعم الراى رايه »

ل محمد : « وهذا مانراه نحن جيما فما العمل ؟ »

ال : « ها أنذا ذاهب اليه الساعة » . قال ذلك ونهض وقد اهمـه امر كثيرا لغيرته على الاسلام ولقرابته من الرسول ومن على

وكان ابن عبـاس يناهز الاربعين من العمر ، جيـل الوجه ، ابيض اللون مشربا صفرة ، جسيما فصيح اللسان. وكان أعلم الناس بالحديث والشعر وكلام العرب ، سديد الرأى ، عالما بتفسير القرآن وبكل علم من علوم تلك الايام ، لم يدرك أحد من أهل زمانه ما ادركه . فلمـا سمع كلام محمد اسرع الى عمامته وجبته وهرع الى منزل الامام على ومحمد يتبعه

ولما وصلا الى الدار رأيا المغيرة بن شعبة واقفا بباب حجرة الامام على يشد نعاله فادركا انه كان عنده . فقال عبـد الله لمحمد : « اتراه جاءه ثانية ام لعلها الزيارة التى ذكرت ؟ »

قال : « هذه غيرها ولا ادرى ما جاء به »

وبينما هما فى ذلك ، مر بهما الحسن فلما رأى عبد الله بغت ووقف وسلم عليه ودعاه الى حجرته وهو يريد أن يذكر له امر الخطبة ، فرآه فى شاغل آخر وقد أسرع الى حجرة على ، فدخل معه ومحمد فى أثرهما

فلما اقبل عبد الله على الامام حياه بتحية الخلافة قائلا : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » . وكانت أول مرة رآه فيها بعد خلافته . وكان على جاثيا وبين يديه مصحف فلما سمع تحية عبد الله أحسن ردها ورحب به وقال : « وعليك السلام يا ابن عم الرسول » . قال ذلك والانقباض ظاهر على وجهه كأنه كان فى جدال عنيف . فمشى عبد الله حتى جلس بجانبه ، وجلس الحسن ومحمد فى بعض جوانب الحجرة

فلما استقر بهم المقام قال ابن عباس : « رايت المغيرة خارجا من عندك وعهدى به ذو دهاء وسداد راى فهل أحدث حدثا ؟ »

قال على : « والله لقد اخلف ظنى فقد اشار على منذ أيام بأن أقر معاوية وسائر عمال عثمان على اعمالهم . وانهم هم الذين بعثوها فتنة اودت بعثمان وأخذوا يؤلبون الناس علينا . فخالفته فيما ذهب اليه . وابيت الا عزلهم ، فتقدم الى بأن أبقى معاوية على الشام ، فأقسمت لا استعملنه يومين فخرج وهو يرى أن ستبدى الايام صحة ما رآه . ثم عاد اليوم فقال : (انى اشرت عليك أول مرة بالذى أشرت وخالفتنى فيه ، ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذى رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به ، فقد كفى الله وهم اهون شوكة مماكان) . فحمدت له رجوعه الى الصواب »

قال ابن عباس : « يا ابن عم ، اترى المغيرة قد صدقك اليوم ؟ . اما أنا فما اظنه والله الا قدنصحك فى الاولى وخدعك فى الثانية . انمعاوية واصحابه اهل دنيا . فمتى تثبتهم لايبالون من ولى هذا الامر ، ومتى تعزلهم يقولون اخذ هذا الامر بغير شورى عثمان . ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام واهل العراق . وانى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك . ولهذا أشير بأن تثبت معاوية فاذا بايع فعلى ان أقلعه من منزله » . وكان ابن عباس يتكلم وعلى مطرق مقطب الوجه ، وقد اقلقه الامر كثيرا . واما الحسن ومحمد فكانا يسمعان كلام ابن عباس ويودان لو يقتنع الامام فيقر معاوية تجنبا للحرب . فلما فرغ ابن عباس من كلامه لبثا ينتظران مايقولهعلى فاذا هولايزالمطرقا عابسا ، والسكوت

بسود الحجرة ولايتبس احد ببنت شفة . ثم رفع علي راسه ونظر الى ابن عباس ويده على سيفه وقال : « والله لا اعطيه الا السيف » . ثم رد يده الى لحيته وقال :

« وما ميتة ان متها غير عاجز بعار اذا ما غالت النفس غولها »

فلما سمع ابن عباس قوله ورأى ما بدا على وجهه من امارات الغضب ، شق عليه الامر كأنه راى بأم راسه المركب الخشن الذي هم على بركوبه وما يتوقعه من سوء العقبى وكانت له دالة ووجاهة عنده فقال له : « انت رجل شجاع لست صاحب سياسة ولاراى فى الحرب . اما سمعت رسول الله (ص) يقول : (الحرب خدعة ؟) . أما والله لئن أطعتني لأصدرنهم بعد ورد ، ولأتركنهم ينظرون فى دبر الامور لايعرفون ماكان وجهها فى غير نقصان عليك ولا اثم لك» . وما فرغ من كلامه حتى اندى العرق جبينه حياء وغيرة ، ولكنه لم يكد يفرغ حتى ابتدره علي قائلا : « يا ابن عباس ، لست من هناتك ولا من هنات معاوية فى شيء »

قال ابن عباس : « اطعني واغلق بابك عليك فان العرب تجول جوله وتضطرب ولا تجد غيرك . فانك والله ان نهضت مع هؤلاء القوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا »

وكان ابن عباس يتكلم ولا تلوح على حركاته اسارة الرضى . فلما فرغ من كلامه قال له علي : « تشير علي وأرى فاذا عصيتك فأطعني »

فقال ابن عباس : « افعل . ان ايسر مالك عندي الطاعه »

فقال علي « سر الى الشام فقد وليتكها »

قال ابن عباس : « ما هذا برأي فان معاوية رجل من بني أميه ، وهو ابن عم عثمان وعامله . ولست آمن ان يضرب عنقي بقتله لعثمان ، وان ادنى ما هو صانع ان يحبسني فيتحكم علي لقرابتي منك ، وان كل ماحمل عليك حمل علي ، ولكن اكتب الى معاوية فمنه وعده » . فقطع علي كلامه قائلا : « لا والله لا كان هذا ابدا »

فسكت ابن عباس ولبث برهة ثم استأذن وخرج . وخرج فى أثره الحسن ومحمد وكأن على رؤوسهم الطير . اما علي فأمر فى انفاذ عماله الى الامصار ، فبعث عثمان بن شهاب الى الكوفه ، وعبيد الله بن عباس (اخا عبد الله) على اليمن ، وقيسا بن سعد الى مصر ، وسهلا بن حنيف الى الشام

الفتنة والحرب

وقضى علي في ذلك اياما لايخلو مجلسه من الامراء يخوضون في شئون الخلافة ، فلم ير الحسن سبيلا الى مفاتحته في شان أسماء ، وكان هو نفسه في شاغل بتلك الشئون. فلما فرغ علي من تنصيب العمال، وقل ورود الناس على بابه ، رأى الحسن آن يخاطبه في الامر ، وكان يطلع محمدا على ماينويه وهو لايعلم ما في نفسه من امر اسماء ، وكان محمد اذا خاطبه الحسن في هذا حدثته نفسه آن يطلعه على مايكنه لها في قلبه ثم يمسك . فقضى اياما لايدرى ما يعمل ، وكان اذا ذكر له الحسن انه عزم على مخاطبة ابيه في الامر سكت او نقل الحديث الى شيء آخر ، فلقى الحسن محمدا ذات يوم قاصدا الى المسجد وقال له : « أرى امير المؤمنين قد فرغ من ارسال العمال الى الامصار ولا ارى امير المؤمنين اصلح من هذه الساعة لأكلمه في شأن اسماء ، فارجو منك ان تكون عونا لي في هذا »

فحار محمد في امره لايدرى بم يجيبه فقد كان يتنازعه عاملان : حب اسماء ، وصداقة الحسن . فلبث لايبدي ولايعيد ثم حانت منه التفاتة الى ما بعد من سور المدينة فأخذ يحدق كأنه يرى شبحا قادما لم يتبينه ، ونظر الحسن ليرى هدف محمد في تحديقه فتراءى له هجان مقبل من بعيد

قال محمد : « كاني به رسول » . فقال : « ممن يكون يا ترى ؟ »

قال محمد وقد سر لتبديل الحديث : « اني والله ما رأيت رسولا مقبلا الا تشاءمت خيفة ان يأتينا بما يسوء »

فقال الحسن : « ومن اين ترى الرسول قادما ؟ »

قال : « يظهر لي انه من الشام فلعله رسول معاوية »

قال الحسن : « هيا نستقبله وسنرى ما هناك »

قال محمد : « هلم بنا فانه ان كان رسول معاوية فما جاء الا لحرب لا سلم ، لان امير المؤمنين كتب اليه منذ ثلاثة أشهر ولم يجب بعد » . ثم انطلقا ، وكان الرسول قد دخل باب المدينة ، فلما دنا منهما تفرسا فاذا هو رجل من بني عبس وعليه قيافة اهل الشام وقد التف بالعباءة

وتلثم وعلاه غبار السفر ، فلما دخل المدينة اخرج من جيبه صحيفة مختومة قبض عليها من اسفلها ورفعها والناس وراءه ينظرون اليها فاستوقفه محمد وقال له : « ممن انت ؟ »

قال الرسول : « من معاوية بن ابى سفيان » . قال : « الى من ؟ » قال : « الى على ابن ابى طالب »

قال الحسن : « وماذا تحمل اليه ؟ » . قال : «هذا الكتاب» . فقال : « اذهب الى امير المؤمنين انه فى داره » . فانطلق الرسول وهما فى اثره وقد شغلا بما عسى أن يكون فى ذلك الكتاب ، ولولا حرمة امير المؤمنين لفضا الختم تلهفا على علم ما فيه

ووصل الرسول الى دار على ، فترجل واشتغل بعقل جمله ، فسبقه محمد والحسن الى الخليفة وكان متكئا فى حجرته فأعلماه بقدوم الرسول فأمر بادخاله اليه

فدخل وعلى جالس ، ومحمد والحسن وغيرهما من الصحابة بين يديه ، فتقدم الرسول فى غير تهيب ورفع الكتاب بيده ، فهم بعض الحاضرين بأن يتناوله منه ، ولكنه ابى أن يسلمه لغير الامام على

فمد على يده وتناول الكتاب ، فقرأ على ظاهره : « من معاوية الى على» . ثم فضه والناس كأن على رؤوسهم الطير ، فلم يجد فيه شيئا فبغت وغضب ، والتفت الى الرسول وقال : « ما وراءك ؟ » . قال : « آمن أنا ؟ »

قال : « نعم ان الرسول آمن» . قال : « تركت ورائى قوما لايرضون الا بالقود » . قال على : « ممن ؟ »

قال : « من خيط رقبتك . وتركت ورائى ستين الف شيخ ، يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد جعلوه على منبر دمشق »

فنظر على اليه وقال : « امنى يطلبون دم عثمان . اللهم انى ابرأ اليك من دم عثمان ، قد نجا والله قتلة عثمان الا من يشاء الله » . قال ذلك وادار وجهه عن الرسول كانه لم يعد يستطيع أن يراه وأشار اليه أن يخرج

قال : « اأخرج وانا آمن » . قال : « وانت آمن » . فمشى الرجل يريد الخروج فاعترضه بعض رجال على وهموا بقتله ، فصاح فيهم على ومنعهم ، فنجا العبسى وهو لايكاد يصدق

واشار الامام الى الناس فخرجوا ، وخلا الى خاصته وفيهم اولاده ومحمد ابن ابى بكر ، وبعث الى عبد الله بن عباس ، وقال لهم : « قد سمعتم ما قاله معاوية فلم يبق ثمة بد من القتال فتهيأوا » . فقالوا

بصوت واحد : « انا معك أنى سرت، وما تنتدبنا اليه فانا طوع أمرك» .
فجند جندا عقد لواءه لابنه محمد بن الحنفية ، وجعل على ميمنته عبد الله بن عباس وعلى ميسرته عمرو بن سلمة . وتثاقل اهل المدينـــة فى باديء الامر ولكنهم أطاعوا اخيرا

وقضى على اياما يعد الجيش ويجند الجند ، ومحمد والحسن فى مقدمة العاملين معه . ولكنه لم ينتدب محمدا للقتال فصغرت نفســـه فى عينه لعلمه انه اولى بالمسير الى الحرب ، وكان يذكراسماء قيود لو يبقى ليعلم مايؤول اليه امرها ، ثم ترجع اليه حماسته ليقوم على خدمة على ويحمل معه عبء القتال

ذهب محمد بن ابى بكر الى على ، فرآه وحده فى غرفته ، ورأى فى يده رقعة يقرؤها ويعيد تلاوتها ، وقد اخذ القلق منه ماخذا عظيما . فتهيب الدخول عليه وظل واقفا عند الباب مترددا فلمحه على فناداه فدخل وحيى ، فرد على التحية وهو مقطب الوجه فلم يجرؤ محمد ان يبداه بالـكلام وتربص عساه أن يسمع منه خبرا جديدا . وظل على يذرع الحجرة حتى وقف الى نافذة من نوافذها واجال نظره فى الأفق وهو غارق فى بحار التفكير ، ثم تحول الى محمد بغتـــة وقال : « اين الحسن ؟ »

قال : « لعله فى المسجد فهل من امر أقوم به ؟ »

قال : « سأطلعك على ما حدث عما قليل . وبماذا جئت انت ، انى ارى فى وجهك خبرا ؟ »

قال : « انما جئت التمس من ابى الحسن ان يساوينى باهل الثقة من رجاله »

قال : « وماذا تعنى ؟ »

قال : « أعنى انك استنفرت الناس ، وأمرت من أمرت للجهاد ، وتركتنى وانا اولى منهم به »

فتبسم الامام على تبسما يشوبه قلق وقال : « بورك فيك يا ابن اول الخلفاء ، لأنت عندى بمنزلة ولدى ولكننى امرت سميك محمدا ابن الحنفية فى هذه الحملة واستبقيتك انت لأخرى »

قال : «انى طوع بنانك ، وأرانى مكلفا بعبء هذه الحرب قبل سواى»
قال : « لا تستعجل الأمر يا بنى ، فلن تعدم طريقا تسير فيه الى حرب أخرى ، فقد كثرت اليها الطرق »

فلمح محمد من وراءذلك امرا مكتوما فقال : « وماذا يعنى مولاى بالحرب الأخرى وهل حدث ما يدعو الى حرب ؟ »

فالقى على الرقعة اليه وقال : « اقرأ هذه فقد اتتنى الآن بالخبر اليقين »

فتناولها محمد ونظر فيها فاذا هي كتاب أم الفضل من مكة تنبىء الامام عليا باجتماع طلحة والزبير وأم المؤمنين على الطلب بدم عثمان وانهم تهيأوا للمسير الى البصرة

فبغت محمد وتلا الرقعة مثنى وثلاث . وتحول على الى مصحف على منضدة أمامه فتناوله وجعل يقلب صفحاته

وهم محمد أن يتكلم فرآه يقلب صفحات القرآن فلبث صامتا ، وقد هاله ما احاط بهذا الخليفة من البلاء وتذكر اخته وأسماء عندها

ورفع على رأسه ونظر الى محمد وقال له : « أرأيت ما فعلت بـا اختك ؟ »

فقال محمد : « اني أعجب من عملها ولا أكاد أصدق انها تقدم على هذا . فما الذى حملهم جميعا على الانتقاض ؟ »

قال على : « اتسألنى يا محمد عن السبب وقد أنبأتكم بهذه الاحداث قبل وقوعها . كم قلت لكم : دعوا عثمان وشأنه لا تقتلوه لأن قتله سيؤدى الى الفتنة ، لطمع بعضهم فى الخلافة ، فلو ظل عثمان حيا لم تكن ثمة ما يبعث على هـذه الحروب ، وقد بايعونى وأنا أعلم أنهم يضمرون غير ما يظهرون ، فان طلحة والزبير يريدها كل منهما لنفسه دون سواه ، فهما فى انقسام عليها . وسترى اذا كتب لهما النصر أن الحرب ستقوم بينهما حتى يفنى احدهما الآخر ويقتل الألوف من المسلمين ، ولو تيقنت ان خلعى من الخلافة يخمد الفتنة لتنازلت عنها اليوم . ولكنها تصبح بعدى فوضى كل منهم يتطلبها لنفسه . ناهيك بمعاوية فى الشام وما يجول فى خاطره من الطمع فيها ، ولا يغرنك ما يدعيه من الثأر لدم عثمان ، لانه لو أهمه لنصره قبل أن يقتل . ولكنه اتخذها ذريعة الى التماس الخلافة لنفسه ، على علمه انى أولى الناس بها . فالغيرة على الاسلام تدعونى الى الدفاع عن خلافتى لعلهم يجمعون على بيعتى فترقد الفتنة . وأما خروجها من يدى طوعا أو كرها فانه يدعو الى فتنـة عظمى اخشى ان تقضى على الاسلام والعياذ بالله »

وكان يتكلم والعرق يقطر من جبينه وخديه على لحيتـه ، وقد احمرت عيناه واغرورقتا بالدمع . وتجلت فى وجهه ملامح تشف عما قام فى نفسه من الغيرة على الاســلام ، فازداد مهـابة حتى لم يعـد محمد يستطيع النظر اليه تهيبا من غضبه وخجلا من نفسه لانه كان فى جملة الذين رأوا قتل عثمان ، فارتج عليه ولبث صامتا

وكأنه اراد ان يعتذر لأخته فقال : « يلوح لي يا مولاي ان اختي لم تقم للأمر الا بتحريض طلحة والزبير ، وقد خرجا من المدينة غاضبين واني لأرجو ان لقيتها أن احولها عن عزمها . ولكنني لم ار وجه الحكمة في مسيرهم الى البصرة دون سواها »

قال : « اظنهم راوا اهل المدينة بايعوني فاستنهضوا اهل مكة على نقض البيعة وساروا يفعلون مثل ذلك في البصرة والكوفة »

قال محمد : « وهل سالت الرسول عن تفصيل الأمر ؟ »

قال : « لم اساله الا قليلا »

فقال : « أتأذن لي ان استقصي منه ؟ »

قال : « لا اراه يعلم شيئا كثيرا ، وارى ان تسير الى مكة لتستطلع سر الأمر بنفسك ، وانت اجدر الناس بذلك وأختك ام المؤمنين في حملة القائمين به »

فسر محمد بهذه المهمة سرورا عظيما لأنه يخدم بها الاسلام ويرضي الامام ويستطلع حال اسماء

فأجاب قائلا : « لبيك يا مولاي وعلى خيرة الله وارجو ان احول اختي عن عزمها فقد يكون طلحة والزبير هما اللذان حرضاها عليه . وهل اكتم مسيري ؟ »

قال : « لا أرى أن يعلم به أحد »

قال : « هل تأذن لي أن أرى الرسول الذي حمل الكتاب اليك لأساله شيئا ؟ »

قال : « انه في دار الأضياف »

فخرج محمد وسار الى دار الأضياف ، فلقي الرسول فعرفه فسأله عن عجوزه هل لقيها في مكة ؟ فأجاب بأنه رآها يوم سفره عند أم الفضل ومعها فتاة مريضة

فقال محمد : « وهل تعرف الفتاة ؟ »

قال : « لا اعرفها فانها غريبة الدار ولكنني علمت انها جاءت مع العجوز عند ام المؤمنين ، ثم انتقلت الى بيت ام الفضل ورايتها تشكو من حمى شديدة »

فأحس محمد بنار تلك الحمى في احشائه وخاف ان تكون اسماء قد اصيبت بسوء ، فأصبح يدفعه الى الاسراع في الرحيل دافعان : خدمة امير المؤمنين ، والبحث عن أسماء

فودع عليا وخرج لساعته وركب هجينا واصطحب خادما من السبئية وركب قاصدا الى مكة يود لو يطير اليها على اجنحة النسيم . فبات ليلته فى قباء ، فتذكر اول مرة رأى فيها اسماء تندب امها ، واصبح قبل الفجر على هجينه يطوى السهل والوعر وهو لا يصدق انه يصل الى مكة ويرى اسماء على قيد الحياة

وكان كلما اقترب من مكة تعاظم الأمر لديه ، وثارت فيه الحمية الاسلامية والغيرة على الامام علي ، وهان عليه أمر الحب وعوامله . فلم يخل باله من هذه الهواجس لحظة ، وتذكر نصح اسماء وما تنبأت به من عواقب الفتنة ، وكم اشارت على الناس بالكف عن عثمان منادية ببراءة ساحته ، فعظمت فى عينيه وازداد اعجابا بتعقلها ودقة نظرها ، وأيقن انهم لو انصاعوا الى رأيها لكانوا تجنبوا هذه الحروب

قضى طريقه كله فى مثل هذه الخواطر ، وكان يستحث جمله لا يلتفت يمنة ولا يسرة مخافة ان يضيع عليه الوقت ، فأمسى وهو على بضعة أميال من مكة فشق عليه المبيت خارجها وصمم على مواصلة السير حتى يدخلها ولو ليلا . فأشار عليه خادمه أن يستريح هنيهة ويريح الجمل ريثما يطلع القمر فيسيران على نوره فاستحسن الرأى ونزلا بمكان رأيا فيه بيتا عند بابه شيخ توسد حصيرا من سعف النخل وامامه جرار وأكواب من الخشب يسقى بها من يستسقيه فى تلك الصحراء

فسلم على الشيخ وحياه ، فرحب به ونادى ابنة له وعيالا ليقدموا لضيفهم مايحتاج اليه من الماء أو العلف للجمال . فصعد محمد الى رابية خلا فيها الى نفسه وقد غابت الشمس فأجال نظره الى مغيبها فى الافق وكان الجو صافيا وقد ظهر الشفق بالوانه من خلال اغصان الأشجار المبعثرة على الآكام . وكان الجو قد هدأ فلم يعد النسيم يهب الا عليلا واوت الطيور الى أعشاشها الا الخفاش فانه خرج يطير . فاتكأ محمد على بساط فرشه له خادمه وعيناه شاخصتان الى الافق

يراقب تلونه ، فما زالت الوانه تتحول من الزهو الى الكمود حتى خيم الظلام ، فأوقد الشيخ نارا يهتدى بها المارة الى ذلك المستقى . وظل محمد غارقا فى هواجسه حتى غلب وجدانه فنبهه ضب مر عند قدميه فوقف وقد لفت نظره من الافق اشباح تتراءى بينه وبين السماء فتفرس فيها فاذا هى بضعة جمال على احدها هودج وعلى سائرها اناس قد حجب البعد هيئتهم ، وأسرعوا فى المسير فخيل اليه انهم خارجون من مكة يريدون المدينة . فلما تواروا عن بصره ولم ير احدا فى اثرهم علم انهم ليسوا من الطلائع . ولكنه عجب من خروجهم

من مكة فى ذلك الليل واسراعهم بالسير فى غير الطريق العام كأنهم سائرون خلسة ، وتمنى أن يعلم أمرهم . ولكن الظلام حجبهم عنه فعاد الى هواجسه

ولم تمض هنيهة حتى طلع القمر من وراء تلك الأكمة كأنه رقيب أطل للكشف عن لصوص فى الظلام فلما رأوا وجهه بادروا الى الفرار الا من كان منهم قريبا ولم يستطع فرارا فاختبأ وراء التلال وفى اعماق الأودية ثم لحق برفاقه وتلاشى . وكان القمر ساعتئذ دون البدر ، وقد ابيض وجهه وسطع نوره فحرك ما فى نفس محمد من الشجون فنادى خادمه فهيأ الهجن وودع الشيخ وركب قاصدا الى مكة

□

ولم يسر ساعة حتى أشرف على مكة وهى فى منبسط من الارض تحدق بها جبال من كل ناحية ، فصعد الى أكمة وأطل منها على ضوء القمر ، فكانت الكعبة أول ما لفت نظره . وكان يتوقع أن يرى مضارب او جنودا فى مكة أو حولها فلم ير شيئا ، فواصل السير يريد منزل اخته ام المؤمنين ، فمر بالاسواق فلم يجد ما كان ينتظره من الجلبة والازدحام حتى بلغ دار أخته فترجل عند بابها وقرعه فاطل عليه عبد حبشى عرف من صوته انه من عبيد ام المؤمنين فناداه باسمه ففتح له الباب فدخل فرأى المنزل خاليا فسأله عن ام المؤمنين فقال : « انها خرجت من مكة بالامس »

قال : « والى أين ؟ » . قال : « الم تسمع بما اجمعوا عليه ؟ »

قال : « هل ساروا الى البصرة ؟ » . قال : « نعم »

فسأله عمن سار معها فأنبأه ، فاستعاذ بالله وتكدر لوصوله بعد سفرهم ، وأراد العبد أن يحل جمله ويهيىء له الطعام فقال : « لاتفعل انى خارج وقد أعود » . وأمر خادمه أن يمكث هناك حتى يرجع وخرج وهو بلباس السفر قاصدا الى بيت ام الفضل وهو يكاد يتعثر بأذياله لسرعة مشيه فوصل الى منزلها فرآه مغلقا وقد اطفئت مصابيحه ، فظن اهله نياما فتردد فى أن يوقظهم او يصبر الى الغد ولكن شوقه الى رؤية أسماء هون عليه ايقاظهم . فدنا من الباب وامسك بحلقته وشدها فرأى الباب موصدا فقرعه قرعا شديدا فأجابه البستانى . فقال : « افتح » . فلما فتح سأله عن ام الفضل فقال « انها ذهبت الى فراشها واظنها لم تنم »

قال : « قل لها ان ابن اختك محمدا بالباب »

فلما علم البستاني انه ابن أبي بكر هرول الى مصباح اناره ، ودعا محمدا الى الجلوس على المصطبة ، ودخل الى أم الفضل فأخبرها فأسرعت اليه وقد علتها البغتة وصاحت قبل أن يحييها : « ما الذى جاء بك يا محمد . وأين كنت ؟ »

فعجب للهفتها وقال : « انى قادم من المدينة . اين اسماء ؟ »

قالت : « كيف تسألنى عنها وقد بعثت فى استقدامها ؟ »

قال : « الى اين ؟ » . . قالت الم تبعث اليها كتابا تستقدمها به

فقال : « ومن قال لك ذلك ؟ »

قالت : « رأيت رسولك بأم عينى ومعه كتابك دفعه اليها عند العصر وكانت لا تزال ضعيفة لا تقوى على السفر فلم تصبر الى الغد وشدت رحلها وسافرت »

قال : « ماذا تقولين ؟ . هل سافرت أسماء ؟ لقد زوروا الكتاب على لسانى . من جرؤ أن يفعل ذلك . من هو النذل الذى اقدم على هذه الجريمة ؟ »

فضربت أم الفضل يدا بيد وصاحت : « ماذا تقول يا محمد ؟ »

فأخذ محمد ولم يجب ثم قال : « فى أى الطرق سارت ؟ »

قالت : « سارت فى هذا الطريق المؤدى الى المدينة »

فتذكر محمد الاشباح التى رآهاخارج مكة ، وقال : « لقد لقيتها والله فى طريقى ، يا ليتنى اعترضت ذلك الركب وهى معهم . ولو كانت فى عافيتها لما خفت عليها بأسا ولكنها مريضة فأخشى ان احرجوها ان تموت غيظا . لاحول ولا قوة بالله » . وصمت برهة يفكر فلم يستطع ادراك سر الامر ثم هب من مكانه وقال : « استودعك الله » . وخرج

قالت : « تمهل يامحمد » . قال : « ان الوقت ثمين ، دعينى أتعقب الركب الذين رايتهم فى طريقى لعلى اظفر بها معهم » . ولم يكد يخرج من الباب حتى وقف بغتة كأن شيئا اعترضه فعاد الى أم الفضل وسألها عن الحملة ووجهة مسيرها ، فقصت عليه خبرها فوعى ذلك فى ذهنه وخرج مسرعا يلتمس الطريق الذى رأى الركب سائرين فيه

فمر بخادمه فى منزل أخته فرآه غارقا فى نومه من شدة التعب وقد ارسل الجمال الى المربط للشرب والعلف، فأيقظه وامره ان يتهيأ للرجوع فنهض وعيناه لاتنفتحان من النعاس . وعلم اهل المنزل بمجىء محمد فجاءه قيم الدار يدعوه الى الطعام فاعتذر بأنه لايستطيع المكث ، ولما الح عليه قيم الدار واظهر له ان الجمال تحتاج الى الراحة اقتنع واكل قليلا مما اعدوه وهو يحث الخادم للتأهب للمسير . وما لبث ان ركب وسار

على أسرع مايكون . وكان القمر قد تكبد السماء وصفا الجو فالتمس الطريق الذى ظن ان الركب ساروا فيه ، فقضى برهة لايتكلم ولايسمع صوتا الا جعجعة الجمال . وانتصف الليل والخادم يتوقع أن يأمره بالنزول للمبيت فلم ير الا حثا على الاسراع ، ثم رآه يسلك طريقا غير الذى جاءوا فيه فنبهه الى ذلك مخافة أن يكون قدضل السبيل، فأجابه بانه يعرف الطرق ولايحتاج الى تنبيه ، فسكت وظل سائرا حتى بلغا مكانا يتشعب فيه الطريق الى شعبتين احداهما تتصل بطريق المدينة والاخرى تنتهى الى طريق البصرة ، فوقفا هناك صامتين

□

لم يجرؤ الخادم أن يستفهم من محمد عما يريد ، وان كان قد رابه قلقه وغضبه . فلما وقفا فى مفترق الطرق وكان الرجل من النباهة والذكاء على جانب عظيم عارفا بالاسفار خبيرا بمسالك البر حاذقا فى قيافة الاثر ، تشجع وسأله : « هل من خدمة أقدمها لمولاى ؟ »

وكأن محمدا افاق من سبات ، فانتبه وتذكر مهارة خادمه فى قص الاثر فقال فى نفسه : « لعله ينفعنا »

وكان الخادم كهلا عركه الدهر ، قضى معظم ايامه فى الاسفار وتحمل مشاقها ، وكان طويل القامة سريع الحركة لايبالى بالتعب ولا يخاف الموت فقال له محمد : « هل لك فى قيافة الاثر يامسعود ؟ »

قال : « انى من امهر القائفين يا مولاى »

قال : « اترى على الرمل أثرا لمشاة او فرسان ؟ وهل تستطيع تحقق ذلك على ضوء القمر ؟ »

قال : « نعم يا مولاى » . ونزل عن راحلته وجعل يتفرس فى رمال الطريق كأنه يقرأ كتابا ، ومحمد بالقرب منه يراقب حركاته ، فرآه يتنقل بخفة ولباقة فلا يضع قدمه الا حيث يرى انها لا تفسد أثرا سابقا ، وما زال يروح ويجيء وهو يتفرس ويعد ويحسب ويقيس باشباره واصابعه ويراقب جهة الاقدام أو الخفاف أو الحوافر ، ومحمد يعجب لما يبدو من خفته وحذقه حتى كاد يمل الانتظار ، وأدرك مسعود قلقه فقال وهو لايزال يتفرس فى الرمال : « لا تضجر يامولاى من طول الانتظار فانى أرى ارتباكا فى الركب الذين مروا من هذا المكان وكأنهم وقفوا فيه برهة يروحون ويجيئون وربما تضاربوا وتقاتلوا ، فاصبر قليلا ان الله مع الصابرين» . وعاد مسعود الى عمله وهو يجلس القرفصاء ويحنى رأسه يتفرس فى الرمال حتى يكاد يلامس وجهه

الارض . وقضى فى ذلك ساعة ومحمد كانه واقف على الجمر، وربما خيل اليه لعظم قلقه ان الليـل قد انقضى . وفيما هو فى ذلك رأى مسعودا وقد انتصب بغتة وتحدب وتمطى كأنه تعب من القرفصاء والانحناء ومشى اليه ، فتقدم محمد نحوه وقال : « ماذا رأيت ياصاح ؟ »

قال : « ان الآثار تشابهت على لاختلاطها ومع هـذا علمت انها آثار قافلة صغيرة مؤلفة من بضعة جمال بينها جملان يسيران متواليين كأنهما يحملان هودجا ، ومعهما مشاة من الرجال اكثرهم يحملون رماحا لأنى أرى آثار كعابها بجانب الاقدام . ويظهر ان القوم وقفوا هنا وترددوا فى المسير واختل نظامهم ، وقد يكونون تخاصـموا أو تقاتلوا يدلك على ذلك ما فى آثار اقدامهم من الارتباك مع كثرة الابعار المتجمعة . ثم بدا لى انهم اتفقوا أخيرا على سلوك هذا الطريق »

قال محمـد : « والى أين يؤدى ؟ » . قال : « يؤدى الى البصرة او الكوفة »

فسكت محمـد وقد رجح لديه انهم هم الركب الذين رآهم فى ذلك الليل عن بعد ، فأعمل فكره وحدثته نفسه ان يتبع الآثار ولكنه خاف ان يشغله ذلك عن المهمة التى جاء بها الى مكة . فوقف صامتا يتردد بين أن يطلع مسعودا على سر الامر وبين ان يظل على كتمانه ، فتحير فى أمره ثم سـأله بغتة : « وما ظنك يامسـعود بالزمن الذى مر على مسيرهم ؟ »

قال : « اظنهم مروا فى أوائل الليل منذ اربع ساعات او خمس، وهم سائرون على عجل »

فقال : « وهل تظننا ندركهم اذا اقتفينا اثرهم ؟ »

قال : « اذا ظلوا هم على مسيرهم لا اخالنـا ندركهم قبل يومين أو ثلاثة . قال ذلك وقد مل من تكتم محمد الغرض من هذا البحث ، فأراد استطلاع السر فقال : « هل يرى مولاى أن يطلعنى على ما أهمـه من هذا الركب لعلى أستطيع أن أحسن خدمته ؟ »

قال : « يهمنى يامسـعود من هـذا الركب امر كبير . هل تعرف خادمتنا العجوز التى كانت فى المدينة ؟ » . قال : « نعم اعرفها »

قال : « انها جاءت مع فتـاة أموية الى مكة واقامت عنـد أختى ام المؤمنين ، فلمـا أجمع أهل مكة على المسير الى البصرة جاءهمـا أناس بكتاب مزور على لسانى يدعونهما الى المدينة ، فسارتا معهم فى غروب هذا اليوم ، ولا أدرى من تجرأ على هـذا الفعل ، ولا الى أين سـاروا بهما ، ولكن يظهر مما بينته قيافتـك انهم هم الركب الذين مروا بهذا المكان »

فقال مسعود : « هل ترى ان اقتفى آثارهم وآتيك بالخبر واذا استطعت انقاذهما فعلت »

فاستحسن محمد رايه واثنى على غيرته واوصاه بان يحتاط لنفسه وحثه على الاسراع وودعه وركب هجينه ويمم شطر المدينة

□

أما الامام على فانه خلا الى نفسه بعد خروج محمد من عنده ، وفكر فيما هم فيه ، فرأى من الحزم أن يحول عزمه عن الشام الى البصرة ، فاستشار ابن عباس وغيره من كبار الصحابة فوافقوه على ذلك ، فدعا وجوه اهل المدينة وخطب فيهم ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : « ان آخر هذا الامر لايصلح الا بما صلح به اوله ، فانصروا الله ينصركم ويصلح أمركم ». ولكنه رأى تثاقلامنهم وقدكان يتوقع تلبية ونهضة ، فلم يقلل ذلك شيئا من عزيمته . على ان جماعة من الصحابة تقدموا لنصرته واستحثوا الناس فعادوا الى نصرته فعبأ التعبئة التى أعدها لأهل الشام آخرربيع الثانى سنة ست وثلاثين، وانضم اليه من نشط من الكوفيين . وبينا هو فى تأهبه اذ اقبل محمد بن ابى بكر وانبأه بما كان من خروج عائشة وطلحة والزبير ومن معهم الى البصرة فعجل بالمسير ، وكان الناس يتوقعون ان يرسل الحملة ويبقى هو فى المدينة حفظا لمكانته فيها ، فلما رأوه ركب فى مقدمة الحملة تقدم اليه عبد الله ابن سلام فاخذ بعنانه وقال : « يا أمير المؤمنين لا تخرج منها فوالله ان خرجت منها لن يعود اليها سلطان المسلمين »

فقال : « لابد من خروجى »

فتكاملت الحملة واجتمعت فى الربذة على ثلاثة أميال من المدينة ، وتأهبوا للخروج ومحمد والحسن معهم . وكان الحسن لانهماكه بمهام الخلافة ربما مرت اسماء فى ذهنه فيصبر نفسه الى ما بعد ما هو فيه

واستبطأ محمدخادمه وهولايدرى ماصار اليه ، فقلق عليه ولكنه سر لمسيره هو فى الحملة لعله يعلم شيئا عن اسماء

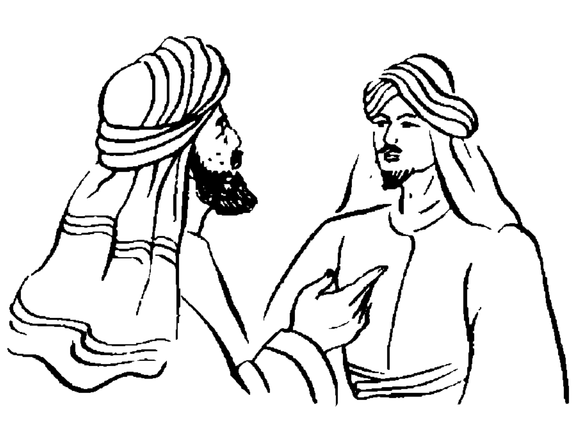
ولما اجتمع جند على فى الربذة جاءه رجال من طى واسد وانضموا الىجنده فاشتد أزره ، على ان الحسن لم يكن راضيا عنخروج ابيه فى تلك الحملة فلما رآه عازما على ذلك قال له : « لقد نصحتك فعصيتنى فستقتل غدا ، ولا ناصر لك »

فقال له على : « انك لا تزال تخن خنين الجارية وما الذى نصحتنى فعصيتك ؟ »

قال : « نصحتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم نصحتك يوم قتل الا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة اهل كل مصر فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت علي ، ونصحتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان ان تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فان كان الفساد ، كان على يد غيرك . . فعصيتني في ذلك كله »

فقال : « اي بني أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما احيط به . وأما قولك لاتبايع حتى يبايع اهل الامصار فان الامر امر اهل المدينة ، وكرهنا ان يضيع هذا الامر . ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى أحدا احق بهذا الامر مني ، فبايع الناس أبا بكر الصديق فبايعته ، ثم ان ابا بكر انتقل الى رحمة الله وما أرى أحدا أحق بهذا الامر مني . فبايع الناس عمر فبايعته . ثم ان عمر انتقل الى رحمة الله وما أرى أحدا أحق بهذا الامر مني ، فجعلني سهما من ستة أسهم ، فبايع الناس عثمان فبايعته ، ثم سار الناس الى عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين ، فأنا مقاتل كل من خالفني بمن أطاعني حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . وأما قولك ان أجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير ، فكيف لي بما قد لزمني ؟ أو من تريدني ؟ اتريد ان أكون كالضبع التي يحاط بها ويقال ثبت ههنا حتى يحل عرقوباها ؟ واذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الامر ويعنيني ، فمن ينظر فيه ؟ . فكف عنك يا بني »

وفي الربذة أعد علي بن ابي طالب حملته . وجعل ابنه محمدا بن الحنفية صاحب الراية ، كما كان الشأن عند عزمهم على غزو الشام ، وأعدوا لعلي ناقة حمراء يركبها وفرسا كميتا



أسماء فى الأسر

وكان محمد بن ابى بكر فى شغل شاغل من امر الحرب والاستعداد لها ، ولكنه كلما خلا الى نفسه لحظة ذكر اسماء ، وكلما راى قادما من سفر ظنه مسعودا ، فلما ابطأ مسعود فى القدوم خاف ان تكون أسماء اصيبت بسوء ، وكلما تصور ذلك زاد قلقه واقشعر بدنه ، وود لو أنه يذهب فى مهمة الى البصرة او الكوفة لعله يلقاها او يسمع بخبرها فيطمئن قلبه

فبات ذات ليلة فى خيمته وقد تسلط عليه القلق لما هم فيه من النصرة للامام على وما يتوقعونه من البلاء . فعظم عليه الامر وارق ورأى ان يلتمس الذهاب بنفسه الى البصرة يستنهض اهلها لنصرة الامام ، وعزم على ان يبكر فى الصباح لمخاطبة الامام فى ذلك . وانه لفى هذا اذ سمع صوتا خارج الخيمة يشبه صوت مسعود ، فهب من فراشه وناداه ، فجاءه ودخل عليه فى ثياب السفر ، ودخلت فى اثره امراة لم يعرفها محمد فى بادىء الامر لضعف نور المصباح ، ولكنه ما لبث ان تبين أنها العجوز فبغت وتذكر اسماء فقال : « ما وراءك ياخالة ، أين اسماء ؟ »

قالت : « أظنها الآن فى البصرة أو فى الكوفة او لا ادرى أين هى »

قال : « وكيف تركتها وجئت وحدك ؟ » . قالت : « هى أمرتنى ان اجىء ، وسأقص عليك نبأها بعد ان استريح » . قالت ذلك وتنهدت وقد اضناها التعب ، فسأل محمد مسعودا : « اين لقيتها وما الذى دعا الى هذه الغيبة ؟ »

قال : « طال على الامد فى البحث عن الركب ، وكأنهم غيروا طريقهم وتعرجوا فى مسيرهم ، فتشابهت على سبلهم فقضيت اياما أستقصى حتى كدت ادرك البصرة ، ورايت جيش أم المؤمنين عن بعد ، ثم تحولت الى طريق آخر فعثرت على هذه الخالة سائرة وحدها ، فسررت بلقياها ، وسألتها عن أسماء ومكانها ، فقالت : « ان الركب ساروا بها الى حيث لا ندرى . وان اسماء بعثتها اليك برسالة لا أدرى ما فيها ، وكنت عازما على مواصلة البحث عنها فمنعتنى ، فجئت بها اليك »

فعجب محمد لذلك والتفت الى العجوز وقال : « قصى علينا الخبر ياخالة من أوله الى آخره »

فجلست واخذت فى سرد الحديث فقالت : « هل اقص خبرنا منذ ودعتنا فى المدينة وسرنا نحن الى مكة ؟ »

قال : « سمعت هذا من خالتى ام الفضل ، ولكننى اريد أن أعلم كيف خرجتم من مكة ؟ »

قالت : « كانت اسماء مريضة عند ام الفضل وهى على مثل الجمر فى انتظار اشارة منك للانتقال الى المدينة لأنها اصبحت بعد ما رأت من عزم أهل مكة على طلب دم عثمان لا تستطيع الاقامة بها . وكانت مع ضعفها كلما ذكرت عليا والحرب والانتصار له تتشدد وتتقوى حتى خيل الى انها كانت تشتاق النزول الى ساحة الوغى دفاعا عن الامام على لقوة ايمانها ببراءته من دم عثمان . وكانت كلما ذكرت ذلك تبكى وتحرق اسنانها غيظا لقعودنا فى مكة بالرغم منها . وعظم الامر لديها يوم خرجت اختك ورجالها من مكة يريدون البصرة لطلب دم عثمان ، فانها اصبحت فى ذلك اليوم على اشدها لفرط ماهاج من عواطفها رغبة فى المسير الى المدينة ، وانما كان يقعدها قولك لها يوم وداعها انك ستبعث اليها من يستقدمها ، فبعد سفر ام المؤمنين بيوم او يومين ، جاءنا رسول بكتاب زعم انه منك . ولم تكد اسماء تتم قراءته حتى هبت من فراشها وقد أشرق وجهها وابرقت أسرتها وقالت : « هيا بنا ياخالة الى المدينة فان محمدا بعث من يحملنا اليه . فنظرت الى الرسول فلم اذكر انى اعرفه فقلت له : اين الجمال والاحمال ؟ . قال : هى خارج المدينة وقد سرحناها للراحة . فلم يرق لى كلامه لأنى لا أعرفه ، وكانت خالتك أم الفضل جالسة فسألتها فقالت : انها لا تعرفه أيضا ، فخلوت بأسماء وحذرتها من المسير مع قوم لاتعرفهم . فأبت الا الركوب وقالت : انها لا تبالى من كانوا فانما غرضها الخروج من ذلك السجن . فأطعتها وخرجنا والرجل يسير امامنا وأسماء لا تزال ضعيفة من عقبى الحمى ، وكنت قبل خروجنا من البيت قد عرضت عليها ان يذهب الرسول فيأتينا بالجمال الى البيت فنركب من هناك ، ولكنها لم تستطع صبرا وابت الا المسير حالا ، فوصلنا الى المكان الذى اشار اليه الرسول ، فرأينا هودجا على جلين وجمالا أخرى وبضعة رجال لم اعرف أحدا منهم ، فخامرنى الريب ونبهت اسماء الى ذلك فلم تنتبه ، كأن رغبتها فى المسير اليك اسكرتها وأعمت بصيرتها ، فركبنا والخدم فى ركابنا حتى اتينا مكانا تتشعب فيه الطريق الى شعبتين ، وهناك رأينا أناسا مسلحين ينتظروننا ، وفيهم شاب بلباس

ثمين كانه سيدهم ، فلما وصلنا الى المفرق ، وقفت جمالنا ودنا الرجال برماحهم فتحققنا وقوع الخيانة . وكان الليـل قد اسـدل نقابه فلم نعرف أحدا من هؤلاء ، فلما رأيناهم تحولوا عن طريق المدينة الى طريق البصرة قلت : (الى اين انتم ذاهبون بنا ؟) . فقالوا : (الى حيث نشاء) . فهالنى جفاء الجواب ونظرت الى أسماء على ضوء القمر فاذا هى ثابتـة الجأش على ضعفها ، وقد كنا فى الهودج معـا . فحالما تحولنا الى ذلك الطريق ، انزلونى من الهودج وحملوه على جمل واحد واركبونى الجمـل الآخر فاطعت مرغمة »

وكانت العجوز تتكلم ومحمـد مصـغ يتطاول بعنقه لسـماع تتمة الحديث وقد ظهر القلق على وجهه ، فاستأنفت العجوز حديثها وقالت : « وما زلنا سائرين مسرعين طول الليل حتى أصبحنا وتبينت الوجوه وتفرست جيـدا فرأيت بينهم رجلا تذكرت انى رأيتـه فى خدم بيت اختك ام المؤمنين ، وتأملت الشاب ذا اللباس الفاخر فاذا هو ذو جمـال وقيافة فظنته سيدهم ، ولم أعرف من هو ولـكننى عرفت أن اسمه سعيد ، ويلوح عليه انه من أهل البصرة

« ولم تكد جمالنا تستريح حتى دنا الرجل من هودج أسماء وأنا أنظر اليه من بعيد واسمع شيئا مما يقول ففهمت انه يسألها عن حالها وهل لا تزال تفضل المدينة وأهلها ، ورأيت منه احتفاء عظيما بهـا ، اذ أمر بطعام فاخر قدمه لها وجعل كل رجاله فى خدمتها »

فقاطعها محمد قائلا : « وهل أكلت من طعامه وأجابته على كلامه ؟

فقالت : « والله يا بنى انى لم اشاهد فى حياتى كلها لا فى الجاهلية ولا فى الاسلام فتاة ولا شابا اثبت جأشا من أسماء ولا أصبر على المـكاره منها ، فقد كانت مع ضعفها وعلمها بالخطر الذى وقعت فيه مطمئنـة لايبدو على وجهها شيء من دلائل الخوف والاضطراب ، وقد لحظت لما كان ذلك الشاب يكلمها انها كانت تجيبه بكلام لم أسـمعه ، ولـكننى رأيت اثره فى وجه الشـاب تهيبا وخوفا منهـا . وكأن الخطر قد زاد أسماء هيبة وجلالا كما زادها الضعف حسنا وجـالا . واما أنا فكنت خافقة القلب مضطربة الحواس لاأكاد أستطيع الوقوف لشدة الارتعاش وهى جالسة فى هودجها والقوم ولا سيما سعيـد وقوف على خدمتها لتلبية كل اشارة منها »

فقال محمد : « لم تجيبينى ياخالة عن سؤالى هل أكلت من طعامهم ؟ » . قالت : « لا ياسيدى لم أرها تأكل ، ولكننى لا اظنها استطاعت البقاء بلا طعام »

قال : « ثم ماذا ؟ » . قالت : « ولم نسترح الا قليـلا . ثم نهض

الركب وسرنا نطوى البيداء ووجهتنا العراق ، وانا لا ادرى ماذا اعمل . ولو رات اسماء فائدة من المقاومة لفعلت ، ولكنها وجدت نفسها عزلاء وحولها رجال مدججون بالحراب والسيوف والرماح ، ولكنى اعجبت بشجاعتها وسكينتها ، وكانت طول الطريق ساكتة تتامل كأنها تفكر فى طريقة للنجاة . واما سعيد اصل البلاء وراس الخطيئة فلا ريب انه اقدم على فعلته واسماء طلبته ، ولكنه كان متهيبا وربما هم بأن يكلمها بشيء فى نفسه فلاذا دنا من هودجها ارتج عليه فتظاهر بأمر آخر . وقضيت اليوم الثاني وانا أحاول الدنو من اسماء لعلنا نتعاون على سبيل للنجاة فلم استطع ، لانهم كانوا يفرقون بيننا عنوة . فبتنا ثم اصبحنا وقد مللت هذه الحال ، فلاح لى اخيرا أن أتظاهر بالتعب والمرض لعلهم يسمحون لى ان اراها وارى مايكون، فشكوت الما وعجزا عن الركوب فقال سيد القوم : (اتركوها فى الطريق وسيروا) . فصحت : دعونى انظر ابنتى ، دعونى أودعها) . واخذت فى البكاء فسمعتنى اسماء وطلبت أن ترانى فحملونى اليها ، فأجلستنى فى هودجها وارخت ستائره ، ومشى الركب بنا ، فلما خلونا سألتها عما فى نفسها فتنهدت وقالت : « انى لم اقع عمرى فى مثل ذلك ، وانا اعلم الناس بما يحدق بى من الخطر ، ولكننى لا أرى الخوف يجدينى نفعا ، ولا انا أستطيع دفاعا فأنا عزلاء وهم عشرة مسلحون . ويلوح لى انهم سائرون بنا الى معسكر ام المؤمنين ، وان هذا الشاب المغرور من رجالها ، واظنه طامع فى . فليطمع ماشاء ، ولعلى أجد سبيلا للنجاة ولكنى اريد ان ابلغ محمدا خبرا مهما ، فكيف العمل ؟ . فقلت لها : (انا ابلغه اياه فان هؤلاء الرجال يريدون التخلص منى فاذا انا تظاهرت بحب التخلف عنهم خلفونى وساروا فقولى ما تريدين) . قالت : (سأكتب ذلك فى كتاب توصلينه اليه) . وسرنا هنيهة ثم وقف الركب وجاء ذلك الشاب ورفع الستر عن الهودج وقال : (انزلى من هذا الهودج ان الجمل لايستطيع حملك) . فشكوت له التعب والمرض . فقال : (لايعنينى) . فقالت له أسماء : (تمهل ريثما نصل الى مكان نستريح فيه جميعا فاذا لم تقدر على الركوب معنا تركناها أو أوصلناها الى قافلة تسير بها) . وكانت اسماء تتكلم والشاب ينظر اليها وقد هام بها ولم تزده انفتها الا حبا ، وكأنها سحرته فأصابه خبل ، فقال : (حسنا) . فوصلنا فى المساء الى مكان فيه آبار وشجر ، فنزلنا جميعا ، ونصبوا الخيام ، فطلبت أسماء الخلوة فتركوها ووقفوا خارج خلوتها لئلا يدهمها أحد، فقضت هناك ساعة حتى قلقت عليها ثم خرجت الى وقد أحمرت عيناها وتبللتا وبيدها منديل قطعته من قميصها دفعته الى وقالت : (احتفظى بهذا الكتاب وادفعيه الى محمد) . فتناولته وخبأته بين اثوابى وانا

احاذر أن يراني أحد . وقالت أسماء : (اسرعى فى المسير الى محمد ما استطعت) . وكانت هناك قافلة قادمة نحونا فعلمت ان ركبنا سيرحل قبل وصولها ، فتظاهرت بعجزى عن الركوب والمشى ، فلما راى أصحابنا القافلة آتية تهيأوا للرحيل وطلبوا الى ان اركب او امشي ، فلما اعتذرت هموا بتركي ، وطلبت أن أودع أسماء فأذنوا لى فى ذلك ، وقد بكت حين ضممتها وقبلتها مرارا ولكنها اسمعتنى كلاما عزانيعلى فراقها وطمأن قلبى عليها فقالت : (لا تخافى على ياخالتى فانى ارجو ان يكون هذا ذريعة الى خدمة عظيمة اقوم بها للامام على ومحمد وعلى الله اتكالي) . ولم أكد أجيبها حتى أقلع جملها وسار وهى تلتفت الى وتبتسم وأنا أبكي . فظللت وحدى أنتظر وصول القافلة فاذا وجهتها غير ما ظننت وطريقها غير طريقي ، فنهضت أسعى فى أثرها فسبقتني ، وما زلت أسير تارة وحدي وطورا اصطحب راعيا أوماشيا حتى لقيت مسعوداً على ما قصه عليك »

☐

وفرغت العجوز من كلامها وقد تعبت ومحمد شاخص اليها ثم قال : « أين كتاب أسماء ؟ »

فمدت يدها الى جيبها واخرجته ، وكانت قد خاطته بباطن ثوبها. ثم دفعته اليه فاذا هو قطعة من قميص اسماء ، فاستأنس به وادنى المصباح منه ونظر فاذا فيه كتابة بمداد أحمر واحرف لم يألفها لقربها من الشكل النبطى الذى كان يكتب به عرب الشام وتستغرق قراءته زمنا . فأومأ الى مسعود أن يذهب بالعجوز الى مكان تستريح فيه واغلق باب خيمته وجلس الى جانب المصباح وطفق يقرأ الكتاب فاذا فيه :

« أكتب اليك هذا بمداد من دمى ، اذ لا سبيل الى غيره وأنا فى صحراء قاحلة وحولي اناس لا أدرى غرضهم من أسرى ، على انهم لن ينالوا منى وطرا ، وقد علمت أنهم سائرون بى الى معسكر ام المؤمنين بالبصرة ، واظنهم من رجال تلك الحملة . لا تجزع يا محمد ولا تخف على أسماء فانها بحول الله لا تخشى باسا . وقد كتبت هذا اليك لانبئك بحالي وادعوك الى عهد بيننا نجعله نذرا علينا هو ان تكون اعمالنا وحواسنا وقوانا مكرسة لخدمة أمير المؤمنين ابن عم رسول الله (ص) فقد اتهموه ظلما بدم عثمان وانا وأنت أعلم الناس ببراءته . فعلينا القيام بنصرته حتى اذا انتهينا واستقام الامر نظرنا فى أنفسنا واجبنا داعى القلب

« هذا ما أدعوك اليه وأرجو ان تعاهدني عليه ولا اظنك تخالفني فيه وانا منذ الآن ساعية فى هذا السبيل وأرجو أن يكون اسرى عونا على هذه الخدمة ، فانت تعمل من جهة ، وأنا من جهة أخرى اعمل لاقناع أم المؤمنين حين القاها ببراءة الامام . آه يا ليتها كانت معنا ليلة وجدناه يبكى عند قبر الرسول . آه من تلك الليلة كم لقيت فيها من الاهوال ، على انى سأذكر لها ذلك ، واننا سمعناه يندب الاسلام ويتخوف وقوع الفتنة ، ولعلها تؤمن ببراءته . اقول هذا على أمل تذليل العقبة الوعرة التى أراها فى سبيلى ، ناذا مت فانى اموت شهيدة العفاف والغيرة على الاسلام والنصرة للامام رجل هذه الأمة . . . ومرة اخرى أدعوك الى العهد على نصرة الامام على والتفانى فى ذلك فاذا فرغنا منه على خير فكرنا فى أنفسنا والسلام اسماء »

ولم يفرغ محمد من تلاوة الكتاب حتى امتلأ قلبه حمية وطفح اعجابا بأسماء وعجب لتوارد الخواطر بينها وبينه ، فقبل كتابها وأثنى على غيرتها ، ولـكنه مازال خائفا عليها من غائلة ذلك الاسر ، فقضى ليلتـه مضطربا وقد مال الى الذهاب فى مهمته الى العراق لعله يلقى أسماء فينقذها

□

خرج محمد فى صباح اليوم التالى قاصدا فسطاط الامام على لعله يسمع خبرا جديدا ، فلما دخل عليه رأى فى مجلسه جماعة من الصحابة يتحدثون فيما هم فيه من الأحوال ، ويتشاورون ، والامام مقطب الوجه يفكر فيما قام من الفتنة

وفيما هم فى ذلك دخل غلام مبغوتا فسأله على : « ما وراءك ؟ »

قال : « ان فى الباب ركبا قادمين من البصرة وفيهم رجل ملثم »

قال : « فليدخل كبيرهم »

فدخل رجل ملثم الوجه ، حيى الامام عليا وكشف عن وجهه فاذا هو احلط الوجه أملط لا شعر له فى لحيته ولا شاربيه ولا حاجبيه ولا أشفار عينيه ، فانكره على وتأمله وقال له : « من الرجل ؟ »

قال : « انا عثمان بن منيف عاملك على البصرة »

فبغت الامام وقال : « ما الذى أصابك ؟ »

قال : « بعثتنى بلحية فجئت أمرد »

قال على : « أصبت أجرا وخيرا . احك لنا خبرك وما دعا الى نتف شعر وجهك على ما نرى »

قال : « بعثتنى يا مولاى عاملا على البصرة ، فلقيني الناس وسروا بخلافة الامام على ، ثم ما لبثت أن سمعت أهل البصرة يتحدثون بأمر حدث ، وان كتبا وردت على بعضهم من أم المؤمنين تدعوهم فيها الى الاخذ بثأر عثمان ، وانها قدمت من مكة واقامت فى الحفير على بضع ليال من البصرة تنتظر الجواب ، فاهمنى الأمر كثيرا ، فبعثت رجلين : احدهما رجل عامة ، والآخر رجل خاصة ، يسألانها عما تريده. فعادا واخبرانى أن أم المؤمنين وطلحة والزبير مصرون على طلبهم دم عثمان منك ، وان الآخرين لم يبايعاك الا كرها . فشاورت رجالى فقال بعضهم : « ننصرهم » . وقال آخرون : « نردهم » . ورأيت لهم نصراء فى البصرة فخفت اتساع الخرق ، ثم علمت ان عائشة جاءت المربد (وهو السوق خارج البصرة) ومعها رجالها ، فخرجت اليها بنفسى ومعى بعض أهل البصرة ممن يرون رأيى ، فلما انتهينا الى المعسكر سألناهم عن غرضهم ، فوقف طلحة وتكلم بفضائل الخليفة عثمان وحث على الاخذ بثأره ، ثم قام الزبير بمثل ذلك ، وأيدهم من معهم من الرجال . فقلت لهما : (بايعتما عليا وجئتما تقولان ما تقولان) . فوقفت ام المؤمنين وألقت كلاما حرضت فيه الناس على طلب دم عثمان ، وقالت قولا كثيرا وكان لكلامها تأثير شديد على كل من سمعها حتى ان جماعة كبيرة من رجالى مالوا اليها . ثم اشتد اللجاج بين الرجال ونشبت الحرب فقتل من رجالى جماعة كبيرة ، فتنادينا الى الصلح وتواعدنا على أن يبعثوا الى المدينة فان كان طلحة والزبير اكرها على البيعة سلمت اليهما الامر والا فانهما يرجعان ، فبعثت اليكم وفدا فى ذلك »

فقال على : « وقد اجابهم أهل المدينة انهما بايعا طائعين »

قال عثمان : « نعم يا مولاى جاءهم الوفد بذلك فأنكروه ، وبعثوا الى ، وكانت ليلة ذات رياح ومطر ساروا فيها الى المسجد وقت صلاة العشاء ، فأرسلت بعض رجالى لأرى ماذا يريدون ، فقتلوهم ثم جاءوا الى وأخرجونى ونتفوا لحيتى وشعر حاجبى وأشفار عينى كما ترى ، فجئت بالخبر كما وقع »

فقال على : « انا لله وانا اليه راجعون ، وكيف اهل البصرة الآن ؟ »

قال : « ان سوادهم مع أم المؤمنين »

فأطرق على ، وكل من فى مجلسه سكوت ينتظرون ما يبدو منه فظل ساكتا ، حتى شعر الناس أنه يريد أن يخلو بخاصته ، فخرجوا جميعا وفى جملتهم محمد بن ابى بكر وقد ساءه تعاظم الامر الى هذا الحد ، ولم يكد يدرك خيمته حتى جاءه رسول يستقدمه الى على ، فأسرع

اليه فلم ير عنده الا محمدا بن جعفر ، فدخل وحياه وهو يتوقع ان يسمع منه امرا جديدا ، فلم يكلمه حتى جلس على وسادة بجانب محمد بن جعفر ، فقال له والاهتمام ظاهر فى وجهه : « اتدرى لماذا دعوتك ؟ »

قال : « خيرا ان شاء الله »

قال : « اسمعت مافعلت اختك وطلحة والزبير فى البصرة ؟ . لقد اساءوا الى عاملنا وحضوا الناس على حربنا لأننا على زعمهم قتلنا عثمان ، وانت تعلم ان اهل الكوفة حزب كبير يهمنا استنفارهم ليكونوا معنا فى هذه الحرب اذا كان لابد منها ، وقد انتدبتك انت وابن اخى هذا لتسيرا الى ابى موسى الاشعرى عاملنا على الكوفة تستنفران الناس لنصرة الحق »

فوقف محمد وقد ثارت حميته وقال : « اننا طوع امرك وان الدفاع عن الحق ونصرة امير المؤمنين فرض واجب علينا »

قال على : « تأهبا واخرجا الى ابى موسى ، واقرآ هذا الكتاب على الناس ، وادعواهم الى الاصلاح فاننا لا نريد سواه ، وانا لاحق بكما واستعين الله فى نصرة الحق وكبح جماح الباطل »

فخرجا يتأهبان للرحيل

فلنتركهما سائرين فى هذه المهمة ولنعد للبحث عن اسماء

□

اما اسماء فقد كان السبب فى اسرها ان احد كبراء البصرة ممن جاءوا مع ابن عامر الى مكة شاهدها ساعة وقوفها فى العريش ومخاطبتها مروان بتلك الشجاعة مع ما كان يتجلى فى محياها من المهابة والجمال ، فوقعت من نفسه موقعا عظيما وعلق قلبه بها . وكان من اهل اليسار والبذخ ، فلما انفض المجلس سأل عنها فأخبره بعض الذين اطلعوا على حديثها سرا من خدم أم المؤمنين انها مخطوبة لمحمد بن أبى بكر ، وانها باقية فى مكة تنتظر امره بالذهاب الى المدينة ، فحدثته نفسه أن يخطفها ويغريها بحبه ويتزوجها ، وهو يعتقد أنها لا تلبث أن ترى جماله وتعلم بجاهه وغناه حتى تهواه وتفضله على محمد ، فيحظى بها وينتقم من محمد لنقمته على عثمان . فاصطنع ذلك الكتاب على لسان محمد وبعث به مع بعض رجاله فجاءت معه ، فسار بها كما تقدم وهو تارة يستعطفها ، وطورا يعدها بالسعادة عندما يصل بها الى البصرة ، وخيل اليه فى بادىء الرأى انها مالت اليه لما آنسه من سكوتها

وتصبرها ، ولم يعلم انها انما فعلت ذلك حزما وتعقلا . وكان يود التخلص من العجوز فتيسر له ذلك على أهون سبيل كما رأيت . فقضى أياما فى مسيره وهو يعرج فى الطريق روحة وجيئـة يلتمس رضاها قبل الوصول الى البصرة ، فلمـا دنا من البصرة عرج على طريق ينتهى بالكوفة وكان له فيها منازل وصنائع

وكانت هى تفكر فى طريقة للنجاة ، وكثـيرا ما حدثتها نفسها أن تجافيه وتظهر احتقارها له ، ولـكنها كانت تعود فتصبر مخافة أن يفتكوا بها

فلما صاروا على مقربة من الكوفة لم ير بدا من استجلاء أمرها ، فصبر حتى أسدل الليل نقابه وجاءها وهى مستلقيـة فى الهـودج التماسا للراحة ، وكان بجانب الهودج نار اوقدوها للاستضاءة ، فرفع ستائر الهودج فانتبهت أسماء وجلست ، ولما رات سعيدا استعاذت بالله . اما هو فحياها بلطف وقال لها : « الا تظنين البصرة خيرا من المدينة يا أسماء ؟ »

فأطرقت ولم تجب ، فجثا امامها ومد يده محاولاان يمس معصمها. بينما أخذ ينظر الى وجهها وقد انعكست عليه أشعة لهيب النار ، فلم يكد يمس يدها حتى أجفلت وجذبتها من بين انامله وبالغت فى الاطراق

فقال لها : « ما بالك يا مليحة ؟ الا تزالين تجافيننى وأنت تعلمين انى أسير هواك ؟ فهل تخشين الا تلاقى فى منزل محبك الاكرام الذى يليق بك ؟ . انك لا تلبثين أن تنزلى فى بيتك بالبصرة أو فىالكوفة حتى تشعرى بالسعادة التى تنتظرك هناك مما لا يتاتى لأحـد سواى ان يهبك اياه . فهناك تجدين الخدم والحشم ، والدور والمنازل ، والخيل والماشية ، والملابس الفاخرة . وكل أسباب الراحة . الا تمنين على بنظرة تدل على رضاك ؟ »

وكان سعيد يتكلم وعينا أسماء شاخصتان الى تلك النار الموقدة بجانب هودجها ، لا يحاكيها فى ذلك الليل الهادىء الا نيران قلبها المتقدة حبا لمحمد وغيرة على الاسلام ، وقد ازدادت اتقادا وحدة لما سمعته من كلام ذلك الشاب وارادت أن توبخه وتردعه ولكنها علمت انها اذا فعلت ذلك عرضت نفسها للخطر فتنهدت وظلت صامتة

اما هو فظن تنهـدها دليـلا على اثر كلامه فيهـا ، فابتسم ومضى نحوها جاثيا ومد يده ليمسك أناملها وهم بالتكلم ، فجذبت يدها منه، ونظرت اليه والشرر يكاد يتطاير من عينيها ثم أعرضت عنـه وهى تحرق أسنانها ، فابتسم هو وهش وقال بنغمـة المحب الولهـان : « بالله الا رحمت قلبا قيدته بسلاسل هواك ، ورمقته بلفتة أو بكلمة ،

قولى يا اسماء ، قولى انك راضية بى عبدا رقا وانا اكرس حياتى لخدمتك . والله انى لم أقل هذا لأحد قبلك . تعطفى بالله وارفقى ، كفى سكوتا واعراضا ، اعلمى يا مليحة اننى انما أريد سعادتك وان الله ساقنى اليك لحسن حظك وحظى . وان ابن ابى بكر ليس أهلا لك ولا هو يستحقك ولسوف ترين ما يحل به اذا احتدم القتال »

ولم تعد أسماء تستطيع صبرا على ذلك بعد ان سمعت التعريض بمحمد ، فحدثتها نفسها أن تصفعه على وجهه ، ولكنها كظمت غيظها بالرغم منها ، وعمدت الى توبيخه فقالت بنغم ضعيف وصوت رخيم : « انى لا اراك أهلا للنزال »

فسر سعيد لكلامها وان يكن توبيخا له لانه رجا ان يصل بالحديث معها الى استرضائها فقال : « وما أدراك يافاتنتى انى غيرأهل لذلك ؟ »

قالت وهى تنظر اليه نظرة التأنيب : « لأن الرجل الذى يقطع الفيافى والقفار طلبا للثأر أو نصرة للحق على ما تزعمون ، لا يرتكب جريمة التزوير ، ومن كان حرا صادقا يلقى الرجل فى حومة الوغى لايكلم فتاة يعلم أنها تحب سواه »

فأحنى الرجل راسه عند كلامها وقال : «لقد صدقت أيتها العذراء، ولكنى انما زورت التماسا لقربك اذ لم يبق لى اليه غير هذا السبيل ، فأنا أستغفر لذنبى لديك »

قالت : « انك انما أذنبت الى غيرى ، فاذا كنت رجلا فالق محمدا واستغفره ، فاما ان يغفر لك ، واما أن ينازعك فنرى من هوالرجل ! »

فجلس سعيد ودنا منها حتى كاد يلامسها ومد يده فقبض بواحدة على زندها وجعل الأخرى على نقابها واراد أن ينزعه . فجذبت يدها منه ووقفت وقد اخذ الغضب منها مأخذا عظيما وقالت : « ابتعد عنى ولايغرنك سكوتى ومرضى ، والله ان تمدد يدك الى لأكسرنها »

فضحك سعيد وقال : « لا تغضبى يا حبيبتى فانى لم أفعل شيئا يغضبك ، ولكننى أسترضيك واستعطفك ، فأفيقى من غفلتك ولا ترفضى نعمة أنعم الله بها عليك »

قالت وهى تتحفز للخروج من الهودج : « اذا كنت تزعم أنك تريد رضاى فاعلم أنك تطلب عبثا ، واذا حدثتك نفسك بوطر تبغيه فاعلم انها تحدثك باطلا وان احتراقى فى هذه النار أيسر مما تدعونى اليه »

فقال وقد حار فى امره وهو يكظم غيظه ولا يزال يرجو رضاها : « تمهلى يا حبيبتى وتبصرى فيما أقوله لك ، ولا ترفضى النعمة التى أعرضها عليك باسم الحب »

فقالت بنغمة جافية : « لا تنطق بالحب فانك تتكلم باطلا ولاتستعظم قوتك وتستكثر رجالك فان ذلك لا يرهبني »

□

ولما رأى سعيد من اسماء هذا الاصرار ، وقف على قدميه بغتة وصاح فيها صيحة دوت في ذلك الليل الهادئ وانتهرها قائلا : «أراك قد بالغت في القحة ، واستخففت بي وانك تعلمين انك أسيرة بين يدي » . قال ذلك وأمسك بيديها ، فانتفضت من بين يديه ورفسته برجلها فألقته على الارض وأعرضت بوجهها عنه

فهب من وقعته وصاح برجاله فتجمهروا حول اسماء وقبض بعضهم على يديها وبعضهم الآخر على كتفيها ، فتملصت من بين أيديهم وصاحت فيهم قائلة : « عار عليكم وأنتم رجال مسلحون أن تجمهروا على فتاة عزلاء »

فصاح سعيد فيهم : « قيدوا هذه الخائنة وشدوا ساعديها »

فقالت : « ما الخائن الا انت يا نذل ، اتظن ان القيود تقيد شيئا من حريتي ؟ » . وهمت بعصا من عصي الهودج استلتها في وجوه الرجال فتفرقوا امامها تهيبا من منظرها ورفقا بها ، فوبخهم سعيد وحثهم فعادوا وتكاثروا عليها وهي تحاول دفعهم ، فعثرت رجلها بعقال الجمل فوقعت على الارض فأسرعوا اليها وشدوا وثاقها وهي لا تبالي بما يفعلون وسعيد واقف ينتفض غيظا ، وأمرهم أن يلقوها في الهودج ويربطوها به ففعلوا

فلما أيقنت بالخطر القريب ترقرقت الدموع في عينيها وصاحت : « آه يا محمد أين أنت . يا ويل الأنذال اللئام الذين لا ذمة لهم ولاذمام»

فلما سمعها سعيد تنادي محمدا ضحك ضحكة تخالطها رعدة الغضب وقال : « لا تذكري محمدا ولا ترجي نجاة من هذا الأسر » . ثم امر رجاله فتفرقوا ، ودنا منها وعاد الى الملاينة فقال : كيف انت الآن الا ترجعين عن غيك ؟ انك اسيرة بين يدي وحياتك رهن اشارتي الا اذا أجبت طلبي فتصيرين انت الآمرة الناهية . قولي انك رضيت بي ؛ قولي انك تحبينني وكفى »

فصاحت به قائلة : « لا . لا . لا أحبك ، اذهب عني يا شيطان ولا ترني وجهك »

قال : « اعناد وروحك في قبضة يدي ؟ »



« وأصابت أسماء أحدهم بضربة على عنقه فخر قتيلا »

قالت : « لا تهددني بالموت فانه خير مما أتوقعه . واقتلني وارحني من هذه الحياة »

قال : « لا أقتلك بل اذيقك العذاب . لا بل أعيد النصح وادعوك الى حبى » . ومد يده الى شعرها ولم يكد يلمسه حتى اقشعر جسمها وانتفضت وكان الوثاق محلولا من بعض اطرافه فتملصت يدها واخرجت ذراعها ودفعت يده بعنف ، فجرد حسامه وهجم عليها به ليخوفها لعلها تطيعه ، فوقفت وذراعها الاخرى مشدودة الى جسدها ومدت يدها الى سيفه فأخذته من يده وهو لا يمنعها منه فقطعت بقية الحبال واغارت عليه والسيف مشهر بيدها ، ففر أمامها . فأسرع رجاله اليها فأصابت احدهم بضربة على عنقه فخر قتيلا ، وهمت بالباقين فتكاثروا وتهافتوا عليها بالرماح والحراب والسيوف فأصابها رمح فى زندها فسقط السيف من يدها ووقعت مغشيا عليها من شدة الألم ، فأسرعوا وشدوا وثاقها وهى لا تعى . فلما رآها سعيد مغمى عليها امر بالماء فرشوها به حتى افاقت فقال : « اتركوها لتستريح » . وحسب انها ستذعن لأمره فجلس بالقرب منها يعلل نفسه برضائها بعد ما أصابها من الضنك

واما هى فازداد نفورها منه ويأسها من الحياة ، ولما رات ما هى فيه من الخطر الأكيد عظم عليها الأمر فلم تتمالك عن البكاء والشهيق

فدنا سعيد منها وقال بنغمة الظافر : « والآن يا أسماء كيف ترين نفسك ؟ »

قالت : « لا اراني ازداد الا نفورا منك اذهب من امامى »

قال : « يا للعجب أبعد هذا ترجين خلاصا »

قالت : « لا . لا أرجو ولا اطلب غير الموت فانه غاية ما ارجوه منك آه » . وعادت الى البكاء وهى تقول : « أين أنت يا محمد . أرنى وجهك قبل الممات ولو لحظة »

فلما سمعها تذكر محمدا اتقدت الغيرة فى قلبه وصمم على الفتك بها ، فجرد حسامه ووقف فوق راسها . فنظرت الى السيف وضوء اللهيب ينعكس عليه فيلمع ، فأيقنت أنه قاتلها لامحالة فصاحت : « أين انت يا محمد يا ابن أبى بكر ، زودنى بنظرة منك قبل الممات »

فقال سعيد : « أتظنين انى أقتلك الآن ؟ لا . لا تعللى نفسك بهذه الامنية فاننى سأميتك صلبا » . واشار الى بعض الوقوف من رجاله فرفعوها عن الارض واوقفوها الى شجرة من السنط الصقوا ظهرها بها ، وشدوها اليها شدا وثيقا بحبال مجدولة من الياف النخيل وكان فى

جذع الشجرة نتوءات واشواك اصابت بدنها فآلمتها ، لكنها لم تبال فى جانب ما شعرت به من الشوق لرؤية محمد فى آخر ساعة من ساعات الدنيا ، وحزنت على فراقها الحياة دون التزود بنظرة منه ، وكانت تفكر فى ذلك وهى ترسل نظرها الى الظلام من حولها فلا تتبين غير تلك النار الموقدة بين يديها

اما سعيد فتركها مشدودة الى الشجرة وذهب هو ورجاله يلتمسون الراحة أو النوم وظلت هى مصلوبة تنظر تارة الى الافق وطورا الى السماء وآونة الى النار امامها وهى غارقة فى بحار الهواجس ، وحدثتها نفسها أن تلين لسعيد وتعده خيرا ريثما ترى ما يجيء به القدر ، ولكنها علمت أنه لا يكتفى من رضاها بالكلام فقط ، فعادت الى اضطرابها وهى تنظر الى النار فرأتها قد أخذت فى الخمود فخافت أن تنطفىء فلا يبقى ما يؤانسها ، على ان خمودها جعل الأفق اكثر ظهورا فقد كانت لا ترى فيه الا ظلاما دامسا . فلما خمدت النار ظهر فى أطراف الافق بعض الاشباح من الشجر او التلال ، وكانت لفرط قلقها تحسب الاشباح اناسيا قادمين لانقاذها

□

وفيما هى تحدق فى الافق رات أشباحا تتحرك فتفرست جيدا فاذا هى هجن وأفراس عليها رجال فاستأنست بهم وهمت بأن تستنجدهم فمنعتها الانفة وعزة النفس فقالت فى نفسها : « اذا كان لى نصيب فى الحياة اتى اولئك الركب لانقاذى بالهام من الله »

وظل سعيد ساهرا يتوقع أن تسترضيه أسماء فرأى الأشباح عند الأفق وعلم أن ناره ستهديهم اليه فامر باطفائها ، فلما رات أسماء الرجال يهمون باطفاء النار أيقنت انهم خائفون ، فقالت فى نفسها عسى أن تقع عاقبة خوفهم على رؤوسهم ، واستبشرت . على انها لم تكد تفعل حتى رات سعيدا قادما نحوها والحسام مجرد فى يده وصاح وهو يحسبها لاترى أحدا قادما وقال : «هل لان قلبك الآن أم ماذا ؟ » . فلم تجب . فقال : « قولى . اجيبى . ان حياتك بين شفتيك فاما أن تعيشى سعيدة ، واما أن يجرى دمك على جذع هذه الشجرة »

فحارت فى أمرها ولم تدر بم تجيبه وهى تعلم انها إذا أجابت بالرفض ضربها بالحسام وهى مشدودة الوثاق ، فرأت المماطلة خير ذريعة لنجاتها ريثما يصل اولئك الركب عساهم أن ينجدوها . فلم تجب

فأدرك سعيد قصدها وخاف ان هو انتظر جوابها أن يصل الركب فشرع الحسام بيده وصاح بها : « قولي حالا فاما ان اسمع صوت قبولك واما أن تسمعي صوت حسامي على عنقك »

فعظم عليها هذا التهديد وهجرها التعقل ، فقالت : « لا . لا . لا ارضى !.. فاضرب عنقي والله يجزى الظالمين . ثم صاحت آه يا محمد يا ابن أبى بكر اين أنت . آه .. لو تعلم مصير أسماء »

فلما سمع سعيد قولها نزل بالسيف على عنقها وهو لا يريد قتلها لانه لا يزال يرجو رضاءها فاضطرب السيف فى يده فوقع على جذع الشجرة فوق كتفها فأصاب وثاق أسماء فانحل ، فلما رأت وثاقها محلولا ظنت نفسها فى حلم ، وادركت أنه أخطأ الضرب فانطلقت مسرعة نحوه وهى تتميز غيظا

ورأى هجومها عليه فصاح برجاله فتكاتفوا حولها بحرابهم وسيوفهم فصاحت فيهم : « اما فيكم من يرعى الذمام ويخاف الله ؟» . قالت ذلك ولاحت منها التفاتة فرأت الركب قد أصبحوا منها قاب قوسين أو ادنى ، وسمعت صوتا كالرعد القاصف وقع فى أذنها وقوع الماء على قلب الظمآن ، الا وهو صوت محمد بن أبى بكر يقول : « لبيك يا اسماء لقد جاءك الفرج .. اخسأوا يا انذال »

اما هؤلاء فما كادوا يسمعون صوت محمد ويرون معه رجاله حتى حملوا ما استطاعوا حمله من متاعهم وولوا الادبار ، وما لبثوا أن تواروا عن الابصار تاركين بعض جمالهم والهودج

ولا تسل عن أسماء وما حل بها لما سمعت صوت محمد فانها أخذت ولبثت صامتة تحسب نفسها فى منام ، حتى دنا وناداها باسمها .. فقالت : « محمد ؟. أين كنت ياحبيبى ؟. هل بعثك الله لتنجينى ؟ أفى يقظة أنا ام منام ؟ »

قال : « بل فى يقظة . ما الذى أصابك . هل من بأس عليك ؟ »

قالت : « لا بأس بى غير جرح خفيف فى زندى أصابنى وأنا أدفع هؤلاء اللئام ، ولولاه لقتلتهم جميعا ولكن السيف سقط من يدى وعثرت بعقال الجمل فشدوا وثاقى » . ونظرت فرأت مع محمد رجلا آخر لم تعرفه فخجلت لما ابدته من دلائل الحب ، فأدرك محمد مابها فقال : « لا تجزعى ، هذا محمد بن جعفر ابن أخى أمير المؤمنين ، وهؤلاء خدم سائرون فى ركابنا الى الكوفة وقد جئنا بمهمة فى خدمة أمير المؤمنين ، فاجلسى الآن واستريحى وقصى علينا خبرك » . فجلست ومحمد بن جعفر يعجب بما يبدو من همة تلك الفتاة ، وكان قد سمع من محمد حديثها وأعجب بغيرتها على الامام وعلى الاسلام ، فأحبها بالسماع .

فلما راى فيها تلك الحمية رغب فى سماع حديثها ، فجلسا وقصت اسماء ماجرى لها وهماشاخصان يزدادان اعجابا . وقص محمد ماحدث له بعد مجيء كتابها ، وقضوا الليل فى الاحاديث ، وقبل الفجر اغمضت اجفانهم ساعة فاستراحوا ، فلما انبلج الصبح وافاقوا نظروا الى ماحولهم فاذا ببقايا الهاربين . وفيها كثير من الزاد والآنية وجثة ملقاة عن بعد ، فنظر محمد اليها وسأل اسماء عنها ، فقالت : « انه أحد أولئك الطغام أدركته بضربة ذهبت بحياته »

قال : « بورك فيك ، نحن الآن ذاهبون الى الكوفة وهى على مقربة منا فهلم بنا اليها لنقضى مهمتنا ثم نذهب بك الى المدينة تقيمين بها حتى تنقضى الحرب »

فقالت وهى تنظر اليه نظر العاتب : « لعل كتابى لم يصل اليك ؟ »

قال : « لقد وصل » . قالت : « فكيف تدعونى الى الاقامة بالمدينة وقد آليت لأنصرن الامام عليا ما استطعت الى ذلك سبيلا ؟ »

قال : « لقد جاهدت وسعك ، وانت مريضة الآن » . قالت : «لابأس على باذن الله »

قال : « فلنذهب معا الى الكوفة ثم نرى ما يكون »

قالت : « لا أرى فى ذهابى اليها فائدة » . قال : « وماذا اذن ؟ »

قالت : « أنت تسير فى مهمتك ، وأما انا فأذهب الى أختك أم المؤمنين بالبصرة عسى أن أوفق الى اقناعها ببراءة الامام على فتكف عن الحرب حقنا لدماء المسلمين . ان الامر لأعظم مما تتصوره يامحمد وقد آليت على نفسى ان اضحى بكل شيء فى سبيل دفع هذه الفتنة » . فأعجب بحميتها وقال لها : « ولكننى لا ارى سعيك الا ذاهبا عبثا »

قالت : «على السعى وعلى الله التوفيق . وكيف الطريق الى البصرة ؟ »

قال : « إذا كان لابد من ذهابك اليها فانى أزودك بخبير من رجالى يسير فى خدمتك حيث تشائين » . قال ذلك ونادى مسعودا وكان فى جلة صحبه فى هذا السفر ، فجاء مسرعا فقال محمد : «هذه اسماء التى حملت الى كتابها ، وهى تريد البصرة ، فأوصلها الى معسكر ام المؤمنين وعد الى فى الكوفة »

فنهضت اسماء وأمرت مسعودا أن يهيىء الجمل . فقال : « الا تركبين الهودج ؟ »

قالت : « لا ليس ذا وقت التنعم اركبنى جملا خفيفا »

ونظرت الى محمد وقالت : « ان الوقت ثمين يا محمد ، فلنسر فى مهمتنا عسانا أن نوفق الى تلافى الفتنة »

فنهض محمد وركبوا جميعا . فسارت أسماء ومسعود نحو البصرة ، ومضى الباقون نحو الكوفة وهم يعجبون بما آنسوه من بسالة أسماء وحميتها وغيرتها

سارت أسماء تستحث جملها ، ومسعود على جمله امامها ليهديها الى الطريق ، فمضى معظم النهار لم يستريحا ولا تناولا طعاما ، فلما كان الغروب سألته أسماء عن البصرة فقال : « انها على بضع ساعات منا ، فأرى أن نبيت هنا الليلة ، لندخل المدينة صباحا » . قالت : « لا صبر لى على الانتظار ، هلم بنا ولا بأس من وصولنا الى البصرة ليلا فنقيم فى المربد »

قال : « ان جيش أم المؤمنين مخيم هناك »

قالت : « سر بنا على خيرة الله فانى انما اقصد معسكرها »

فلم يستطع مسعود مخالفتها ، وظل سائرا يتلمس الطريق تلمسا لأن الظلام كان حالكا ، واتفق أن هبت الريح وتلبدت الغيوم ، فلم يعد يرى الطريق أمامه ولا النجوم حتى يهتدى بها ، ولكنه رأى نورا بعيدا ، فعلم انه نور دير لبعض النساطرة كان قد زاره فى بعض سفراته فى تلك الانحاء ، فجعل ذلك النور وجهته واسماء سائرة فى اثره وهما صامتان لا يسمعان الا وقع أخفاف الجمال

□

وكان مسعود قلقا لمسيرهما فى هذا الظلام ، وخاف أن يعترضهما وحش او يهويا فى هوة ، وقد عجب لشجاعة أسماء وتحملها مشقة السفر . على انه ما عتم ان سمع طنين سهم فى الجو مر امام عينيه فجفل وصاح : « من ذا هناك ؟ » . ولم يتم كلامه حتى سمع صوت اسماء تقول : « آه . . قتلتنى قتلك الله ! » . فعلم ان السهم أصابها فتحول اليها وقال : « ما بالك يا سيدتى ما الذى أصابك ؟ »

قالت : « اصابنى سهم فى جنبى واظنه قاتلى » . فترجل وأناخ جملها فاذا هى تسند جنبها بيدها والسهم ما زال مغروسا فيه ، فنزعه بخفة ، فصاحت صيحة دلت على شدة تألمها ، فتحير فى أمره وخاف أن تموت أسماء بين يديه فى ذلك القفر المظلم ، فوضع يده على جرحها وضغطه بكفه وهو يرعش خوفا ثم سألها عن حالها فقالت : « انى مقتولة لا محالة . فلم ير مسعود خيرا من ان يحملها على جمله ويسرع الى ذلك الدير . فأردفها وساق جمله وقاد جملها وراءه وأسرع الى الدير ، ولما وصله وجده مقفلا وسوره عاليا لايمكن اجتيازه ، ثم

تذكر ان القوم يعلقون على الاديار اجراسا يدقها من يجيء طارقا ، وبحث عن حبل الجرس حتى وجده فدق الجرس ، ولكن لم يجبه أحد، فكرر الدق فسمع صوتا جهوريا يقول : « من الطارق ؟ » . فأجاب مسعود قائلا : « افتح ناشدتك الله واسرع الى اغاثتنا »

فقال : « من أنت ؟ » . قال : « اننا غرباء فى ضنك شديد افتح رعاك الله » . قال ذلك وصبر فلم يعد يسمع صوتا ، ونظر الى أسماء وهى مطروحة عند الباب تئن انينا عميقا فامسكها بيدها ويده ترتجف خوفا عليها فرآها باردة ، فجس جرحها فغاصت أنامله فى الدم وكان قد تخثر وملأ ثوبها فحاول أن يجلسها ليتحقق حالها فاذا هى تشخر وقد ارتخت مفاصلها فزاد اضطرابه وهم بأن يصيح ببواب الدير فرأى رأسا عاريا قد وخطه الشيب قد أطل من الكوة والمصباح فى يده ينعكس نوره على لحيته البيضاء ويقول : « أصدقنا ايها الطارق . . من أنت ؟ »

فصاح مسعود قائلا : « اننا غرباء ومعى مريض مشرف على الموت انجدنا جزاك الله خيرا »

ولم يتم مسعود كلامه حتى سمع صوت مزلاج الباب كانه شد بحبل فانفتحت خوخة صغيرة فى وسط الباب المصفح بالحديد ، فرأى مسعود أنه لا يستطيع الدخول من الخوخة واسماء على تلك الحال فسأل الراهب ان يفتح الباب كله ، وأشار الى اسماء وهى بين يديه ، فأسرع الراهب خفيفا برغم شيخوخته وجر عضادة ضخمة من خشب كان الباب موصدا بها ففتحه ، وساعد مسعودا فى نقل أسماء الى اقرب غرفة هناك ، وأجلساها على الفراش ، وخف الراهب الى رئيس الدير ليخبره الخبر . وما لبثوا حتى جاء الرئيس وهو شيخ هرم قد رق بدنه وتجعد جلده واشتعل راسه شيبا وعيناه تشعان قوة وصحة وقامته مستوية تدل على نشاط وهمة . فتقدم الى الفتاة وهى ملقاة على الفراش وسأل مسعودا عما بها فقص عليه الخبر . فأدارها على جنبها الصحيح واخذ فى كشف الجرح ، فحول مسعود وجهه عنها حياء واحتشاما ، واشتغل الرئيس وراهبه بغسل الجرح وتضميده ، وأمر بلبن فغسله به ، ثم صب عليه ماء مقدسا يحتفظون به لمثل هذه الحال وربطه ، وأمر بملاءة من نسيج الصوف فغطاها بها لتدفئتها ورش وجهها بالماء المقدس ودهنه بزيت من مصباح الدير المضيء امام صورة المسيح وهو يدعو الله ان يقرب الشفاء . وأفاقت أسماء لحظة ، ولكنها لم تقل شيئا ، ثم عادت الى الأنين . وكان رئيس الدير وهو يغسل وجهها يتفرس فى ملامحها كانه تذكر

شخصا يشبهها ، واخذ يعتذر لمسعود من الابطاء فى فتح الباب لتخوفهم من الطارقين الذين كثروا يومئذ على أثر قدوم أهل مكة الى البصرة ووقوع بعض الوقائع الحربية . فلما فرغ من تضميد الجرح تحول الى مسعود فسأله : « من الفتاة ؟ »

قال : « انها فتاة لبعض كبار الصحابة » . ولم يزد

فأعاد الرئيس نظره اليها وادنى المصباح من وجهها ، وكان قد امتقع ونحل وهي مغمضة العينين كأنها فى سبات وقال : « فهى اذن مسلمة » . قال : « نعم »

فلمح الرئيس فى صدرها حجابا اعتاد النصارى جعله على صدورهم، وكان زندها مكشوفا فرأى عليه رسم الصليب ، فالتفت الى مسعود وقال : « ولكننى أرى عليها بعض شارات النصرانية »

فضجر مسعود من تدقيقه وهو لا يهمه ساعتئذ الا شفاؤها فقال : « لاادرى ياسيدىسوى انها مسلمة فلعل لتلك الشارة سببا لاأعلمه»

فسكت الرئيس وجلس على مقعد بالقرب من فراش المريضة وهو تارة ينظر الى وجهها وطورا يطرق متأملا كأنه يبحث فى ذاكرته عن شخص يشبهها

ثم نظر الى مسعود وقال له : « امض يا بنى الى غرفة الاضياف اذا أردت طعاما ، ثم اذهب الى رقادك مطمئنا فلا يمضى علىهذه الفتاة قليل حتى تصحو وتتحسن صحتها بقوة الله وبركة صاحب هذا الدير »

فقال مسعود : « انى لا أشعر بالجوع ولا أنا فى حاجة الى الرقاد واوثر ان ابقى هنا لأرى ما يصيبها »

قال : « لا خير فى بقائك ، ولا بأس عليها لأننا ما مسحنا جريحا او مريضا بهذا الماء المقدس الا شفاه الله ، اذهب الى فراشك واذا شئت البقاء خارج الحجرة فلا بأس »

فاستحيى مسعود من تكرار الاعتذار ، فخرج وجلس على حصير وراء الغرفة

أما الرئيس ، فخلا الى الراهب واخذا يتساران ويتخاطبان بلسان نصارى العراق الكلدانى ويشيران الى أسماء . وكان مسعود لقلقه لا يغفل عن حركة تحدث ، فقلق لهذه المسارة ، واصاخ بسمعه فلم يفهم من كلامهما شيئا ، فجعل يرصد مايبدو منهما فاذا بالرئيس قد أمر الراهب فخرج ثم عاد وبيده كتاب ضخم ففتحه فقرأ وتمتم ثم

ركع الاثنان ، فعلم انهما يصليان ، فصبر حتى فرغا من الصلاة وقاما ، فرأى الرئيس دنا من اسماء وهو يمسح الماء عن جبينها ويتأملها ، ثم جلس الى جانبها ولبث ينتظر ما يبدو منها . وبعد قليل تحركت كأنها تتقلب من جنب الى الآخر ، وما كادت تفعل حتى صاحت من الالم . فسر مسعود لصياحها لعلمه انه يدل على اليقظة ، فدخل الغرفة فرأى اسماء قد فتحت عينيها ونظرت الى ما حولها فوقف بصرها عند وجه الرئيس وحاولت التفرس فيه ولكن الضعف غلب عليها فذبلت اجفانها وأطبقت عينيها ، وعادت الى الرقاد ، فأومأ الرئيس الى مسعود بيده وابتسم كأنه يقول : « ابشر انها قد أفاقت » . ففرح مسعود وظهر البشر عليه وتوسل الى الله ان يتم شفاءها . وقضت اسماء ليلتها راقدة وتنفسها هادىء

▭

وفي الصباح جاء مسعود الى غرفتها فرأى الراهب الشيخ الى جانبها يهتم بالكشف عن الجرح وتبديل رباطه ، فخرج حتى اذا فرغ الراهب من عمله نادى مسعودا فدخل ونظر الى وجه اسماء فاذا هي قد أفاقت وفتحت عينيها فحمد الله ودنا منها ، فلما رأته قالت له : « آه من النذل الذي عجز عن لقائي وجها لوجه فأراد قتلي غدرا » . وحرقت اسنانها

فقال مسعود : « لا بأس عليك يا سيدتي ولا تعبئي بما فعله ذلك الغادر على اننا لا ندري من هو »

قال : « لا ريب عندي في انه ذلك الجبان الذي حاول اختطافي فليس في هذه الديار من يعرفني سواه قبحه الله »

قال : « هل اذهب الى مولاي محمد لأروي له ما وقع ؟ »

فقطعت عليه الكلام قائلة : « لا . لا تفعل فان اخشى ما أخشاه ان يسرع الى اذا علم بما حدث ويهمل مهمته التي انفذه فيها امير المؤمنين ، وهي تمس المسلمين عامة ، فلا يليق أن نشتغل عنها بحياة فرد من افرادهم . فضلا عن اني بحمد الله في عافية ، ولا اخالني الا راكبة جملا اوجوادا الى معسكر ام المؤمنين عما قليل لأؤدي المهمة التي ندبت نفسي لها » . ثم صعدت بصرها واشارت بيدها كأنها تقول : « فقدر لي الله ان استأخر هنا الى حين » . وشفعت اشارتها بدمعتين كبيرتين انحدرتا على خديها ، ثم التفتت الى أيقونة معلقة أمامها شغلت نفسها بالنظر اليها

وكان الراهب فى اثناء ذلك مشتغلا بقراءة درج (رق) فى يده ، فيه فرض من فروض الصلاة

ولما سمع مسعود كلام أسماء وشاهد الدمع ينحدر من عينيها تأثر من منظرها واستعظم كتمانها حالها عن محمد ، فقال لها : « كيف اكتم عنه حالك وقد عهد الى فى العناية بك ؟ »

قالت : « افعل ما اقول لك . اتركنى هنا واذهب اليه لعله يحتاج اليك فى شىء ، وانا لا باس على فى هذا الدير فان أصحابه أهل ضيافة ورعاية ، وقد صرت على مقربة من معسكر أم المؤمنين ، وبعد أيام انقه من جرحى فاذهب اليها والاتكال على الله »

فتركها ومضى الى غرفة الرئيس ، فرآه خارجا ، فسأله عن رأيه فى جرح أسماء ، فطمأنه بألا خوف منه ، وبأنه سيتولى العناية بها حتى تشفى

وبات مسعود هناك ، وفى الصباح خف الى رؤية أسماء فسر لتحسن حالها ، ثم ودعها ومضى وهى تلح عليه فى ان يطمئن محمدا عنها



عود إلى السر

قضى رئيس الدير نهاره وليله ينظر الى اسماء ، ويجهد فكره لعله يتذكر عنهـا شيئا فلم يفتح عليه ، ثم خرج لوداع مسعود وعاد اليها وكانت قد تعبت من الرقاد وجلست في الفراش ، فلما دخل نظرت اليه وتاملت وجهه فتذكرت انها راته مرة قبل ذلك في دمشق يوم سفرها منها مع أمها الى المدينة . وكانت قد لحظت تفرسه فيها ، فلما عاد من وداع مسعود جلس على طنفسة بقرب فراشها فنظرت اليه وقالت : « الا تذكر ياحضرة الاب المحترم انك رايتني قبل الآن ؟ »

قال : « هـذا ما شـغل بالي منذ اتيتنا امس ، ولكنني لا اذكر اين رايتك »

قالت : « أظنك رايتني في دمشق في العام الماضي »

فلما سمع قولها انبسطت اسارير وجهه ، وتفرس في وجهها وقال : « نعم ، نعم . رايتك مع امك وقدجئتما الى كنيسة ماريوحنا في دمشق لزيارة القسيس مرقس الشيخ البار . نعم اذكر ذلك . اين امك ؟ »

فلما سمعت اسماء ذكر أمها ترقرقت الدموع في عينيها فبادرت الى مسحها بطرف كمها وسكتت

فأدرك الرئيس ان هناك أمرا محزنا دعاها الى البكاء فسكت قليلا ثم قال : « هل اصابها سوء ؟ »

فقالت وهي تبكي : « نعم يا سيدي انها ماتت وا أسفاه عليها ولولا مماتها .. » . وشرقت بدموعها

فأطرق الرئيس ونظر الى الراهب ، وكان ما زال جالسا ، واشـار اليه أن يخرج من الغرفة ففعل . فلما خلا الرئيس الى اسـماء جعل يخفف عنها ويعزيها حتى هدأ روعها ثم قال لها : « وهل عرفت اباك ؟ »

فلمـا سمعت سـؤاله آنست من ورائه نورا لعلهـا تهتدي به الى استطلاع ذلك السر الذي كانت تظنه دفن مع امها . فقالت : «لا ياسيدي لم اعرفه وهل تعرفه انت ؟ » . فسكت ثم قال : « لا يا ابنتي ، لست اعرفه ولكن » . وسكت

فقالت : « ولكن ماذا ؟ قل ياسيدي ان معرفته تهمني كثيرا ، وقد

كنت احسب امر ابى مكتوما عن كل بشر سوى امى . ولما توفيت حسبته ضاع ودفن معها . فكيف عرفت انت ان أبى مجهول ، وقد كان ذلك سرا مكتوما عن كل انسان على ما اعلم ، فاطلاعك عليه يستلزم معرفتك حقيقته ، فهل تعرف شيئا عنه ؟ » . قالت ذلك بلهفة

فلبث الرئيس الشيخ صامتا يجيل اصابعه فى لحيته كانه يكتم أمرا ود لو انه ظل كذلك . ولكنه لما رآها متلهفة قال لها : « صدقينى يا ابنتى انى لا اعرف من هو ابوك ، ولكننى أعلم ان الذى كان مع أمك يوم رأيتك فى كنيسة ماريوحنا بدمشق ليس اباك »

قالت وهى تخفض صوتها احتراما لمقام الرئيس وشيخوخته : « وكيف عرفت ذلك ياسيدى ؟ ربما لايهمك امر هذا السر مطلقا ولكنه يهمنى كثيرا لأننى علمت كذلك ان يزيد الذى كان مع امى رحمة الله عليها ليس ابى ، وان لى اباغيره كانت امى قدوعدتنى بذكره فقضى الله بموتها قبل وصولنا واحسرتاه عليها . . فظللت مجهولة النسب . وأظن ان الله قد اراد كشف هذا الذل عنى على يدك » . قالت ذلك وهمت بتقبيل يده وهى تقول : « اتوسل اليك ان تطلعنى على ماتعرفه فى هذا الشأن »

وكانت تتكلم والرئيس مطرق، فلما انتهت من كلامها رفع نظره اليها وقال : « قلت لك يا ابنتى انى لا أعرف من هو ابوك ، وأما كيف عرفت ان لك ابا غير يزيد ، فلهذا قصة لا بأس بأن أرويها لك لعلها تفيدك »

فاعتدلت اسماء فى مجلسها ويدها على جنبها المجروح تضغطه تخفيفا للألم واصغت لما يقوله الرئيس

فقال : « اتذكرين يوم جاءت أمك الى كنيسة ماريوحنا فى دمشق وكنت انت معها فتركتك مع زوجها خارجا ، ودخلت هى لوداع القسيس الشيخ مرقس قسيس الكنيسة ثم خرج بعد ذلك لوداعك؟ »

قالت : « نعم ياسيدى اذكر ذلك الشيخ الهرم وخروجه لوداعنا »

قال الرئيس : « قد كنت انا يومئذ ضيفا عنده ، فلما عاد رايت على وجهه آثار القلق ، فقلت له : (مابالك ؟) . فقال : (ان لهذه المرأة سرا عهدت به الى منذ بضع وعشرين سنة ، وهى الآن شاخصة الى المدينة لتبوح به هناك، واخشى لضعفها ومرضها ان تموت قبل وصولها فاذا حدث ذلك ظل الامر مكتوما عندى وجدى ، وأرانى قد شخت وربما دنا اجلى فيذهب السر ضياعا وهو يهم ابنتها التى كانت معها) . فقلت له : (أهو سر اعتراف ؟) . قال : (نعم) . فقلت : (لاسبيل اذن الى كشفه لى ، ولكننى اود ان اعرف موضوعه بحيث لايكون فى ذلك ما يعد اباحة) . فتردد كثيرا قبل ان يجيبنى ثم قال : (ان الفتاة

التى رأيتها مع هذه المراة هي ابنتها ، واهل دمشق يظنون هذا الرجل اباها ، ولكنه ليس كذلك » . فقلت : « ومن هو أبوها اذن ؟ » . قال : « لا استطيع كشف هذا السر الآن ، ولكنه سيظهر بعد قليل لأن المراة منطلقة بنفسها لكشف امرها لاصحاب الشأن في يثرب ــ المدينة ــ لأن ابا الفتاة الصحيح احد كبار المسلمين هناك » . . »

فبغتت أسماء وخفق قلبها ، فصعد الدم الى وجهها فتورد بالرغم من ضعفها وتطاولت بعنقها لسماع الحديث . فلما وقف الرئيس عند هذا الحد قالت بلهفة : « وما هو اسمه ؟ » . قال : « لا أعلم يا ابنتى ولم اسأل القسيس عنه لعلمى انه لايبوح به حفظا لسر الاعتراف »

فبهتت وقد عاد اليها اصفرارها للهفتها وتأثرها وقالت : « وكيف يكون ذلك وأنا لا أعرف يثرب قبل هذه المرة ، ولم أسمع أمى تذكرها ! »

قال : « علمت يا ابنتي ان أمك كانت تبالغ في اخفاء هــذا الامر عن كل انسان ، لأنها رومانية الاصل حملهـــــا بعض قواد المسلمين الذين فتحوا الشام فى جملة الســبايا وأهداها الى أبيك ، فمكثت عنده بضع ليال ، ثم قدم عليها أخوها خلسة وحرضــها على الفرار ، ففرت الى دمشق ، ولم تستطع الظهور خوفا من العيون فيممت مصر . فظهر حملها هناك وقبل أن تضعك طلبت القسيس مرقس وكان فى كنيسة المعلقة ، وكانت تعرفه من الشام واعترفت له بسرها ، وذكرت له اسم أبيك . ثم كانت الحرب بمصر ففتحها العرب ، وقتل خالك ، ووقعت أمك بين السبايا ثانية وأنت طفلة ، فتزوجها يزيد الذى تعرفينه وأقام بها بدمشق وأنت معها . فلا تعجبى لاغفالها ذكر أبيك لأنها كانت تعد نفسها مجرمة ، وتخشى اذا عرف مكانها أن يقتص منها »

ولم يتم الرئيس كلامه حتى استولت البغتــة على أســماء وعرتها الدهشة ولبثت صامتة وهى تأمل أن يكون الرئيس عارفا اسم أبيها ، فتوســلت اليه أن يخبرها به . فأكد لهــا انه لايعرفه ثم قال : « اذا لقيت القسيس مرقس فى دمشق فانه يطلعك عليه ، وربما أطلعك على أمور كثيرة ، فأسرعى اليه حال شفائك قبل ان يقضي أجله لأنه شيخ طاعن فى السن . أنظرى الى شيخوختى واعلمى انى اذا قيست الاعمار بالسنين كنت أصغر من أولاده »

وكانت أسماء قد تعبت من الجلوس فلما يئست من معرفة اسم ابيها من الرئيس غلبها التعب على أمرها فألقت بنفسها على الفراش وتنهدت تنهدا عميقا وهى صامتة تفكر فيما سمعته ، واشــتاقت نفسها الى المسير الى دمشق ، لعلها تلقى القسيس فيقص عليها الخبر

وقعة الجمل

قضت اسماء فى الدير اياما تتقلب على فراش الوجع والقلق ولا تدرى اذا هى شفيت هل تسير الى دمشق لمقابلة القسيس أم الى أم المؤمنين لأداء مهمتها . وكانت تتململ لانحباسها فى الدير فلم تستطع الوقوف والخروج الى فناء الدير الا لتتمرن على المشى

وصعدت ذات يوم الى سطح الدير فأطلت منه على سهل واسع رأت فى آخره مما يلى البصرة معسكرا فيه الخيام والاعلام وحوله الجمال ترعى فى بعض المغارس ومعها العبيد ، فعلمت انه معسكر أم المؤمنين فى ضاحية البصرة ، وكان الوقت أصيلا فجعلت تفكر فيما تنويه من مخاطبة أم المؤمنين وما تتوقع ان تسمعه من دفاعها وتهيىء الرد عليه . وبقيت غارقة فى تصوراتها حتى مالت الشمس الى المغيب فنظرت اليها وقد كبر جرمها وتكورت ومالت الى الاحمرار. فاشتغلت بالنظر الى الافق والتمتع بذلك المنظر البديع . ولم تكد تغيب الشمس حتى أحست بالبرد فدخلت تلتمس الدفء فى الفراش ، فباتت تلك الليلة وهى تتوقع أن تصبح ناقهة فتنظر هل تسير الى معسكر أم المؤمنين أم الى الشام

فلما أصبحت شعرت بنشاط ، ولكنها لم تأنس من نفسها القدرة على ركوب الجمل او الجواد . فلم تر بدا من الاصطبار حتى يتم التئام الجرح وتتقوى ، فالتمست من رئيس الدير ان يأذن لها فى الخروج للرياضة فى بساتين الدير ، فأذن لها فخرجت وحدها الى البستان تمشى الهوينى ، فابتعدت عن الدير مسافة طويلة وهى لاتدرى ، فانكشف لها من الافق قسم كان مستترا وراء التلال فرأت فيه خياما وأعلاما وجمالا وعبيدا ، وما كادت تتفرس فى ذلك الحشد العظيم حتى علمت انه معسكر الامام على فخفق قلبها ومشت قليلا حتى دنت من اكمة صعدت اليها وجعلت تتأمله ونفسها تحدثها بالذهاب اليه لعلها ترى محمدا فيه أو تسمع شيئا عنه ، على انها تشاءمت من قدوم جيش الامام لأنه نذير الحرب

وبينما هى هكذا ، اذ سمعت صوت رجل يزجر جملا على مقربة منها التفتت فاذا ببعير سائب يعدو ورجل يركض فى أثره يستنجد الناس

ليعينوه على القبض عليه ، فلم يسع أسماء السكوت مع ضعفها فاعترضت الجمل ليرجع ، وكان قد جمح ولكنه ظل مسرعا فى سبيله فركضت نحوه وتعلقت بعنقه لأنه لم يكن له رسن فظل راكضا وأسماء ممسكة عنقه بذراعيها كأنها تحاول الصعود الى ظهره . ولكنها ما لبثت ان شعرت بخور قواها واحست كأن شيئا تمزق فى مكان الجرح واشتد بها الالم حتى لم تعد تستطيع صبرا عليه . وكان البعير فى أثناء ذلك قد قلل سرعته فادركه صاحبه وامسك بعنقه حتى اناخه ، فسقطت اسماء الى الارض لا تعى من شدة الالم

وكان صاحب البعير شابا من عبد القيس احدى القبائل التى انجدت عليا وجاءت معه للحرب ، فلما رأى أسماء ساعدته فى القبض على بعيره ثم رأى ما ألم بها من التعب حتى سقطت خائرة القوى ، شعر بأنه السبب فيما أصابها فدنا منها واجلسها وقد بهره جمالها واعجبته هيئتها فكلمها فأفاقت ويدها على جنبها تتقى الالم . ولما رأت ذلك الغريب بجانبها علمت انه صاحب البعير . اما هو فحالما نظرت اليه هابها ، ولم يسعه الا الاعتذار عما اصابها بسببه

اما هى فتجلدت وضغطت جنبها بيدها واغتنمتها فرصة لاستطلاع أمر ذلك الجند ، فقالت له : « ممن انت ؟ » . قال : « من عبد قيس »

قالت : « ومن هؤلاء الجند الذين امامنا ؟ »

قال : « أما سمعت بما قام بين الامام على وأم المؤمنين »

قالت : « سمعت وعلمت ، وهل هذا الجند هو جند الامام على ؟ ».

قال : « نعم ونحن فى نجدته لاعتقادنا فضله على سائر الناس »

قالت : « وكم عدد رجاله ؟ »

قال : « عشرون الفا بين راجل وفارس »

قالت : « أتعلم عدد جند أم المؤمنين ؟ »

قال : « اظنهم ثلاثين الفا »

فبهتت وهى تفكر فى الفرق بين الجيشين ، والالم يمنعها من مواصلة الكلام ، على انها تشددت وقالت : « ولمن ترى الغلبة ؟ »

فابتسم الشاب وقال : « لقد قضى الامر امس »

قالت : « ماذا تعنى ؟ » . قال : « لقد تم الصلح وانصرف العداء »

فبغتت اسماء ولم تصدق مقاله فقالت : « وكيف ذلك ؟ اصدقنى الخبر » . وشعرت مذ سمعت خبر الصلح بنشاط ساعدها على النهوض ، فمشت وهى تخاطب الرجل حتى جلست على حجر تحت شجرة ، واسندت ظهرها اليها وضغطت الجرح بكفها فوق اثوابها فأراد

الرجل ان يشرح لها أصل العداء لظنه انها خالية الذهن منه ، فابتدرته قائلة : « لا تشرح القصة فانى أعلمها ، ولكن أخبرنى كيف تداعوا الى الصلح »

فعجب الرجل لعلم أسماء ، وود لو يعرف من هى ، ولكنه اجابها عن سؤالها قائلا : « وصل جيشنا الى هنا أمس ، فلما تقابل الجيشان خرج من جيش ام المؤمنين طلحة والزبير على فرسيهما يطلبان المبارزة فخرج اليهما الامام على حتى اختلفت أعناق دوابهم ونحن ننتظر عاقبة ذلك الملتقى ، لأنه سيكون قاضيا اما علينا واما لنا ، فتجاولوا مدة ونحن ننظر اليهم لنرى مايبدو منهم ، فاذا هم وقوف يتخاطبون. وعلمنا بعد رجوع الامام انه لما لقيهما قال لهما : (لعمرى قد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ، ان كنتما أعددتما عندالله عذرا فاتقيا الله ولاتكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا . الم اكن اخاكما فى دينكما تحرمان دمى واحرم دمكما ، فهل من حدث احل لكما دمى) . فقال طلحة : (البت على عثمان) . قال على : (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق. ياطلحة تطلب دم عثمان ، فلعن الله قتلة عثمان ، ياطلحة أجئت بعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك فى البيت ، أما بايعتنى ؟) . قال : (بايعتك والسيف على عنقى) . وقال على للزبير : (ما أخرجك؟) قال : (أنت ولا اراك لهذا الامر أهلا ولا أولى به منا) . فقال له على : (الست له أهلا ، قد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا) . وذكره أشياء وقال له : (أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى غنم فنظر الى فضحك وضحكت اليه فقلت له : (لايدع ابن أبى طالب زهوه) . فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليس بمزه ، لتقاتلنه وانت ظالم له) . فقال الزبير : (اللهم نعم ولو ذكرت ما سرت مسيرى هذا ، والله لا اقاتلك أبدا)

« وهكذا عاد الامام الينا بالخبر ، وتوسمنا خيرا من ندم أولئك على عملهم ، ثم علمنا ان الزبير لما رجع من ساحة المبارزة سار توا الى أم المؤمنين فقال لها : (ماكنت فى موطن منذ عقلت الا وانا اعرف فيه أمرى ، غير موطنى هذا) . فقالت له : (ما تريد أن تصنع ؟) . قال : (أريد أن ادعهم وأذهب) . فوبخه ابنه عبد الله وقال : (جمعت بين هاتين الفئتين ، حتى اذا حدد بعضهم لبعض ، اردت أن تتركهم وتذهب ، ولكنك خشيت رايات ابن أبى طالب ، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ، وان تحتها الموت الاحمر فخفت) . فاعتذر الزبير بأنه حلف الا يقاتل عليا ، ثم تفاوضوا بعد ذلك مع طلحة وغيره ، فتم الاتفاق على الصلح ، وبتنا ليلتنا البارحة والقلوب هادئة ، وكل فرح بما حقن من دماء المسلمين »

فلمـا سمعت اسـماء كلام الرجل اشرق وجههـا وابرقت أسرتها ونسيت ألمها وضعفها ، وقالت : «بشرك الله بالخير يا اخا عبد القيس» . وارادت الاستفهام عن محمد ومقامه ، فقالت : « وهل جاء أهل الكوفة لنصرة الامام ؟ »

قال : « لقد جاءوا بعد ان ترددوا كثيرا »

قالت : « كيف يترددون فى نجدة أمير المؤمنين ؟ »

قال : « ذهب اليهم اولا محمد بن ابى بكر ومحمد بن جعفر ، فلقيا أبا موسى الاشعرى عامل الكوفة ، فكلماه ففضل القعود على المسير ، فعادا بذلك الى الامام فأرسل الاشتر وابن عبـاس ، فعادا ولم ينالا وطرا ، فأرسل ابنه الحسن وعمارا بن ياسر فجاءا الـكوفة ، وكانت عائشة قد ارسلت رسلها تدعو الناس الى نجدتها ، وظل ابوموسى يحرض الكوفيين على القعود فلا يسيرون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، فجادلهم الحسن حتى اقنعهم بأن يقوموا لنصرة أمير المؤمنين فجاء منهم تسعة آلاف »

فأدركت اسماء من حديثه ان محمدا فى معسكر الامام على ، وكانت قد تعبت من الجلوس على الحجر فنهضت تلتمس الدير لمداواة الجرح لأنها شعرت وهى قابضـة عليه أن الدم يسيل منه . فأحس الرجل بمرادها فأراد مساعدتها فى المشى فأبت فرافقها حتى دنت من الدير فودعها وعاد بجمله يطلب المعسكر

أما هى فالتمست حجرتها فلقيها الرئيس عند البـاب فسـألها عن حالها فقصت عليه حديث الجمل ووقوعها . فهم بالجرح فأعاد تضميده وبشرها بألا خوف منه ، فلبثت تفكر فيما سمعته وكانت كلما تمثل لها وقوع الصلح يكاد قلبها أن يطير فرحا لنجاتها من مصائب كثيرة وحقن دماء الناس . على أنها وهى فى وسط هذه المـرات تذكرت ما سمعته من الرئيس عن أبيها ، فانقبضت نفسها مخافة أن يضيع خبره ، فصممت عزمها على أن تسـافر الى دمشق حالمـا تستطيـع الركوب ، لتقابل القسيس الشيخ وتعرف منه من يكون أبوها

□

قضت اسماء اياما وهى تتوقع فى كل يوم أن ترى محمدا آتيـا الى الدير لمشاهدتها ، لعلمها ان مسعودا قد اطلعه على ما اصابها ، فلابد من مجيئه ولاسيما انه على مقربة منها . فلمـا مضت ايام ولم يأت ايقنت ان مسعودا لم يره بعد ذهابه من الدير . وكان الجرح قد التأم فلم تر بدا من لقاء محمد لتخبره بعزمها على المسير الى دمشق وتسـأله دابة تركبها وخادما يسير فى ركابها . ولكنها تذكرت الحسن وما لحظت منه

يوم كانت فى المدينة فخافت الا يرضى محمد بذهابها الى المعسكر فعزمت على استقدامه اليها ، فكتبت ورقة بذلك واستاذنت رئيس الدير فى ارسال أحد خدمه بها ، فجاءها ببعضهم ، فاختارت أحدهم وافهمته كيف يسير والى من يسلم الورقة ودلته على الجهة التى يلقى فيهاجيش الامام على

فخرج وجلست هى فى فراشها تنتظر رجوعه ومحمد معه . وكلما تصورت لقاءها محمداً اختلج قلبها فى صدرها واعدت عبارات تخاطبه بها تسفر عما فى نفسها ، وقد أهمها من الصلح انقضاء تأجيل الزواج فأخذت تعد نفسها بالسعادة المستقبلة ولاسيما اذا تمكنت من معرفة اسم ابيها الصحيح

قضت ساعة وبعض الساعة فى مثل هذه الهواجس وهى كلما سمعت سعال رجل او وقع اقدام او جعجعة بعير او صهيل فرس ظنت رسولها عائداً ومعه محمد . ولم تعد تستطيع صبراً على الانتظار فصعدت الى سطح الدير تستطلع قدومه عن بعد ، ولم تكد تخطو خطوتين فوق السطح حتى رات رسولها راجعا يعدو ويلتفت وراءه ، فاضطربت ولبثت تنتظر وصوله فما عتم أن وصل وهو يلهث من شدة الجرى . فقالت : « ما وراءك ؟ » . قال : « خرجت من الدير الى الجهة التى رسمتها لى ، فما وصلت الى المكان حتى رأيت النبال تتطاير فى الجو ، فلما أشرفت على المعسكر رأيت الحرب محتدمة »

فبغتت أسماء وقطعت كلامه قائلة : « الحرب ؟ . بين من ، ومن ؟ »

قال : « سألت بعض العبيد ممن كانوا يلتقطون النبال المتساقطة خارج المعسكر ، فأخبرنى ان قد نشب القتال بين الامام على وعائشة ، وكانوا قد ابرموا صلحا فنقضوه »

قالت : « لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ومن نقضه .. ؟ »

قال : « لا ادرى ولكن العبد اخبرنى أنهم باتوا على الصلح فأصبحوا فاذا بجيش عائشة على الحرب » . فقالت : « الم تلق محمداً ؟ »

قال : « وكيف القاه وانا لم استطع الدنو من المعركة مخافة ان تصيبنى النبال فاموت ولايبقى من يرجع اليك بالخبر . فثارت الحمية فى رأس أسماء ولم تر بدا من العدول عن دمشق الى معسكر أمير المؤمنين لتكلمها فى الرجوع الى الصلح قبل أن يتفاقم الخطب »

فسألت رئيس الدير عن دابة تركبها فقال : « ان خادمك الاول ترك هنا جملك الذى جئت عليه »

قالت : « اين هو ؟ » . فأمر الرئيس باعداده للركوب ، وذهبت أسماء الى حجرتها وجعلت ثيابها على شكل مشابه ثياب الرجال ، وشدت

وسطها بمنطقة عريضة والتفت بعباءة وغطت راسها بكوفية وتقلدت حساماكان قد أعطاها اياه محمد يوم سفرها مع مسعود، وركبت الجمل، وولت وجهها نحو معسكر ام المؤمنين، وكان الوقت ضحى وهي للهفتها لم تودع الرئيس حتى اذا بعدت عن الدير تذكرت ذلك فالتفتت اليه واشارت بالسلام بيدها وراسها . ولم تبعد عن الدير قليلا حتى أطلت على المعركة فرأت السهام تتطاير من كل جانب حتى كادت تحجب اشعة الشمس بدلا من الغبار ، لأن الجو كان قد أمطر في ذلك الصباح فنماسك التراب . ووقفت هنيهة ريثما تعرف الطريق الذي يؤدي الى ام المؤمنين . فرأت الرجال يهرعون يمينا وشمالا وفيهم المشاة والفرسان وسمعت النساء من وراء الجمع يحرضن الرجال على الثبات ، وكان الجو صافيا لاغبار فيه فجعلت تتفرس في الرجال عساها أن ترى محمدا فلم تره ، ولكنها أدركت ان النصر للامام علي لأنها رأت رجاله يتقدمون ، والآخرين يفرون أمامهم ويعثر بعضهم بجثث جرحاهم وقتلاهم ، فأجالت بصرها لعلها ترى فسطاط عائشة لتسرع اليها وتخاطبها في الكف عن القتال ، فلمحت مروان بن الحكم على فرسه يتعقب فارسا آخر علمت انه طلحة وقد رماه مروان بسهم في رجله فشكها في صفحة الفرس . ثم رأت طلحة حول عنان جواده نحو البصرة وترك الجيشين يقتتلان ، فعلمت انه انما ذهب اليها لجرح بليغ أصابه ، فتأكدت فشل جند مكة . ولكنها عجبت لما فعله مروان بطلحة وهما من جند واحد . على انها أولت فعله بطمعه في الخلافة لبني أمية ، وعلمه بأنها اذا خرجت من يد الامام علي ، فلن تكون لغير طلحة أو الزبير ، فاذا قتل هذان فلا يبقى من يتنافس فيها بني أمية

▭

وبينما هي تتأمل حركات الجيش وتسمع ضجيج الناس ومقارعة السيوف والرماح وصهيل الخيل ، رأت في معسكر أم المؤمنين فسطاطا كبيرا علمت انه فسطاطها ، ولكنها لم تر ازدحاما فارتابت في أمره ، ثم لمحت جمعا متكاثفا حول هودج فوق بعير فعلمت من لون الهودج وشكله انه هودج أم المؤمنين فساقت جملها اليه ، ولكنه لم يسعفها ، ثم رأت فرسا تائها خارج المعركة فأسرعت اليه وركبته ، وسارت تلتمس الهودج ، ولم تكد تصل الى وسط المعركة حتى رأت فارسا خارجا منها يطلب عرض البر لا يلتفت وراءه ، فعرفت انه الزبير وتذكرت انه اقسم ألا يحارب عليا ، فقالت في نفسها : « قد فر الزعيمان ولا اخال أم المؤمنين اذا علمت ذلك الا آمرة بالكف عن القتال» . فاخترقت

المعركة لاتبالي مايتساقط عليها من النبال او يعترض فرسها من جثث القتلى والجرحى ، ولم تدن من الهودج حتى سمعت ام المؤمنين تصيح بصوتها الجهوري وتنادي احد رجالها وقد مدت يدها من الهودج وفيها المصحف وهي تقول : « اليك ياكعب . ادع الناس الى هذا المصحف » . فلم يكد الرجل يتناوله حتى أصيب بنبل فقتل . وكانت أسماء قد وصلت الى الهودج فرات الرجال حائمين حوله وعائشة تقول : « ايها الناس ، العنوا قتلة عثمان واشياعهم »

فترجلت اسماء واقبلت الى الجمل فرات الهودج قد اصبح كالقنفد لكثرة ماغرس فيه من السهام المتساقطة ، وارادت التسلق على الجمل لتلقى عائشة في الهودج فاعترضها بعض الرجال ، فأزاحت لثامها ونادت ام المؤمنين ، فعرفت صوتها فاذنت لها ، فقال قائل من الوقوف : « هبى اننا اذنا لك بالصعود على الجمل تسلقا فهل تستطيعين ذلك » . فتذكرت ما اصابها من تسلق جمل الامس، فعادت الى فرسها واتصلت منه بالهودج ، وام المؤمنين تعجب لوجودها هناك . اما أسماء فترامت على قدمي أم المؤمنين وهي تقول والدمع ملء عينيها : « أشفقي يا أماه على اولادك ، احقني دماءهم ، ارحمي ابطالا يوحدون الله ، لقد كفى ما اصابهم من البلاء ، فمري بالكف عن القتال ، ان السلام بين شفتيك وانت ام المؤمنين وزوج رسول رب العالمين . ثم ان طلحة والزبير اللذين اضرما نار الفتنة قد فرا من المعركة ، فانهضي واطلى على الجندين وانظري القتلى من الفريقين »

وكانت اسماء تتكلم بخشوع وتذلل ، وهي جاثية عند قدمي عائشة . وكانت عائشة في ابان اضطرابها لاتملك وقتا للنظر في الامر والناس حول هودجها يتلقون مايتساقط عليه من السهام حتى قتل عند خطام الجمل اكثر من اربعين رجلا . فنظرت الى اسماء وقد اثر فيها كلامها ، مع ما توسمته من فشل جندها وقالت : « لقد كنا على موعد للصلح ، فلا ندرى ماحملهم على نقضه ؟ »

فقالت اسماء : « انهم يقولون بأنكم الناقضون »

قالت : « كلا . لقد بتنا مصالحين ، فأصبحنا واذا هم يقاتلوننا »

قالت اسماء : « ان في الامر دسيسة فلعل بعض الاعداء سعى فسادا فاوقع الشقاق بينكم ، وعلى كل حال ان الصلح قريب وتكفي كلمة منك لحقن الدماء »

قالت ام المؤمنين : « لقد قضى الامر ولم يعد الرجوع مستطاعا ؛ فلا تلتمسي ذلك مني » . قالت ذلك وفي لهجتها وملامحها مايزجر أسماء عن الكلام . فصمتت وعادت عائشة الى استنهاض القبائل حتى أصبح

كل من بقي من رجالها يدافع عن جلها

وهمت اسماء بالنزول من الهودج ولكنها لم تجسر تهيبا من عائشة ، ثم سمعت صوت علي يقول : « اعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا » . ولم يكد يتم امره حتى احست اسماء بسقوط الجمل وهو يهدر من الالم ، فعلمت انهم عقروه ، فهمت بالخروج من الهودج ، ولكنها أطلت قبل ذلك فرات كل من حوله من الرجال تفرقوا وعلي يقول لرجاله : « ارسلوا من ينادي في الناس الا يتبعوا مدبرا ولايجهزوا على جريح لايدخلوا الدور » . ثم قال : « احملوا هذا الهودج من بين القتلى » . حملوه وهي ما زالت فيه مع أم المؤمنين، وهذه غافلة عنها لعظم ما الم بها . وكانت اسماء تنظر اليها وهي متهيبة خشية ان تنتهرها وربما لاتستطيع جوابا . ثم سمعت عليا يقول : « يا محمد يا ابن ابي بكر ، اضرب على أختك قبة ، وانظر هل وصل اليها شيء من جراحة »

فلما سمعت ذكر محمد وما أمره به علي ، لبثت تنتظر ان تراه مطلا من الهودج وقلبها يخفق . اما هو فلما ادخل راسه في الهودج ورأى أسماء مع اخته ، ذهل ، ولكنه تجلد ولم يكد يتكلم حتى سمع اخته تقول : « من انت ؟ » . قال : « اخوك »

قالت : « الحمد لله الذي عافاك »

واشار محمد الى أسماء أن تخرج ، فخرجت ونظرت الى ماحولها فرات الارض قد خلت من الناس غير من قتل أو جرح جرحا بليغا فلا يستطيع المسير . وسمعت انين الجرحى ورات الدم جاريا قنوات، والخيل والنوق سارحة بعضها يعرج وبعضها يهدر من الجراح ، ورات في بعض تلك الدواب سهاما لاتزال مغروسة في رقابها أو اعجازها . وكان المنظر رهيبا محزنا مؤثرا . وفيما هي تنظر في ذلك اذ رات عليا دنا من هودج أم المؤمنين وقال : « كيف انت يا أماه ؟ »

قالت : « بخير »

قال : « يغفر الله لك » . قالت : « ولك »

ثم امر اخاها ان يدخل بها البصرة لتستريح

وفيما هو يتكلم راى اسماء واقفة فعرفها . فلما راته ينظر اليها لمت بيده فقبلتها وقد علتها البغتة واحمرت وجنتاها خجلاً فقال : اين كنت يا أسماء ؟ »

ثم سمع صوت أم المؤمنين تقول من داخل الهودج : « اكرموا هذه الفتاة ، فوالله اني ما رايت اكثر غيرة منها على الاسلام ولا اصدق لهجة في الدفاع عن الحق ، وهي انما خاطرت بحياتها واتتني تحت النبال متساقطة تلتمس الكف عن القتال »

فخجلت أسماء لهذا الاطراء واطرقت ، فقال لها علي : « بورك فيك يابنية ، اني توسمت فيك هذا الخير منذ رأيتك للمرة الاولى . تعالى »

ثم سار وسارت فى اثره وهى مطرقة ، وهو فى شاغل بأمر الجرحى ، والامر بدفن القتلى . ثم علم ان طلحة والزبير قتلا فأخبرته اسماء بما راته من مروان . فقال : « لاتعجبى ممن كان سبب هـذه الفتنة ان يفعل مثل ذلك »

وظلوا سائرين الى البصرة حتى دخلوها ، فنزل علي فى دار العامل بقرب المسجد ، وتواردت الناس لمبايعته وقدسلم الامر له وخلا له الجو

ونزلت اسماء فى تلك الدار مع بعض النسوة ممن جئن مع الامام ، وكانت عرفتهن أثناء اقامتها بالمدينة . وظلت أياما تحاول أن ترى محمدا دون أن تستطيع ذلك ، اذ شغله الامام علي بأمر العناية باخته ام المؤمنين ، فلم يكن يستطيع التخلي عنها ، فرأت أن تسير هي اليه بحجة زيارة أم المؤمنين

فلما التقيا ، سألته عما أقعده عن زيارتها مع علمه أنها كانت جريحة فى الدير ، فاستغرب قولها واكد لها انه لم يكن يعرف عنها شيئا ، لأن مسعودا لم يعد اليه وهو لايعرف مقره ثم قال : « ها قد انقضت الحرب وانتصر الامام والحمد لله ، وآن لنا السكون والاجتماع »

فسكتت اسماء وقد ادركت انه يشير الى الزواج ، ثم قالت : « ولكننى على اهبة السفر الى الشام »

قال : « ولماذا ؟ » . قالت : « لأعرف اسم أبى »

قال : « وكيف ذلك ومن يخبرك عنه ؟ » . فقصت عليه خبر رئيس الدير ، فعجب واصبح اكثر منها اشتياقا لمعرفة ابيها وارتفع مقامها فى عينيه لما علم انها ابنة أحد كبار الصحابة فى المدينة ، فقال لها : « لايبعد ان تكون بيننا قرابة قبل القرابة التى نسعى فيها اليوم »

فعاودها الخجل، وغيرت مجرى الحديث فقالت : «وكيف أم المؤمنين؟ »

قال : « هى فى خير وقد أمرنى الامام باعداد مايلزم لسفرها الى مكة ، وها انى أعد ذلك ، وقد جهزت لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ليسرن معها ، فاذا سافرت . . »

ولم يتم كلامه حتى رأى الناس فى هرج يصيحون : « جاء أمير المؤمنين » . ثم وصل علي ، وكانت عائشة قد تهيأت للسفر واعد لها الهودج ، وجاء الناس لوداعها فخرجت لوداعهم ، فلما رات عليا قالت وهى تنظر الى الناس : « يابنى ، لايعتب بعضنا على بعض ، انه والله ماكان بينى وبين علي فى القديم الا مايكون بين المرأة وبيت أحمائها ، وانه على معتبى لمن الاخيار »

فقال علي : « صدقت والله ، ماكان بيني وبينها الا ذاك ، وانها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة » . ثم قال لمحمد : « سر يامحمد مع اختك الى مكة »

فلما سمعت اسماء هذا الامر اضطرب قلبها ونظرت الى محمد ونظر هو اليها ففهم كل منهما ما في ذهن الآخر

□

وكان الحسن قد جاء مع ابيه لوداع ام المؤمنين ، فراى اسماء وقد علم بما اظهرته من الغيرة على الاسلام فازداد حبه لها وصمم على خطبتها وهو لايعلم ما بينها وبين محمد . ثم علم ان اباه عازم على السير الى الكوفة لأخذ البيعة كما اخذها في البصرة

وكانت اسماء لما ودعت محمدا عادت الى عزمها على التوجه الى الشام للاقاة القسيس مرقس وسؤاله عن ابيها ، وقد اصبح هذا الامر شغلها الشاغل ، فأتت عليا بعد سفر محمد لتودعه وتخبره بعزمها وتسأله رفيقا ودابة فلم تستطع مقابلته لكثرة المبايعين . فصبرت حتى سار ومن معه الى الكوفة فسارت مع السائرين

وقضت في الكوفة اياما كأنها على جمر الغضا ، حتى اصبحت يوما وقد ملت الانتظار فصممت على الاستئذان في السفر ، فسألت عن علي فقيل لها انه في مجلسه وحده ، فاستأذنت في الدخول عليه فأذن لها ، فدخلت فاذا هو جالس في قاعة واسعة ليس فيها احد سواه . فلما رآها هش لها ورحب بها ، فهمت بتقبيل يديه وهي تقول : « نحمد الله على ما أولانا من نعمة في احقاق الحق ، ونشكره على ما أولاك من النصر »

فتنهد وقال : « كنت اود ان تنتهي الفتنة ولا يسفك فيها دم ، ولكنها أبت ان تنام الا على فراش من الدماء » . قال ذلك وسكت ثم قال : « وكنت عازما على استقدامك الي لأشكرك على سعيك في هذا الامر فقد سعيت فيه سعيا حميدا » . فأطرقت ولم تجب

فقال لها : « ولنا فوق ذلك اقتراح نقترحه عليك عساه ان ينال موافقتك

فقالت : « اني أمة اذا أمرت اطعت »

قال : « اننا نود استبقاءك عندنا فتكونين بمنزلة ولدنا »

فأدركت اسماء ما وراء ذلك فأجفلت مخافة ان يتحقق ظنها ، لعلمها ما في نفس الحسن ، ولكنها لم تستطع غير اظهار الاستحسان فقالت :

انى احقر من ان احظى بهذا الشرف العظيم »

قال : « لا ، بل انت اهل لافضـــل منه ، ولا اخفى عليك ان ولدى الحسن راغب فيك ، لما آنسه من غيرتك على الاسلام ورغبتك فى اعلاء كلمته ، فهل ترضين به خاطبا ؟ »

فلم تستطع اخفاء عواطفها بما ظهر على وجهها من الاحمرار السريع ولـكنها تجلدت وقالت وهى تشكر : « انى لا استحق هـذا الاكرام يامولاى لانه فوق ماتتوقعه فتـاة يتيمة غريبـة مثلى ، كيف لا وفيه التقرب من اعظم رجال هذه الامة وابن عم النبى ، ولـكننى جئت الى مولاى الامام الآن فى امر اهمنى كثيرا وهويدعونى الى سفر قريب لا ارى منه بدا فجئت استأذن امير المؤمنين فى شانه »

قال : « وما ذلك ؟ » . قالت : « لا اظن مولاى ابا الحسن يجهل امر امى يوم قدومها المدينة . وما ظننا اننا فقدناه من السر بوفاتها »

قال : « لا اجهله » . قالت : « ولعلك تعلم ياسيدى ان يزيد الذى كان معنا فى ذلك اليوم المشئوم ليس ابى »

قال : « ظننت ذلك به مذ رايته ، ثم سمعت انه ليس اباك »

قالت : « وكنت انا ايضا اعلم هذا فقد اخبرتنى به امى ، ووعدتنى ان تذكر لى ابى الصحيح عند وصولنا الى المدينة ، فقضى الله بوفاتها قبل وصولنا ، وظننت أن سر ابى ذهب معهـا الى القبر ، فأسفت وبكيت ، ولـكن المقادير ساقتنى بالامس الى دير بجوار البصرة بعد جرح اصابنى فى اثناء سفرى ، فاقمت به اياما اعالج الجرح ، وهناك رايت راهبا عرفته ، وكنت قد رايته فى كنيسة دمشق قبل سفرى ، فاخبرنىخبرا اعاد الى آمالى » . فقال‌على : «وهل‌ذكرلك اسم ابيك ؟ »

قالت : « لا ، ولكنه اخبرنى ان قسيس كنيسة دمشق يعرفه لان امى اعترفت له به دون سـواه » . ثم قصت أسماء ما أخبرها به رئيس الدير ، ولم تكد تتم كلامها حتى ظهرت الدهشة على وجه الامام لما سمع من أن والدها من كبار المسلمين فى‌المدينة ، وان‌امها جاءت المدينة للبحث عنه ، فعاد يسالها : « الم يخبرك عن اسمه ؟ »

قالت : « انه لا يعرف اسمه ، وهـذا ما حملنى على الاسراع الى دمشق لأستطلع الخبر » . فأمر لهـا بجواد وخادم امين وقال لهـا : « تنتظرين قافلة سائرة من الكوفة الى الشـام تذهبين معها لانه يعسر سلوك الطريق على شخصين منفردين »

فشكرت . وودعته وخرجت وهى تود أن تطير الى دمشق لمقابلة القسيس وصممت على الاسراع ما استطاعت دون أن تنتظر قافلة ولا ركبا

معاوية وعمرو بن العاص

كان معاوية فى الشام مناوئا لعلى فى خلافته ناقما عليه ، وقد حرض اهل الشام على مطالبته بدم عثمان ، فجعل قميص عثمان واصابع نائلة امرأته على المنبر بدمشق ينظرهما الناس . فثار اهل الشام وانكروا مبايعة على ، وبعث معاوية الى على بالطومار كما تقدم وهو عازم على مقاومته ما استطاع الى ذلك سبيلا . وحدثته نفسه بأن يطلب الخلافه لنفسه ولكنه ما زال يرى ذلك بعيدا ، حتى سمع بنقض طلحة والزبير بيعة على ومسيرهما فى اهل مكة الى البصرة ، فقال : « لأصبرن حتى ارى مايكون من عاقبة تلك الحرب » . ثم سمع بخروج على من المدينة ووقعة الجمل ومقتل طلحة والزبير ، فعلم ان ليس ثمة من يطالب بالخلافة غيره

وكان عمرو بن العاص فاتح مصر فى اوائل الهجرة ومخرجها من أيدى الروم (سنة ٢٠ هـ) على عهد الامام عمر بن الخطاب قد تولاها واصلح شؤونها فلما افضت الخلافة الى عثمان بن عفان ، وكان عثمان على ماسلف من ايثاره ذوى قرباه فى ولاية الاعمال ، عزل ابن العاص عن مصر ، وعهد فى ولايتها الى اخيه فى الرضاع عبد الله بن سعد ، فخرج عمرو ناقما على عثمان . وكان من دهاة العرب المعروفين ، فلما كانت الفتنة وثار الناس على عثمان وجاء اهل الأمصار الى المدينة كان هو فى جلة الناقمين . ولكنه غادر المدينة قبل الحصار وسار الى فلسطين وأقام بها ينتظر ما يكون . فلما علم بمقتله قال : « انى قتلته وأنا فى وادى السباع » . وجعل يفكر فيمن يلى الخلافة بعده وقال فى نفسه : « ان يل هذا الامر طلحة فهو فتى العرب ، وان يله ابن ابى طالب فهو اكره من يليه الى »

فلما بلغته بيعة على اشتد عليه الامر ، ولبث ينتظر ما يصنع الناس ، فبلغه مسير ام المؤمنين وطلحة والزبير الى البصرة ، فلبث ينتظر ما يكون من أمرهم ، فجاءه الخبر بوقعة الجمل وانتصار الامام على فأرتج عليه ووقع فى حيرة . ثم بلغه أن معاوية فى الشام لا يبايع عليا ، وانه يعظم شأن عثمان ، وكان معاوية احب اليه من على لأنه داهية

مثله ، فأخذ ابنيه محمدا وعبد الله وسار الى دمشق ، واتفق مع معاوية على المطالبة بدم عثمان ، ونفس عمرو طامحة الى مصر يحن اليها لأنه فاتحها ، وكانت مصر يومئذ على دعوة على ، وعمرو يعلم أن عليا لا يوليه اياها ، فلم ير خيرا من الانتماء الى معاوية فجعل يحرض أهل الشام على طلب دم عثمان ويقول لهم : « انتم على الحق ، اطلبوا دم الخليفة المظلوم »

قضت أسماء اياما فى مسيرها من الكوفة الى دمشق ، فلما اشرفت على غوطتها المشهورة بالخصب ، ونظرت الى دمشق عن بعد رأتها فى منبسط من الارض تحف به الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء ، وفيها أغراس المشمش واللوز والسفرجل والخوخ والليمون والفاكهة على اختلاف انواعها ، وفيها الاعشاب والرياحين ، وكلها يانعة تجرى بينها جداول من الماء القراح . وكانت أسماء ملتفة بالعباءة و « الكوفية » فوق جواد يسابق الريح ، ومعها الخادم على جواده ، فأقبلت على المدينة فى الصباح وقد تعطر نسيمها بشذا الازهار تتخلله نغمات الأطيار ، فلم يشغلها ذلك كله عما قام فى خاطرها من الشوق للاطلاع على أصلها . فدخلت المدينة من باب الجابية بعد أن ترجلت وامرت الخادم أن يسير فى اثرها بالجوادين وسارت ملثمة تلتمس كنيسة مارى يوحنا من اقرب الطرق وهى تعرف دمشق معرفة جيدة . محاذرة أن يراها احد من أهلها أو جيرانها فيعرفها فيشغلها عما هى ساعية فى طلبه . وخوفا من أن ينتبه الناس لها اذا مشت والخادم والجوادان فى أثرها أمرت الخادم ان ينتظر فى خان دلته عليه وقالت له : « أمكث هناك حتى أعود اليك » . فأطاعها

وظلت هى سائرة حتى دنت من الكنيسة فتذكرت ان هذه الكنيسة العظيمة المعروفة باسم القديس مارى يوحنا قد أخذ المسلمون حين فتحوا الشام نصفها الشرقى وجعلوا فيه مسجدا يصلون فيه ، وتركوا النصف الآخر وهو الغربى للنصارى وفصلوا بين القسمين بحاجز . فالتمست الباب المؤدى الى القسم الغربى وهى بلباس السفر . فاستقبلها خادم الكنيسة واستغرب مجيئها بعد الفراغ من الصلاة فكلمها باللسان الرومى ، وكانت قد تعلمته من أمها ، فسألها عن غرضها فذكرت أنها تريد القسيس مرقس ، فدعاها الى الاستراحة على مقعد من رخام فى صحن الكنيسة ، وسار للسؤال عن القسيس ، فلبثت فى

نظاره وهى تلهى نفسها بما هناك من فخامة البناء كالاعمدة الضخمة لشاهقة والنقش البديع من الفسيفساء وغيرها ، فضلا عن الصور على الجدران والسقف فى اشكال غريبة وألوان زاهية . ولم تكن تلك أول مرة دخلت هذه الكنيسة ولكن غرابة ذلك البناء وفخامته يلفتان النظر ويشغلان الخاطر فى كل آن

فما لبث الخادم أن عاد يدعوها الى غرفة الاستقبال لتقابل الشماس وتطلب منه ما تريد

فخرجت من الكنيسة الى دار فى وسطها بركة من الرخام يتدفق منها الماء كسائر دور الشام ، واتصلت من الدار بقاعة فخمة استقبلها فيها شماس لم تكد تراه حتى تذكرت أنها رأته يوم زارت الكنيسة مع امها قبل سفرها الى المدينة ، فاستأنست به وسألته عن القسيس مرقس ، فدعاها الى الجلوس على بساط من السجاد وبين يديهما بركة اخرى اصغر من بركة الدار والماء يسيل من جوانبها الى قناة تحيط بها ويصرف منها . فلما جلست قال لها : « ان القسيس مرقس سافر منذ بضعة أشهر »

فأجفلت وقالت : « الى أين ؟ » . قال : « الى بيت المقدس »

قالت : « ومتى يعود ؟ » . قال : « لا أدرى متى يعود ، لأن سفره لم يكن لشأن خاص بالدير ولكنه خرج فرارا مما أقلق راحته من صوات البكاء والعويل التى ترن فى آذاننا كل يوم فى القسم الآخر من هذه الكنيسة »

قالت : « وما هو هذا العويل وعلى من ؟ »

قال : « ربما سمعت بمقتل الخليفة عثمان فى يثرب ، فان بعض رجال حاكمنا معاوية جاء بقميصه الملطخ بالدم واصابع امراته التى قطعت وهى تدفع بيدها عنه ووضعوها على المنبر الذى يخطبون فوقه ، وكلما اجتمعوا للصلاة وذكروا مقتل الخليفة صاح الناس رجالا ونساء ، شيوخا واطفالا ، يبكون ويولولون حتى تكاد تتفتت القلوب . وكان ابونا القسيس فى أثناء ذلك مريضا مرض الشيخوخة فزاده ذلك الحال ضعفا ، فأشار عليه طبيبه أن يسافر الى القدس يقيم بها حتى تتغير الحال ، فسار ونحن فى انتظاره وقد بلغنا أنه ما زال مريضا »

فعادت تسأله : « الا تدرى متى يعود ؟ » .

قال : « لا . ولكن اذا كنت تريدين خدمة فاننا نؤديها بالنيابة عنه »

قالت : « انما أمرى منوط به هو وحده » . وفكرت فيما تصنع : هل تقيم هناك ريثما يعود ، أم تخرج الى الخان . وفيما هى صامتة

تفكر ابتدرها الشماس قائلا : « اذا شئت ان تقيمي ضيفة في هذه الدار حتى يعود ابونا القسيس فعلى الرحب والسعة ، فان عندنا نساء يقمن بخدمتك »

ثم صفق فجاء الخادم فأمره ان يدل اسماء على غرفة القسيسة فصعد بها الى قاعة علوية فيها امرأة طاعنة في السن بلباس أسود وعليها هيئة الكمال والوقار ، فنهضت لها واستقبلتها واجلستها الى نافذة تطل على بعض ابنية دمشق ، وامرت لها بما تحتاج اليه من طعام فاعتذرت من تناول الطعام

وجلست اسماء وقد استأنست بتلك المرأة ولكنها ما زالت منقبضة النفس من عرقلة مساعيها لغياب القسيس وتصورت أن نحس طالعها قد عرقل امورها وخيل لها أن القسيس مرقس سيموت في القدس لضعفه وشيخوخته فيضيع السر وتذهب آمالها أدراج الرياح ، فخطر لها ان تذهب اليه وتستطلع السر ، وكانت تفكر في ذلك والقسيسة تبالغ في ملاطفتها وتدعوها الى نزع العباءة والكوفية وهي تمتنع

▭

ودنا وقت الظهر فخرجت القسيسة للصلاة كالعادة ، وظلت اسماء منفردة فاطلت من النافذة فوقع نظرها على صحن الكنيسة كله وفيه القسم الذي جعله المسلمون مسجدا فرات في ارضه الأبسطة والطنافس وقد تعلقت بسقفه المصابيح ، وشاهدت على جدرانه رسوما مسيحية في جملتها صور صلبان وقديسين ما زالت كما كانت قبل الفتح . وفيما هي تتأمل في جدران المسجد ومفروشاته ، سمعت المؤذن يدعو الناس الى صلاة الظهر ، وما كاد يفرغ من اذانه حتى رأت الناس يتقاطرون الى صحن المسجد زرافات ووحدانا وفيهم الرجال والنساء شيوخا وشبانا واطفالا فشغلت بالنظر اليهم ، وفيهم جماعة عرفت أنهم من الجيران الذين كانوا يزورون أباها

ثم رأت الناس يموجون موج البحر يتقهقر بعضهم شمالا والبعض الآخر يمينا ، حتى فتحوا طريقا واسعا فأدركت أن أحد الكبراء داخل ، فصبرت واذا برجل جميل الخلقة أبيض البشرة ذي هيبة ووقار ، عليه ثياب سود موشاة تتألق ، كبير العمامة فعرفت انه معاوية ابن ابي سفيان والي الشام ، ورأت الى جانبه رجلا قصير القامة وافر الهامة ادعج أبلج عيناه تكادان تتقدان حدة . فمشيا وهما ينظران الى الجمع والناس سكوت اجلالا لهما ، فلم تعرف اسماء رفيق معاوية

ولكنها سمعت واحدا من الحضور يقول بصوت عال : « انت لها يا ابن العاص ، أنت نصير الخليفة المظلوم » . فعلمت انه عمرو بن العاص

فوقفت تنتظر ما يبدو منهما فرأت معاوية ظل سائرا حتى بلغ دكة عليها قميص ملطخ بالدم ، وعلمت أن الدكة هى المنبر ، وان القميص قميص عثمان ، فتذكرت مقتل ذلك الخليفة على مشهد منها ، وتذكرت نائلة المسكينة وقالت فى نفسها : « اين هى الآن يا ترى ؟ » وكانت تفكر فى ذلك وهى تنظر الى معاوية فرأته صلى ركعتين وصعد المنبر ، فسكت الناس وأصغوا ، فوقف وحمد الله واثنى عليه وامر بالمعروف ونهى عن المنكر . ثم سكت لحظة وهو يجيل اصابعه فى لحيته وعيناه تنتقلان فى الناس واحدا بعد واحد ، ثم تناول من المنبر هنات كانت معلقة بالقميص جعل يقلبها بين يديه وينظر الى الناس ويقول : « اتعلمون ما بين يدى ؟ .. انها اصابع نائلة زوج الخليفة المظلوم ، قطعت بسيوف القتلة وهى تدافع عنه » . فتأملت أسماء فى الأصابع فاذا هى اصبعان وشىء من الكف واصبعان مقطوعتان من اصلهما ونصف الابهام . ثم امسك معاوية القميص بيده وقال : « اتعلمون قميص من هذا ؟ .. انه قميص الخليفة المظلوم .. انه قميص عثمان المقتول ظلما »

ولم يكد يتم كلامه حتى ضج الناس من جوانب المسجد بصوت واحد « قتل عثمان مظلوما .. قتل مظلوما » . وسمعت بعضهم يقول بصوت عال : « اقسم بالله ورسوله وخليفته الا يمسنى ماء الا للغسل من الجنابة ، والا انام على الفراش حتى اقتل قتلة عثمان ومن قام دونهم » . وما اتم الرجل حديثه حتى ضج النساء والاطفال بالبكاء والعويل ، وتهافتوا على المنبر ليبكوا على القميص والأصابع ، فزجرهم معاوية فعادوا الى أماكنهم ، وعاد هو الى كلامه واسماء تتميز غيظا لما سمعته من التعريض بعلى ومحمد وما آنسته من التهديد . فثارت الحمية فى راسها ، ولكنها صبرت لعلمها أن موقفها خطر ، فسمعت معاوية عاد الى كلامه بين تحريض وتعريض حتى سمعته يقول : « ان عليا قتل عثمان وآوى قتلته » . فلما سمعت ذلك لم تعد تستطيع صبرا فتحولت من النافذة بأسرع من لمح البصر وهرولت الى باب الجامع بعباءتها وكوفيتها . وبينما الناس يسمعون خطاب معاوية اذا بفتاة وقفت فيهم وعيناها تتقدان غيظا وحنقا والمهابة تتجلى فى محياها، فلفتت انتباههم فشغلوا بالنظر اليها عن سماع الخطاب

ثم صعدت الى دكة من رخام وولت وجهها شطر الناس وظهرها الى معاوية وقالت وصوتها يرتعش وركبتاها تصطكان : « أيها الناس ،

اراكم تسمعون وتغضبون لامر لم تشاهدوه ولا انتم على بينة منه ، لانكم لم تكونوا فى المدينة ولا شاهدتم مقتل الخليفة . يقولون لكم انه قتل مظلوما وأن عليا قتله وآوى قتلته ، وهذا افتراء ، لأن عليا اول من دافع عنه بلسانه وسيفه واولاده . قتل عثمان أيها الناس والحسن والحسين فى داره وقد تلطخ وجه الحسن بالدم ، ولو لم يامرهما عثمان بالكف عن الدفاع لبذلا النفس عنه . على انهما لم ينجوا مع ذلك من تانيب الامام . وقد شهدت ذلك بنفسي ورأيته رأى العين . فاتهام على بمقتله افتراء وفتنة لا يصيب القائم بها الا ما اصاب أصحاب الجمل فى البصرة . تزعمون أنه قتل مظلوما ، وربما كان زعمكم صحيحا ، ولكن عليا لم يرد قتله ، بل هو اول من قال باستبقائه خوفا من الفتنة ، فكيف تقولون انه قتله ؟ »

وما اتمت أسماء كلامها حتى صاح معاوية : « من ذا الذى يتكلم ، من انت يا رجل ؟ »

فالتفتت اليه اسماء وقالت : « انني فتاة يا معاوية ولست رجلا »

فعجب لهذه الجراة من فتاة فى مثل سنها ، وتأثر من هيبتها وجمالها وانفتها ، ومع كل غيظه وحنقه لم يأمر بالقبض عليها ولا المثلة بها ، ولكنه دعاها اليه والناس شاخصون ينظرون كأنه يريد مجادلتها فى الأمر . فأشار اليه عمرو اشارة فهم منها أنه لا يليق أن يجادلها أمام الناس لأن الجدال ينقص من برهانه ، فأعجبه دهاء عمرو . فلما صارت أسماء بين يديه أمر بالقبض عليها فتكاثف بضعة عشر من رجاله لشد وثاقها فصاحت فيهم : « تتجمهرون على فتاة وأنتم رجال ولا حاجة الى شد الوثاق فانى لا افر من بين ايديكم . أليس عارا عليكم ان تدفعو الحق بالقيود والأغلال وهو انما يدفع بالبرهان والجدال »

فأشار معاوية ان يسيروا بها الى السجن حتى ينظر فى امرها

اسماء فى السجن

ولا تسل عن حال اسماء لما وجدت نفسها فى حجرة لايدخل اليها النور الا من كوة فى اعلى البناء ، وليس فيها الا حصير بال، فأخذت تفكر فيما آلت اليه أمورها وما تتوقعه من العذاب ، فندمت على ما ابدته من الجرأة فى الدفاع عن على ، ولكنها شعرت أنها اقدمت على ذلك بالرغم منها ، فقد كانت كلما سمعت اسم على طربت واستعزت أو خافت وتهيبت وهى لاتقدر على كبح احساسها

فلما خلت الى نفسها تمثلت لها حالها كما هى ، فتذكرت ما مر بها من الاهوال منذ حداثتها وما قاسته من البلاء فى اسفارها وجهادها وما كان من وفاة امها قبل وصولها الى المدينة وضياع سرها . ولما وصل ذهنها الى هنا اعترض ظلمة كدرها نور ضعيف من الامل فى كشف السر على يد القسيس مرقس . ثم تصورت مروان وما سامها من العذاب فى بيت الخليفة عثمان، وتذكرت انه كان البيت الذى كاشفت فيه محمدا بالحب فطربت لذلك . ثم تذكرت سفرها الى مكة وما لاقته من المرض والتعب وما عقب ذلك من أسرها ومسيرها فى الصحراء مهددة بالموت وبالعار حتى قضى الله بنجاتها فعادت الى خطر آخر ونجت منه ، وكيف بشرت بالكشف عن نسبها ثم شهدت وقعة الجمل . .

وتتابعت عليها الذكريات حتى وصلت الى ما هى فيه من السجن فعظم الامر عليها واشتد الاسف بها حتى أجهشت بالبكاء ، فحاولت التجلد لئلا يقال انها بكت من اليأس أو الخوف وهى انما بكت لنكد حظها وسوء طالعها وما يقف فى سبيلها من العقبات التى لم تكن تخطر لها ببال . فالتفتت الى ماحولها فلم تجد احدا وتطاولت بعنقها الى باب السجن فرأت السجان فى غفلة عنها . فأطلقت لنفسها عنان البكاء واخذت تناجى نفسها ، تارة تذكر امها وطورا حبيبها وآونة عليا وأخرى تندب حظها ، واستغرقت فى ذلك حتى نسيت نفسها وغاب رشدها كأنها اصيبت بنوبة عصبية فلم يعد فى امكانها امساك عواطفها عن البكاء والنحيب

وما زالت فى ذلك حتى تعبت فغلب عليها النعاس فنامت على ذلك الحصير فرأت فيما يرى النائم امها تمشى اليها على بساط من الورد

المنثور وعليها حلة ارجوانيـة طويلة الذيل مزركشـة بالذهب تجرها وراءها . وعلى راسها تاج من زهر الرمان وراتها تمشي الهوينـاء وهي تتلمس الخطى كأنها تحاذر مرور النسيم . فبغتت أسماء لرؤية خيال أمها ولا سيما لما راتها في عافيـة تامة وقد ارتد اليهـا لونها وتوردت وجنتاها واشرق وجهها . وظلت اسماء في دهشة شاخصـة الى ذلك الخيال وكأنها سمعته يقول بصوت رخيم : « هل عرفت اباك يااسماء ؟ »

فأسرعت أسماء اليها والقت نفسها على صدرها تستنشق حنـان الامومة ، فانتعشت وجعلت تقبلها وتقول : « لا . لا يا أماه لم أعرفه بعد . قولي لي . قولي فقد نفد صبري »

فضمتها والدتها الى صدرها ، وهمست في اذنها : « اخفضي صوتك لئلا يسمعك الامام »

فأطاعتها وقالت بصوت خافت : « قولي لي يا أماه من هو ابي ؟ »

قالت : « انما جئت اليك الآن لأخبرك بذلك فاعلمي ان اباك هو . . » وسكتت لحظة وهي تتلفت يمينا وشـمالا وعيناها تلمعان كأن المـاء يغشاهما ، وأسماء شاخصة اليها وقلبها يكاد يتفطر وسمعها مرهف لسماع اسم ابيها ، ولكنها ما لبثت أن رات امها ترتعد وقد أخذ لونها في الامتقاع وهي تنظر الى شبح قادم اليها . ثم راتها أجفلت وحاولت الفرار فتشبثت اسـماء بها وهي تقول : « امكثي بالله لاتذهبي انطقي باسم ابي » . فلم تلتفت اليها وحاولت التملص منها واسماء ممسكة بها . وفجأة افاقت مذعورة فرات نفسها في تلك الحجرة المظلمـة على ذلك الحصير القذر ، وسمعت صوتا لم تكد تموجاته تدرك أذنها حتى ارتعدت فرائصـها لمشابهته صـوت مروان بن الحكم عدوها القديم ، فقالت في نفسها : « اعوذبالله من حظي على يدهذا الرجل أما زال ذكره شؤما علي حتى في احلامي . كنت في ألذ الاحلام فأيقظني بصوته »

فما كادت تفتح عينيها حتى رات مروان واقفـا امامها وقد تقلـد حسامه وأتقن هندامه . فلما راته استعاذت بالله ولم تلتفت اليه

فتقدم مروان اليها وهو يقول : « لقد صفحنا عما مضى يا أسماء ، كنت ترجعين عن غيك وتعلمين ان محمدا وعليا لايغنيان عنك فتيلا . انت الآن في دمشـق مسقط راسـك ومقر آبائك . ما لك وللمدينـة والكوفة ؟ اصغي لنصحي وارجعي عن عنادك ، واعلمي انك اذا أطعتني هذه المرة صفحت عما مضى وكنت أسعد فتاة والا فانك مقتولة لامحالة ، لأنك في قبضة يدي افعل بك ما أشاء . واعلمي ان معـاوية سيبعث اليك ليحقق معك في شأن ما فهت به في المسجد مما لا يأتيه الا كل مختل الشعور . فاذا شئت البقاء حية فاعتذري مما فرط منك وحالفي القوى

ولا يغرنك انتصارعلى فى البصرة فانه سيلقى منا سيوفا لاتفل، ورجالا لاترد ، وقلوبا كالحجر الصلد . وستخرج الخلافة من يديه فيخضع لنا هو واولاده وكل من يلوذ به »

وكان مروان يتكلم واسماء ترتعد وجلاو قلبها يكاد يفر من صدرها ، وصعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها واحمرت عيناها وهى مع كل ذلك مطرقة تفكر وقد ايقنت ان حياتها بين يديه ويدى معاوية . وحدثتها نفسها باديء الامر بأن تعمل بما توحيه عواطفها فتنتهر مروان وتوبخه ، ولكنها تذكرت ماجرته عليها جراتها فى المسجد فأمسكت وتجلدت وهى تكظم الغيظ ولم تحر جوابا

فظن سكوتها لينا أو رضاء ، فدنا منها وبالغ فى التودد اليها ، فقال : « لعلك تذكرين ما عاملتنى به من الجفاء ، وأنا اعذرك وآمل أن تكونى قد ارعويت ، لأنك انما كنت مدفوعة الى ذلك بطيش الشبيبة ، وكنت تحسبين محمدا أهلا لك ، وقد رايت كيف انقلب أمرهم جميعا ، وكيف قام المسلمون عليهم يطالبون بدم الخليفة عثمان . ولا اظنك تجهلين مافعله محمد ، وقد كنت شاهدة مقتل عثمان . الم تريه وقد دخل عليه وأمسك بلحيته وهم بقتله ، فوبخه الخليفة وذكره فرجع . اتعدين ذلك دفاعا ، وهل تزعمين بعد ذلك ان محمدا خير من مروان »

فثقل كلام مروان على اسماء ثقل الجبال حتى كادت تحرج باحتقارها اياه فتبوح له ، ولكنها كظمت الغيظ وسكتت فطفحت عواطفها دموعا وهى مطرقة لاتنظر اليه

ففرح مروان وتحقق ندمها ، وهم بالدنو منها ليستأنف الحديث ، واذا بالسجان دخل وقال لمروان : « أن الامير بعث يستقدم السجينة اليه » . ثم تقدم السجان ودعا اسماء الى المثول بين يدى معاوية ، فوقفت ومسحت عينيها ، وخرجت فرات خارج السجن بضعة رجال بالسيوف والحراب فقال لهم مروان : « لاحاجة اليكم فانها تسير غير محروسة الى مجلس الامير »

ب

وسارت اسماء بقدم ثابتة وقلب جرىء ، ومروان وراءها مبتهج القلب بما تجدد عنده من امل فى الحصول عليها ، فقد كان مسحورا بجمالها وهيبتها ، طامعا فى نيلها ليفخر بأن قد نالها دون محمد بن أبى بكر

وما عتموا ان وصلوا الى قصر منيع من بناء الرومان كان فى الاصل

قصرا لحاكم الشام من الروم ، وعند بابه الحراس بالسيوف والحراب . فدخلت فى دار رحبة ومروان امامها يدلها على قاعة المجلس، فعرج بها حول البركة حتى دخل قاعة كبيرة.فيها الوسائد والطنافس على الجانبين. وفى صدرها معاوية على مقعد ، والى جانبه عمرو بن العاص وولداه محمد وعبد الله . وبين أيديهم جماعة من الامراء لم تعرفهم ، فدخلت ووقفت ونظرت الى الحضور نظرة فاحص بسكينة وجلال ، ثم وجهت نظرها الى معاوية غير متهيبة ، فنظر اليها وتأمل فيما يتجلى فى وجهها من المهابة ، وكانت ما زالت غاضبة وقد قطبت أسرتها وازدادت وقارا فأعجب بهيبتها وجمالها ، وكان قد أعجب من قبل بشجاعتها واقدامها . فلما وقفت بين يديه قال لها : « ما الذى حملك على الجراة التى ظهرت منك فى المسجد اليوم ؟ »

قالت : « انما حملنى على ذلك الحق والصدق ، فقد سمعت تعريضا برجل اتهموه وهو برىء »

قال معاوية : « وما أدراك انه برىء وانت فتاة قاعدة فى بيتك ؟ »

قالت : « انى أعلم من الامر فوق ما يعلم كل واحد منكم ، وقد تحققت يقينا ان عليا أمير المؤمنين برىء مما يتهمونه به »

فاعترضها عمرو بن العاص قائلا : « لاتقولى امير المؤمنين ، فاننا لم نبايعه » . فقالت : « ان لم تبايعوه أنتم فقد بايعه سواد المسلمين فى المدينة والبصرة ومصر وسائر الحجاز ، وهو ابن عم الرسول واحق الناس بهذا الامر »

فقال عمرو : « أراك تحكمين فى امور تجهلينها . فلو أجمع الناس على بيعته ما اضطر الى الحرب وسفك الدماء . يكفيه انه كان السبب فى قتل الخليفة عثمان الذى أصبح دمه طليمة ماسفك وسيسفك من الدماء »

فنظرت أسماء الى عمرو وقالت : « ألست ابن العاص ؟ » . قال : « نعم »

قالت : « الم تكن أول ناقم على ذلك الخليفة المقتول لأنه عزلك عن مصر وولاها اخاه عبد الله . الم تفرح بقتله ؟ . ولكن الدهاء أبعدك والناس يعرفون القاتل او الساعى فى القتل » . قالت ذلك وقد ظهر التأثر فى وجهها مما بدا عليه من الامتقاع

فعظم جوابها على عمرو وخاف ان تتمادى فقال لها : « ممن انت يا فتاة ؟ »

قالت : « من هذا المكان ! »

قال : « اني اسألك عن ابيك ؟ »

فسكتت ولم تجب ، فتقدم مروان وهو يأمل ان يخفف غضب معاوية وعمرو على اسماء ، طمعا فى رضائها واستبقائها وقال : « انها اموية ، وقد قتل يزيد ابوها فيمن قتلوا مع عثمان »

فقال معاوية : « اأموية أنت ؟ » . فلم تجب

فقال : « كيف تكونين اموية وتقولين مالا يقوله بنو امية ؟ . البسوا مجمعين على ان عثمان قتل ظلما وقد نهضوا للأخذ بثأره ؟ »

فقالت : « لايهمني أموية كنت ام غير اموية ولكنني اشهد بما اعلم ؟ فانا لا ارى احدا مظلوما فى هـذه الفتنة غير امير المؤمنين على بن ابى طالب ، وانى اقول هذا رضيتم ام غضبتم . ولعلكم تتهددونني بالقتل او السجن، فلاابالى التهديد ولا الوعيد. هذا قولى فافعلوا ماتشاءون»

وكان مروان فى اثناء كلامها يفكر فيما يرجوه من رضـائها ، وعيناه شاخصتان الى الحضور لئلا ينظر اليها احد نظر الراغب فيها ، وود لو انهم يقطعون الحديث لئلا تقول قولا يثير غضب معاوية فيأمر بقتلها

اما عمرو فراى بحسن فراسته ودهائه ان يظهر الاستخفاف بكلام اسماء ، ويبدى الرفق بها لأنه رآها لاترضخ للعنف. وخاف ان تتمادى فى كشف ماكان ساعيا فيه ضد عثمان قبل قتله . فقال لها : « اراك يابنية مغرورة ، ومن العبث أن نجادلك ولا سيما ان النبى (صـلعم) أوصانا بالنساء رفقا لانهن ضعيفات ، ثم انك أموية من لحمنا ودمنا . فارفقى بنفســك وارجعى عن غيك وامكثى عندنا فى امن واقلعى عما انت فيه »

فقالت : « لاتستضعفونى ، ولا تأملوا رجوعى ، ولا تحسبونى اموية ولا هاشمية ، فافعلوا ماتشاءون وقد قلت لكم انى لا اهاب الموت »

فتقدم مروان الى معــاوية وهمس فى اذنه قائلا : « أرى الـكف عن جدالها ، فاتركوا أمر اقناعها الى ، لأنى اعرفهــا من قبــل ذهابها الى المدينة ، فقد كانت مقيمة بدمشق وأعرف ابويها ، وانا اضمن اقناعها طوعا او كرها ، اذ لايليق بنا اسبقاءها على هــذا العناد فاما أن ترجع عن غيها أو نقتلها والقتل امر مستدرك فأرى ان نقنعها بالحسنى » . ثم التفت الى عمرو وقال بحيث يسمعه الاثنــان ولا تسمعه اسـماء : « ولايخفى عليكما اننا اذا اخذناها فى حزبنــا ، فانها تطلعنــا على كل دخائل على ورجاله ، لانها عالمة بكل اسرارهم ، فاتركا هذا الامر الى » ثم تنحى جانبا وأسماء خائفة مما بدا منه . فقال معــاوية : « خذوها الآن الى منزل مروان وسننظر فى أمرها »

فقطعت الحديث قائلة : « لعل منزله السجن » . قال : « كلا »

قالت : « بل خذوني الى السجن حيث كنت في هذا الصباح »
فخاف مروان اذا أصروا على ارسالها معه أن تصرح بشيء ضده فقال : « خذوها الى السجن » . واعتزم ان يكلمها هناك

□

اشار معاوية الى الحراس فساروا واسماء معهم غير هيابة ولا وجلة . واما مروان فانه اسر الى كبير الحراس ان يجعلها في غرفة من غرف السجن وحدها ، وان يضيقوا عليها لعلها تشعر بحاجة الى النجدة. ولم يدركوا السجن الا بعد الغروب فدخلوا بها من باب كبير الى دار رحبة اتصلوا منها بممر مظلم انتهوا منه الى بضع درجات نزلوا عليها الى دار صغيرة تستطرق الى غرف عديدة دخلوا في احداها واتصلوا من هذه بحجرة اخرى واطئة السقف مظلمة تتصاعد منها رائحة الرطوبة والعفونة ، وقد نبتت الطحالب على جدرانها وتحلب الماء عنها. فأقعدوها على حصير بال ورجعوا ، وظل السجان وحده . فلما خلا المكان الا منهما نظر اليها وكأنه اشفق على شبابها وتوسم فيها مهابة ووقارا ولكنه لم يخاطبها فتركها على ذلك الحصير وعاد وهو يرجو أن تخاطبه هي وتلتمس نجدته متى احست بالوحدة أو شعرت بالجوع والخوف

اما هي فلما رأت نفسها في تلك الحجرة وقد خلا المكان من الناس واستولى السكون على تلك الجدران العفنة ؛ لبثت تفكر في حالها وما صدر منها في حضرة معاوية من الاقوال مخافة ان تكون قد فاهت بما يدل على عجز أو خوف ، فرأت انها أدت الامانة حق ادائها . ولكنها مع ذلك اسفت لأنها لم يتح لها اتمام قولها

وقضت ساعات وهي جالسة لاتبالي الظلمة ولا الجوع ولم يزرها النوم لعظم اضطرابها ، ثم انتبهت الى ما هي فيه من الخطر ان لم يكن من معاوية ورجاله فمن مروان وآماله ، وايقنت انه آت اليها تلك الليلة طمعا في رضائها عنه ، والموت عندها خير من اجابة طلبه ، فالتفتت الى ماحولها وهي لاتكاد ترى جدران الغرفة لشدة الظلام ، فأنصتت لعلها تسمع منبها أو كلاما فاذا كل شيء هادىء ساكن لايكدر سكوته الا طنين البعوض حول وجهها ونقيق الضفادع نقيقا ضعيفا يدل من اتجاهه على ان السجن قائم على ضفة نهر بردى الذي يتشعب في دمشق فيسقي اهلها بأنابيب من الحجارة او الخزف منفرقة في كل منازلها . فاستأنست بذلك النقيق ولكنها استوحشت من الظلمة الدامسة مخافة أن تلسعها عقرب أو يلدغها ثعبان على غرة

وبينما هي تفكر في حالها وقد شغلتها الوحشة عن التفكير في الخطر المحدق بها اذ سمعت خطوات بطيئة تدل على تلصص صاحبها في مشيته ، فجمد الدم في عروقها وخافت أن يكون ذلك القادم مروان ، فأشاحت بوجهها نحو الخطى وقلبها يخفق حتى كادت تعد دقاته . واذا بذلك الصوت يقترب نحوها فأجفلت ونهضت وتهيأت للدفاع اذا مست الحاجة ، ولبثت تنتظر مايكون . فاذا بالخطوات تبتعد وتضعف حتى لم تعد تسمعها . فعلمت ان احدا كان قادما نحوها ثم رجع . فازدادت قلقا وظلت واقفة ترتعد لعظم التأثر ، وودت لوان ذلك القادم وصل اليها لتعلم من هو وما غرضه ، فان رجوعه زاد بلبالها . وصممت ان تتفانى في سبيل الدفاع وأن تصرح لمروان ، اذا كان هو القادم ، بما في ضميرها ولو أدى ذلك الى قتلها

ولبثت برهة لم تعد تسمع في اثنائها صوتا ، ولكنها ما برحت مضطربة شاخصة بعينيها الى الجهة التي سمعت الصوت منها ، وطال انتباهها حتى لم تعد تستطيع اطباق أجفانها ونسيت موقفها

وفيما هي كذلك لمحت نورا ضعيفا في دار السجن الصغرى ، فاستأنست به وتذكرت مروان فخافت ان يكون قادما اليها . على انها تشجعت وقالت في نفسها : « فليأت فاما اقتله أو يقتلني فأستريح من هذا الموقف » . ولم تكد تفكر في ذلك حتى رأت النور يتعاظم ويقترب ، ثم بان المصباح يحمله رجل عرفت من لباسه وقيافته انه السجان فهدأ روعها . ونظرت اليه فاذا هو يحمل المصباح في احدى يديه ويحمل بالاخرى قصعة ، فلما دنا من غرفتها تأكدت انه هو ، فلبثت تنتظر مايبدو منه فاذا هو يقول : « سامحيني يا سيدتي لأني تركتك الى الآن بلا طعام ولا نور ، فاني لم اكن أعرف انك تنتمين الى الامير مروان »

فلما سمعت ذلك الاسم ارتعدت فرائصها ولكنها لم تجب . وأما السجان فدخل الغرفة ووضع المصباح على الارض وقدم القصعة وفيها خبز ولحم ، وهو يقول : « هذا طعام بعث به اليك الامير مروان وكلفني ان انبئك بأنك لن تبيتي في هذا المكان الا الليلة ، وفي الغد ينقلك الى منزله » . فنفرت منه وقالت : « لاحاجة بي الى طعام ، فأرجع من حيث أتيت »

قال : « لقد قضيت نهارك بلا طعام ، الا تأكلين شيئا ؟ »

قالت : « لست جائعة . عد بالطعام »

فعجب السجان لقولها ، وقد كان يتوقع ارتياحها لعطف مروان عليها . فقال لها : « ولماذا هذا ياسيدتي . تناولي لقمة لتسدي جوعك »

قالت : « خذ الطعـــام ، انى لست جائعـــة » . قالت ذلك وحولت وجهها عنه

فقال : « دعى القصعة والمصباح هنا وافعلى بهماماتشـائين، وها انذا عائد » . قال ذلك ورجع

فلما خلت الى نفسهاظل بصرهاعلى المصباح تتأمل حركاتهوالبعوض يحوم حوله وفكرها تائه وقلبهـــا يخفق كلما تصــورت مروان قادما نحوها . وارادت أن تســـند ظهرها الى الحـائط فأحست برطوبتـــه فابتعدت

▭

وعاد السكون الى المكان مدة طويلة وأسماء فى ابان اضطرابها ، حتى كأنها نسيت وجودها . ثم انتبهت على صوت اقدام تمشى فى الغرفة الخارجية بهدوء ، فأجفلت وتأكدت انمروان قادم، فخفق قلبها وصعد الدم الى رأسها وتهيأت للفتك به . وحولت نظرها الى الخارج فرأت شبحا قادما يخطو خطو السارق المتلصص وقد التف بعباءة ، فخافت ولكنها تجلدت لترى ما يبدو منه ، فلما دنا من باب الغرفة همت بأن تخاطبه فاذا هو يقول بصوت ضعيف : « لا تخافى يا سيدتى انى جئتك بالفرج لا تخافى »

فلما سمعت كلامه ارتعدت فرائصها وذكرت أنها تعرف الصوت فقالت : « من انت ؟ »

قال : « انى عبدك مسعود لا تخافى . وقد جئت لانقاذك »

قالت : « من أين أتيت ، ومن أرسلك ، هل هبطت من السماء أم خرجت من جوف الارض ؟ »

قال : « لم يرسلنى أحد ولكننى كنت سجينا فى هذا المكان منـــذ فارقتك فى دير البصرة . لانى خرجت من الدير ، وفيما أنا عائد الى الكوفة ظفر بى جماعة من بنى امية كانوا قادمين بمهمة من معاوية ، فقبضوا على وساقونى الى هذا السجن ، لأنى من صنائع ابن أبى بكر، وأشكر الله الآن على وجودى هنا لعلى اســـتطيع انقـــاذك من أيدى هؤلاء الظالمين »

فاطمأن بالها ولكنها حسبت نفسها فى منام مثـــل منام الأمس . فقالت : « وكيف عرفت أنى هنا ؟ » . قال : « رأيتك مع الحراس لما أتوا بك عند الغروب ، ولبثت أنتظر فرصة آتى بها اليك ، وقد جئت حتى كدت أقترب منك فسمعت خطوات السجان فهرولت راجعا ،



« فوقفا ينصتان ، فاذا بمروان يقول للسجان : « لابد لي من قتلها إذا ظلت على عنادها »

واما الآن فلا خوف علينا من السجان ، تعالى معى »

قالت : « وأين السجان ؟ » . قال : « ذهب الى بيت مروان »

قالت : « وكيف ذلك ؟ أخشى أن يكون هنـا » . قال : « لا تخافى لانى حرضته على المسير الى مروان ليخبره برفضك طعامه ، وليحثه على المجيء للانتقام منك ، وأطمعتـه بمال ينـاله منه اذا فعل ذلك ، وعزمت على الخروج فى أثناء غيابه »

قالت : « والباب ؟ » قال « لقد ظن السجان المسكين انه اقفله ، ولكنه ما زال مفتوحا ، تعالى قبل ان يعود السجان او يأتى مروان » . فترددت برهة وقد اكبرت امر الفرار فأدرك مسعود ترددها فقال : « اتحسبين خروجك من هذا السجن فرارا ، وما بقاؤك فيه غير الموت والعار . تعالى . واسرعى اناشدك الله »

ومشى فمشت هى فى اثره ، ثم عاد الى المصباح وقال ارى ان نطفىء هذا المصباح لئلا يدل علينا . واطفأه فأظلم المكان ولم تعـد أسماء تعرف الطريق ، فأمسك بيدها ومشيا وهى ترتعد ، حتى خرجا من الغرفة الثانية الى الدار الصغرى ، واطلا على البيت ، وما صعـدا الدرجات حتى سمعا كلاما فى طرفه الآخر مما يلى الدار الكبرى ، فوقفا ينصتان فاذا بمروان والسجان يتحدثان ومروان يقول : « لابد لى من قتلها اذا ظلت على عنادها ، وقد كنت اتوقع هذا العناد منها ولذلك فانى ارسلتك بالطعام وسرت فى اثرك »

فجمد الدم فى عروق مسعود واسماء ، وايقنا بالهلاك وشق ذلك على مسعود لأنه عرض اسماء للخطر . اما هى فهدأ تروعها وضغطت يد مسعود وجرته الى ما وراء باب الممر حيث انزويا وقلباهما يخفقان، ولبثا ينتظران دخول مروان والسجان فسـمعا مروان يقول : « هات المصباح وتعال »

فقال السجان : « فى حجرتها مصباح تركته عندها »

ودخلا الممر وصدى خطواتهما يتعاظم رويدا رويدا حتى بلغا الباب الثانى الذى اختبأ مسعود واسماء وراءه . فلما رأى مروان المـكان مظلما وقف وقال للسجان : « اين هو المصباح انى ارى السجن مظلما»

فقال السجان : « انى وضعته فى حجرتها ولعلها أطفأته كيدا وقحة، هلم لنرى »

فقال مروان : « انى لا أرى الطريق لشدة الظلام هات مصباحا آخر»

قال : « هلم ندخل ثم آتيك بالمصباح . انزل هذه الدرجات على مهل . ها انى أخطوها أمامك . تمسك بمصراع الباب من عندك »

ونزلا ومروان يتوكأ باحدى يديه على السجان ، وبالأخرى على الباب حتى وصلا أرض الدار الصغرى فمشيا حتى دخلا الغرفة وهما يتلمسان الارض

ولا تسل عن حال مسعود واسماء فى تلك اللحظة فقد كانت عندهما اطول من شهر ، فحالما علما بدخول مروان والسجان الى الغرفة اشار مسعود الى اسماء ان تخلع نعليها وكان هو بلا نعل ، ففعلت وتحول كلاهما من وراء الباب الى الممر بخفة وسرعة ، ومنه الى الدار الكبرى فالباب الكبير وكان ما زال مفتوحا . وأسرعا الى الشارع وهما لا يصدقان أن قد ظفرا بالنجاة

وكانت أسماء تعرف طرق الشام معرفة جيدة فلما بعدا عن السجن وقفا برهة يتدبران المكان الذى وصلا اليه ، فعرفته أسماء وسارت قاصدة كنيسة مارى يوحنا

وقبل أن تصل الى الكنيسة تذكرت خادمها والجوادين فى الخان ، فوقفت تتردد بين ان تسير الى الكنيسة أولا او الى الخان ، فسألها مسعود عن سبب ترددها

فقالت اتردد بين أن اذهب الى كنيسة مارى يوحنا ، فاقيم بها ، وبين ان اسير الى الخان حيث يقيم الخادم ومعه الدواب

فتعجب مسعود لترددها وهو لا يرى حاجة الى الكنيسة لانه لا يعلم بما انبأها به الراهب فى دير البصرة . فقال : « ما لنا وللكنائس، هيا بنا الى الخان ومنه الى الكوفة فقد علمت ان الامام عليا وسائر الصحابة هناك »

فتنهدت وقالت : « نعم انهم جميعا هناك ، ولكن لى فى هذه الكنيسة غرضا يهمنى ؛ وانما جئت دمشق من أجله ولا بد لى من اتمامه . ولكنى أرى ذهابى الى الكنيسة فى آخر هذا الليل مما يوجب شبهة او تساؤلا ، والكنيسة والمسجد متلاصقان او هما بناء واحد ، فأرى ان امضى بقية هذا الليل فى الخان لأرى الخادم وادبر اموره ثم اسير الى الكنيسة » . ثم مشت ومسعود الى جانبها ، فسألته : « هل انت عازم على الذهاب الى الكوفة ؟ » . قال : « نعم ان شاء الله »

قال : « اذا لم يكن بد من ذلك ، فأوصيك بأن تبلغ الامام ورجاله مافيه اهل الشام من النقمة لعثمان والمطالبة بدمه » . وقصت عليه ما رأته فى المسجد من التحريض والتهديد بالأصابع والقميص الى ان قالت : « واذكر لهم انى باقية هنا بضعة ايام ريثما تتم مهمتى »

موقعـــة صفين

رأى الامام على بعد ان انتصر فى وقعة الجمل ونزل البصرة فبايعه اهلها ، أن يستعمل عليها عبد الله بن عباس ، ثم سار الى الكوفة فنزلها وانتظم له الامر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان وبايعه أهلوها ، ولم يبق خارجا عليه الا الشام وفيها معاوية وأهل الشام مطيعون له فى المطالبة بدم عثمان

وكان على قد ولى على مصر قيسا بن سعد بن عبادة وهو من خيرة المهاجرين ، ودهاة العرب . وكان فى مصر جماعة بخربتا يرون غير رأيه ويطالبونه بدم عثمان ولكنهم معتزلون لا يتحركون لحرب ، فرأى قيس من السياسة والدهاء ان يكف الحرب عنهم ويداهنهم لئلا ينضموا الى معاوية

وكان معاوية قد كتب الى قيس يستميله ويبذل له الوعود الخلابة فلم يجبه . فاصطنع معاوية على لسان قيس كتابا قراه على الناس فى الشام يوهمهم ان قيسا معه وانه لذلك لم يقاتل المعتزلين فى خربتا ، فبلغ ذلك عليا فصدق الوشاية فى قيس وعزله عن مصر وولى محمدا ابن أبى بكر

ولم يكن لعلى شاغل يشغله بعد وقعة الجمل الا معاوية وجنود الشام ، فرأى أن يبعث اليه يطلب بيعته فبعث اليه جريرا بن عبدالله البجلى ليطلب منه الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار . فسار جرير الى الشام فماطله معاوية مدة ريثما اراه حال أهل الشام وما يقاسونه من البكاء والعويل عند قميص عثمان وأصابع نائلة ، فرجع جرير بالخبر الى على . فعلم الا بد من الحرب ، فسار من الكوفة الى الشام فى جيش عظيم ، وقد علم بما تحالف عليـه معاوية وعمرو ، وسار معاوية وعمرو من الشام يطلبان عليا ولكنهما ابطآ السير حتى التقى الجيشان فى صفين . ودخلت سنة ٣٧ هـ والجمعان فى « صفين »

وصفين هذه موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات الغربى ، أمام « الرقة » على الضفة الشرقية . وبين صفين والكوفة نحو ثلاثمائة ميل أو أكثر

هناك نزل الجيشان العظيمان يقودهما أعظم رجال الاسلام ونخبة المهاجرين والانصار . وفي ذلك السهل الواسع جرت وقعة صفين المشهورة التي قتل فيها عشرات الألوف من الرجال . وقد نال فيها علي بن ابي طالب ما ناله في وقعة الجمل من النصر والغلبة . ولكن هل انتظم له الأمر بعدها . كلا . فانها كانت خاتمة انتصاراته على مناظريه في الخلافة وبداية دسائسهم عليه . ولم يكن ذلك لضعف عزيمته ، ولكنها حيلة دبرها عمرو بن العاص فنفذت فيه ، وفشل رجاله وانقسموا فيما بينهم

□

لبثت اسماء اياما وأسابيع عند القسيسة تنتظر عودة القسيس من بيت المقدس فلم يرجع ، فحسبت لابطائه الف حساب ، واضطرب بالها ولم تر خيرا من ان تسير هي اليه بنفسها ، واستشارت القسيسة في الامر فاستغربت هذه قلقها وتعجلها رؤية القسيس فقالت لها : « هل تحتاجين الى القسيس في أمر يدعو الى كل هذا ؟ »

فتأوهت الفتاة وسكنت وبدت كأنها تريد مكاشفتها بما في ضميرها لعلها تفرج كربتها

فقالت لها القسيسة : « قولي يا ابنتي ما الذي أوجب تنهدك عسى أن انفعك »

قالت : « اني احتاج الى القسيس في سر عنده عن امي لايعرفه احد سواه ، وقد كانت تعرفه وحدها وباحت به للقسيس . وأما الآن فلم يبق غيره عارفا به »

فأدركت القسيسة ان امها ماتت ، فلم تشأ ان تذكرها بها ، ولكنها أحبت أن تعرف ماهو موضوع ذلك السر فقالت : «هل يجوزان أعرف موضوع ذلك السر ؟ »

قالت : « اعرف لك ياسيدتي اني ربيت في دمشق في حجر امي ورجل كنت احسبه أبي ، فأخبرتني امي ذات يوم ان الرجل ليس أبي ، فسألتها عن أبي الصحيح فوعدتني باطلاعي عليه في فرصة أخرى » . وقصت عليها أسماء قصتها من أولها الى آخرها . وكانت تتكلم والقسيسة تنظر اليها وتتأمل في ملامحها ، فلما فرغت من كلامها تبسمت القسيسة وهشت لها وضمتها وقالت : « لعلك ابنة مريم ؟ »

قالت : « نعم ياسيدتي » . واستأنست بحنوها ومعرفتها اسم أمها فقالت : « وهل تعرفينها ؟ »

قالت : « مسكينة أمك ، انى اعرفها جيدا قبل ان تتزوج ، وكانت كثيرا ماتاتى الكنيسة للصلاة ، وكنت انا يومئذ شــابة وهى صبية ، وكنت احبها كثيرا فلا يمضى عيد من اعيادنا الكبرى كالفصح والشعانين والميلاد وغيرها الا دعيت انا والقسيس الى مائدة جديك رحمهما الله . واذكر انه كان لأمك اخ جميــل الصــورة حاد الذهن ، كان ياتى معهــا وابويهما للصلاة . وظللنا على ذلك حتى جاءنا العرب منذ بضع وعشرين سنة ففتحوا المدينة واستولوا عليها فتفرق شملنــا ، وكانت أمك قد اصبحت شابة ، وهى فى مثل حالك جمالا وذكاء ، ولم اعد ارى جديك ، ولكننى سمعت انهما قتلا . اما امك فأخذوها سبيــة ولم اعد اراها ، الى ان جاءت فى العام المــاضى الى القسيس ، واذكر انى رايتهــا وهى داخلة فمكثت عنده برهة وانا احسبنى اعرفها ، ولمــا خرجت سالت القسيس عنها وقلت : (اليست هذه مريم بنت قسطنطين ؟ ــ وهو اسم جدك ــ . قال : (بلى) . ولكننى رأيت على وجهه بعد خروجها من عنده اثر الانقباض ، ورايت الدمع فى آماقه ، فاضطربت ولم اساله عن السبب مخافة أن يكون سؤالى تطفلا ، لعلمى ان القسيس مستودع اسرار كثيرين ، وقلت فى نفسى : (لو كان خبر مريم ممــا يجوز ذكره لمــا تأخر عن ذكره) . اما هو فــكأنه ادرك قلقى وتشــوقى لمعرفة خبر أمك ، لما يعلمه من رابطة المودة بيننا . فلما جلسنا على المائدة فى المساء أخبرنى عن قصتها وسبب غيابها عنه كل هذه المدة ، وفهمت من خلال كلامه ان الرجل الذى كان معها يومئذ ليس اباك وان اباك رجل آخر »

فقالت أسماء بلهفة : « الم تعرفى اسم أبى ؟ »

قالت : « كلا لأنى لم اساله »

فاستأنست اسماء بالقسيسة ، وازدادت ميــلا اليها فقالت لهــا : « بماذا تشيرين على الآن ، أانتظر رجوع القســيس ام اسير الى القدس فأستطلعه السر ؟ »

فصمتت القسيسة كأنها تفكر فى امر ، ثم تغير لونها بغتة وانقبض وجهها ونظرت الى اسماء والدمع يتلألأ فى عينيها وقالت : « ارى ان تذهبى الى بيت المقدس لأن القسيس اصبح شــيخا هرما » . قالت ذلك وغصت بريقها

فأدركت أسماء انها تخاف انقضــاء اجله عاجلا ، فتجاهلت ما بدا من عواطفها وقالت : « ها انذا ذاهبــة والاتكال على الله » . ونهضت فودعت القسيسة وخرجت تلتمس الخان وفيه خادمهــا والجوادان ، فأمرت

الخادم بالاستعداد ، وفى صباح اليوم التالى ركبت وسارت قاصدة الى بيت المقدس

وكان القسيس مرقس يعرف جدى أسماء وأسرتها قبل الفتح ويعطف عليها بالتخصيص ، فلما تسلم السر من أمها شاركها مصابها وازداد عطفا عليها ، وود لو استطاع أن يفرج كربتها ، فلما جاءته فى المرة الاخيرة قبل سفرها الى المدينة وأخبرته انها عازمة على كشف امرها لذوى الشأن هناك ، سره هذا ولكنه رآها ضئيلة مريضة فتشاءم وتوقع قرب انقضاء أجلها ، فأوصاها بأن تبعث اليه بما يحدث لها وهو انما يريد بذلك أن يتحقق من وصولها الى مأمنها حية . فلما انقضى العام ولم يأته منها نبأ قلق عليها ، وكان كلما سمع اسم يثرب (المدينة) يتجدد بلباله ويود لو يرى أسماء ، ليطلعها على اسم أبيها ، ولكنه لم يكن يعرف مقرها ، فلبث وهذا شأنه حتى جاء الامويون بقميص عثمان واصابع نائلة ، وكان ماكان من بكائهم وعويلهم ، وعلم ماحدث من الفتنة فى المدينة فازداد قلقه واثر ذلك فى صحته ، فاضطر مع كبره وضعفه الى أن يبرح دمشق الى مكان يستقر فيه ريثما تهدأ الاحوال . فخطر له الذهاب الى بيت المقدس لأن له فيها أهلا يرتاح الى مجاورتهم ، فركب اليها قبل وصول أسماء الى دمشق ، ومكث هناك مدة وهو يزداد ضعفا ، ولم يجده ترحيب أهله واحتفاؤهم به نفعا ، وأحس بقرب الاجل

فخطر له الشخوص الى انطاكية حيث الكرسى البطريركى الذى سيم فيه قسيسا فيرى البطريرك الانطاكى ويتزود بالاسرار المقدسة على يده قبل الوفاة . واتفق أن سفينة امبراطورية كانت راسية فى مياه عسقلان انفذها الامبراطور قونسطانس الثانى ليحمل البطريرك الاورشليمى الى انطاكية للبحث مع بطريركها فى بعض الشؤون الدينية التى كان الخلاف قائما عليها فى تلك الايام . وكان البطريرك الاورشليمى قد علم بعزم القسيس على الذهاب الى انطاكية ، فدعاه ليسافر معه بحرا لأن الفصل صيف ولاخوف من الانواء ، والطريق فى البر شاق لما يقتضيه من ركوب الدواب وقطع الجبال والاودية ، فسر القسيس بتلك الدعوة وسار فى حاشية البطريرك الى عسقلان على أن يسيرا منها الى انطاكية فى السفينة الامبراطورية

واتفق وصول أسماء الى القدس بعد خروج القسيس منها ببضعة أيام ، ولما اخبروها انه قصد انطاكية استعاذت بالله مما ابتلاها به

من النحس فى أسفارها ، وباتت ليلة وصولها مسهدة حزينة لم يجف دمعها لفرط ماتولاها من القنوط ، فأصبحت شـديدة الاعتقاد بسوء طالعها

على انها أصبحت فى اليوم التالى وقد هدأ روعها وعادت اليها رباطة جأشها فقالت فى نفسها : « لأذهبن الى انطاكية على عجل قبل أن يخرج القسيس منها والاتكال على الله » . فركبت جوادها وسارت والخادم فى رفقتها يقوم لها بما تحتاج اليه من الخدمة فى السفر ، وكانت حيثما توجهت تتنكر بلباس الرجال مخافة أن يعلم مروان بها ، ولا ينجيها منه شيء الا القتل . وكان المسافر من القدس الى انطاكيـة يغلب أن يمر بدمشق ولكنها جعلت طريقها لبنان . وبعد مسيرة أيام وليال أشرفت على انطاكية

وكان وصولها قبل طلوع الشمس ، والشمس لاتطلع على انطاكية الا متأخرة لاحتجابها بجبلها الشرقى . واشرفت أسماء على تلك المدينـة العظيمة أم مدن الشام ومقر بطاركتها ، بل هى ثالثة مدائن تلك الايام (رومية والاسكندرية وانطاكية) فأطلت عليها من مرتفع مشرف فاذا هى مستطيلة الشكل على ضفة نهر « العاصى » الجنوبية ، وتحدق بها البساتين الغناء وفيها الثمار والفاكهة من كل الانواع . فدهشت أسماء لعظمة تلك المدينة وما فيها من الابنية الشاهقة ، واكثرها من الكنائس فوقها القباب المزخرفة وفيها الطرق التى لاتكاد تشرق الشمس حتى تغص بالناس . وادهلها بنوع خاص سورها العظيم وما عليه من الابراج التى يبلغ عددها ٣٦٠ ، وله خمسة أبواب . وتتبعت ذلك السور الواسع بنظرها لعلها تحيط بسعة المدينة فرأت انها تحاول عبثا لأن السور يصعد مع الجبل الى أعلاه ثم ينزل من الجهة الاخرى بحيث يحيط بالمدينة ومزارعها جميعا بما نزيد مساحته على بضعة عشر ميلا مربعا

فبهتت أسماء لتلك المناظر الفخمة ، وكان بحر الروم يتراءى لها عن بعد فى الافق كأنه هلال مستطيل . وبعد أن وقفت هناك برهة تتأمل عظمة هذه المدينة تحولت الى باب من أبواب السور فى الشرق واتصلت منه بالطريق الاعظم الذى يقطع المدينة فى طولها من الشرق الى الغرب وطوله أربعة أميال وعليه من الجانبين أربعة صفوف من الاعمدة الرخامية تعلوها أقواس جميلة ، وفى الوسط طريق واسـع مكشوف مرصف بالجرانيت ، تحده من الجانبين مقاعد من الرخام المنقوش . وهو كله على استقامة واحدة تتفرع منه طرق صغرى من الجانبين . فذهلت أسماء لما شاهدته من العظمة والبذخ فى انطاكية مما لم تر مثله قبـلا . ومما زاد ذهولها ودهشتها انها رأت تيجان الاعمدة فى ذلك الطريق الطويل محلاة بالذهب الخالص مما يندر مثله فى أعظم مدائن الارض . على ان ذلك

المنظر الجميل كان ممزوجا بما يدعو الى الاسف الشديد ، لما توالى على هذه المدينة من الزلازل التى دكت معظم ابنيتها فشوهت وجهها وغيرت مجرى نهرها ، على ان العظمة مع ذلك ما زالت تتجلى فيها

وظلت أسماء سائرة تلتمس دار البطريرك لعلها ترى القسيس هناك ، فوصلت الى بناء شاهق يدخلون اليه من باب عظيم قائم على اعمدة من الرخام ، عتبته العليا من الجرانيت الاحمر الجميل ، وعليها نقوش باليونانية لم تستطع قراءتها ، فأطلت من ذلك الباب الى فناء واسع رصف بالفسيفساء ينتهى الى سلم عريض يصعدون منه الى دار رحبة رات فيها جماعة من القسيسين والشمامسة وغيرهم يخطرون فى مشيهم ، وكل اثنين او ثلاثة منهم فى شاغل بالحديث ، فقالت فى نفسها : « ادخل ؟ . ولكن اذا كان القسيس ليس هنا فما الذى يدخلنى ؟ » ثم سألت بعض الوقوف عند الباب عن القسيس مرقس فقال : « لا اعرفه » . فتذكرت انه قادم على سفينة البطريرك الاورشليمى وانهما يصلان معا ، فسألت عن البطريرك فقالوا : « انه لم يصل بعد ، ولا يعلم زمن وصوله لأن السفر فى البحر رهين بحالة الجو والريح ، وقد يصل بعد يومين ، او بعد اسابيع » . وماعلمت اسماء ذلك حتى قالت : « لابد لى اذن من التربص حتى تصل السفينة » . وامرت الخادم ان يسير بها الى خان تقيم به

قضت اسماء فى الخان اياما وهى على مثل الجمر تصعد احيانا الى الجبل للنظر منه الى البحر لعلها ترى السفينة قادمة ، ولكن بعد البحر من انطاكية كان كثيرا ما يحول دون رؤيتها شيئا فاذا ملت الاصطبار ارسلت خادمها الى البطريركية يسأل عن القادمين ، حتى لم يبق لها صبر على البقاء هناك ، وشكت سوء طالعها وقالت فى نفسها : « لايبعد ان تكون السفينة قد غرقت بمن فيها لشقائى »

وكانت غرفتها تشرف على الطريق الاعظم ، فاستيقظت ذات يوم على ضجيج الغوغاء وجلبتهم ، فأطلت من النافذة فرات جماعات من العرب بالعدة والسلاح سائرين على غير نظام يحمل بعضهم الاعلام وفيهم الفرسان والمشاة تتقدمهم بعض النساء بالدفوف بين مربع ومستدير يضربن عليها وينشدن الاشعار الحماسية يحرضن بها الرجال وينهضن هممهم . فعلمت اسماء انهم من جند انطاكية ولكنها لم تفهم معنى جلبتهم فنادت الخادم فلم يجبها لأنه كان قد انخرط فى سلك المارة يحادثهم ويستفهم عما هم فيه . وبعد قليل عاد مسرعا

والبغتة بادية على وجهه . فقالت : « ما وراءك . . . من هؤلاء ؟ »
قال : « جماعة من جند انطاكية سائرون لنجدة جند الشام فى صفين»
فقالت : « على من ؟ » . قال : « على جند أمير المؤمنين على بن ابى طالب »
فقالت بلهفة : « وهل هم فى حرب هناك ؟ »
قال : « نعم ياسيدتى ، انهم هناك من زمن بعيد، وبعض الذين حدثتهم يزعم انه شهد معركة حامية هناك انكسر فيها جيش الامام »
ولم يتم كلامه حتى اقشعر بدن اسماء وصعد الدم الى وجنتيها غيرة وحية وقالت : « أين هى صفين ؟ »
قال : « على بضع مراحل من هذا المكان شرقا »
فلبثت فى حيرة بين أن تظل فى انطاكية حتى يصل القسيس وبين ان تسير الى صفين وترى ماوقع لجند الامام ، فظلت صامتة برهة ، فتركها الخادم وخرج . اما هى فقالت فى نفسها : « ان انتظارى سفينة قادمة فى هذا البحر قد يطول كثيرا ، لأن سفر البحر لاحدود له ، وقد ينتهى انتظارى بالفشل اما بغرق المركب واما بموت القسيس قبل وصوله». قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها حزنا على حالها وغيظا مما احدق بها من سوء الطالع ، فبكت ، ثم عادت الى تفكيرها فقالت : « واما الحرب فى صفين فان عليها تتوقف سعادة المسلمين أو شقاؤهم ، وما انا خير من احدهم ، ولابد لى من الاسراع الى هناك عسى ان أؤدى خدمة لعلى أو اقتل فى ساحة الوغى فأنجو من البلاء » . ثم نادت الخادم وقالت : « أسرع الى دار البطريرك واسأل عن القسيس مرقس ، فان علمت انه لم يأت فعد حالا واسرج الجوادين واعد معدات السفر »
فخرج الخادم ، وبعد قليل عاد ومعه بعض الزاد مما لاغنى عنه فى الطريق واخبرها ان السفينة لم تصل ولا يعلم زمن وصولها وانه أعد ما تحتاج اليه فى الطريق
فقالت : « نذهب الى صفين ، حتى اذا انقضت الحرب وظللنا على قيد الحياة عدنا الى انطاكية ، والا فعلى الدنيا السلام »
ولم تمض ساعة حتى ركبت اسماء ، وركب خادمها فى أثرها ، وخرجا من المدينة ، فالتقيا بالنجدة سائرة امامهما . ففكرت أسماء فيما تستطيع أن تخدم به الامام على وهى يد واحدة لاتفيد فى القتال فائدة تذكر، فلاح لها أن تخدمه فى استطلاع حال العدو وكشف عوراته ومخبآته ولا يتم لها ذلك الا اذا اختلطت بجند الشام . وذلك لايكون الا اذا تنكرت وانخرطت فى سلكه
وقضت مسافة الطريق وهى تفكر فى الامر، وسبقت نجدة انطاكية ،

فاطلت فى صباح الخميس بعد بضعة ايام على سهل صفين من جبل عال فهالها ما شاهدته فى ذلك السهل من الخيام والاعلام والجند والخيل والجمال ، ولم يكن فى ذلك الحين قتال . فرأت هناك معسكرين احدهما فى الشرق والآخر فى الغرب ، وبينهما ساحة خالية ، فعلمت انهما معسكرا على ومعاوية فى هدنة ، وشاهدت الجمال سارحة فى المرعى وراء الخيام ومعها العبيد ترعاها ، وتأملت معسكر الشام لانه اقرب الى موقفها من ذاك ، فرأت فى وسطه قبة كبيرة حولها الرجال والخيول فعلمت انها قبة معاوية امير تلك الحملة

وما كادت تتامل فى المعسكرين برهة حتى رات فيهما حركة ، وقد تهيأوا جميعا للقتال والتحم الجيشان وتطايرت النبال وصهلت الخيول وخفقت الاعلام وصاح الفرسان من الجانبين . فلم تر بدا من العمل فقالت لخادمها : « اعطنى ثيابك وخذ ثيابى وابق أنت هنا بالجوادين »

ارتدت أسماء ثياب خادمها فاصبحت تشبه رجال حملة انطاكية ، ثم انتظرت حتى وصل جنود النجدة فانخرطت فى سلكهم وسارت مع المشاة لاينتبه اليها احد ، حتى دخلت معسكر معاوية والحرب محتدمة وكل لاه بنفسه . وما زالت تخترق صفوف المقاتلين وهى تتظاهر بالقتال معهم ، حتى وصلت الى قبة معاوية فرات خمسة صفوف من الرجال قد عقلوا أنفسهم بالعمائم حولها للدفاع عن معاوية بحيث لايستطيع احد أن يفر وحده . فعلمت أنهم متفانون فى سبيل نصرته او يقتلون فى الدفاع عنه ، وتفرست من خلال الصفوف فرات معاوية والى جانبه عمرو بن العاص ، وكلاهما فى وجل وعيونهما تكاد تطير شعاعا تطلعا لما سيكون من عاقبة تلك الوقعة ، وهما يحثان الرجال على الدفاع ويحرضانهم على الثبات ، والنبال تتطاير كأنها الجراد فى السحاب . فاحتالت أسماء فى الدخول الى قبة معاوية ، فرات فارسا جاء مسرعا ودخل من شق بين تلك الصفوف ، فدخلت فى أثره ودخل غيرها أيضا فلم ينتبه لها أحد ، فسمعت معاوية يسأل الفارس عما به ، فقال : « ان وطأة العدو شديدة ولكننا سنغلبهم باذن الله »

ونظرت أسماء الى وجه عمرو بن العاص فاذا هو ممتقع ، وقد بان الخوف فيه وفى وجوه معاوية ومن معهما من الامراء . ثم رأت ابن العاص خرج مسرعا فركب فرسه وسار يخترق الصفوف يحث الرجال ويحرضهم ، فظلت واقفة فى جملة الوقوف وقد سرت بما رأته من شعور معاوية بقوة رجال علي . وبعد هنيهة عاد عمرو واختلى بمعاوية فلم تسمع أسماء مادار بينهما ، ثم عادا الى فرسيهما يشرفان على المعركة

الهدنة والتحكيم

واصبحوا يوم الجمعة والقتال على أشده ، وقد تقهقر جند معاوية حتى وصل رجال على الى الصفوف المعقولة حول القبة . فالتفت معاوية الى عمرو وقال : « ما الحيلة يا عمرو ؟ »

قال : « ارفعوا المصاحف على الرماح ، وقولوا : (كتاب الله بيننا وبينكم) فان قبلوا ذلك جميعا ارتفع القتال عنا . واذا قبل بعضهم دون البعض الآخر تفرقوا وانقسموا على انفسهم فيكون لنا بانقسامهم فرج »

فلما سمعت أسماء ذلك خافت أن يخدع رجال على ، فهرولت مسرعة تخترق الصفوف وقلبها يخفق فرحا لأنها تمكنت من القيام بهذه المهمة لأنها واثقة من فشل جند معاوية وان النصر لعلى اذا ظل على القتال . أما اذا صدق حيلة عمرو فانه يضيع الفرصة السانحة

أما على فكان قد قاتل ببسالة طوال نهاره وليله ، وقد تحقق فوز جنده ، وظل يطوف فى صفوفهم يحثهم على الثبات ويدعو لهم بالنصر الى أن عاد فى الصباح الى فسطاطه . فجاءه مخبر بأن أهل الشام رفعوا المصاحف على الرماح وهم يقولون : «هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم . من لثغور الشام بعد أهله . ومن لثغور العراق بعد أهله » . فلما سمع على كلامهم قال : « لا . لانجيبهم الى ذلك فهى حيلة لاتنطلى علينا »

فجاءه نفر من رجاله وقالوا : « بل نجيبهم الى كتاب الله »

فوقف على وقد خاف الفتنة وقال :

« عباد الله ، أمضوا الى حقكم وصدقكم ، وقتال عدوكم ، فان معاوية وابن العاص وابن ابى معيط وحبيبا وابن ابى سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، انا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم اطفالا ثم رجالا ، فكانوا شر اطفال وشر رجال . ويحكم ، والله مارفعوها الا خديعة ووهنا ومكيدة »

فقالوا : « لايسعنا أن ندعى الى كتاب الله فنأبى أن نقبله »

فقال : « فانى انما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب ، فانهم قدعصوا الله فيما امرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه »

فقال له مسعر بن فدكى التميمى وزيد بن حصين الطائى فى عصبة

من القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج : « ياعلى ، اجب الى كتاب الله عز وجل اذا دعيت اليه ، والا دفعناك برمتك الى القوم ، او نفعل بك ما فعلنا بابن عفان »

قال : « فاحفظوا عنى نهيي اياكم ، واحفظوا مقالتكم لى ، فان تطيعونى فقاتلوا ، وان تعصونى فاصنعوا مابدا لكم »

قال ذلك وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما . وفيما هو فى هذا انشق الجمع وخرج من بينهم جندى لم يكن سوى اسماء ، وقدوصلت وسمعت الناس يحاجون عليا ، فهرولت حتي وقفت بينهم وبين على ، وثارت الحمية فى راسها وعلى وجهها احرار التعب من شدة العدو ، فضلاعما قام فى نفسها من الاسف لتلك الحال ، فاسفرت وحيت الامام بتحية الخلافة ، والتفتت الي الوقوف هناك وقالت لهم : « اعلموا انى قادمة من معسكر معاوية ، وقد سمعت حديثهم عن الحيلة باذني ، وانما جئت مسرعة مخافة أن تنطلى الحيلة عليكم وتكفوا عن القتال (انها والله خديعة اخترعها ابن العاص ليلقي الشقاق بينكم . واخشى انتنفذ حيلته فيكم فأطيعوا امير المؤمنين وانتم الغانمون »

فضحكوا من كلامها وقالوا : « كيف ندعى الى كتاب الله ولانجيب. هذا لايكون ابدا »

ثم وجهوا كلامهم الى على وقالوا : « ابعث الى الاشتر فليأتك » . وكان الاشترالنخعي من أشجع قواد تلك الحملة وقد ابلى فى تلك الحرب بلاء حسنا ، وكان لايزال يحارب ، وهم انما طلبوا استقدامه ليكف عن الحرب . فبعث اليه فلم يأت لانه رأى الفوز بين يديه ، فاذا تحول عن موقفه فسدت أعماله

فلما أبطأ قال أولئك الناس لعلي : « نظنك امرته بالحرب فابعث اليه والا والله اعتزلناك . فبعث اليه ثانية فجاء وهو يقول : « اظنكم تدعوننى الى الكف عن القتال بعد رفع المصاحف »

ثم أقبل وهو يقول :

« يا أهل العراق ، يا أهل الذل والوهن ، أحين غلبتم القوم وظنوا انكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزلت عليه ، فأمهلونى فواقا فانى أحسست بالفتح » . ولكنهم لم يمهلوه

قال : « أمهلونى عدو الفرس فانى قد طمعت فى النصر »

قالوا : « اذن ندخل معك فى خطيئتك »

قال : « فخبرونى عنكم متى كنتم محقين ؟ أحين تقاتلون وخياركم

يقتلون ؟ فأنتم الآن اذا امسكتم عن القتال مبطلون . ام أنتم الآن محقون؟ فقتلاكم الذين لاتنكرون فضلهم وهم منكم فى النار »

قالوا : « دعنا منك يا أشتر قد قاتلناهم لله وندع قتالهم لله »

قال : « خدعتم وانخدعتم ، ودعيتم الى وضع الحرب فاجبتم ، يا أصحاب الجباه السود ، كنا نظن صلاتكم زهادة فى الدنيا وشوقا الى لقاء الله ، فلا أرى مرادكم الا قبحا ، يا أشباه النيب الجلالة ما أنتم برائين بعدها عزا ابدا ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون »

فسبوه وسبهم وضربوا وجه دابته بسياطهم وضرب وجوه دوابهم بسوطه . فصاح به وبهم على : « كفوا » . وقال الناس : « قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما »

وطال الاخذ والرد بينهم ، وأسماء واقفة وقلبها يكاد ينفطر جزعا من عناد أولئك المخالفين ، فلما سمعت قبولهم اجابة الدعوة ، تناثرت الدموع من عينيها والتفتت الى على فاذا هو مطرق وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما كأنه يرى عاقبة ذلك بعينه ، فتعاظم غيظها وارادت تأنيب المستخلفين ثم أحجمت ولبثت ترقب مايكون

وتقدم رجل من خاصة على ، فقال : « نرى الناس قد قبلوا مادعوا اليه من حكم القرآن ، فهل تأذن فى ان نسمع مايدعونا معاوية اليه من هذا الامر ؟ »

قال على : « سر اليه واسأله »

فذهب ثم عاد وهو يقول : « سألت معاوية عما حمله على رفع المصاحف ، فقال : « الرجوع الى ما امر به الله فى كتابه ، فابعثوا رجلا ترضون به ، ونبعث نحن رجلا نرضى به ، نأخذ عليهما ان يعملا بما فى كتاب الله ، لايتعديانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه »

فقال على : « قبلنا فأى رجل اختاروا »

قال : « اختاروا ان ينوب عنهم عمرو بن العاص »

فالتفت على الى من حوله وقال : « ومن تختارون أنتم ؟ »

قالوا : « نختار أبا موسى الاشعرى »

فأجفل على وقال : « لا . لا . . انكم لم تصيبوا . وقد عصيتمونى فى أول الامر ، فلا تعصونى الآن . لا أرى أبا موسى كفوًا لابن العاص ، وهو مع ذلك ليس بثقة ، فقد فارقنى وخذل الناس عنى - ثم هرب

منى حتى أمنته بعد اشهر . فكيف نركن اليه فى هذا التحكيم . هـذا ابن عباس أوليه ذلك »

فصاحوا بصوت واحد : « والله لانريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء » . قال على : « فانى أجعل الاشتر »

قالوا : « وهل سعر الارض غير الاشتر » . قال : « قد ابيتم الا أبا موسى »

قالوا : « نعم » . قال : « افعلوا ما أردتم »

وكانت أسماء تسمع الجدال وهى تتميز غيظا ، ولكنها لاتجرؤ على الكلام تهيبا من على

وبعد قليل جاء أبو موسى الاشعرى وعمرو ، فدخلا على على ليكتبا القضية بحضوره ، وهى صورة عقد التحكيم فبدأوا بكتابة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين . . » . فاعترض عمرو قائلا هو أميركم وليس أميرنا ، وطـال الجدال فى ذلك حتى وقع نفور شديد بين على وعمرو وانتهى الامر الى أن يكتب العقد على هذه الصورة

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليـه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم . اننا ننزل عند حكم الله وكتابه ، والا يجمع بيننا غيره ، وان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته ، نحيى ما أحيى ونميت ما أمات . فما وجد الحكمان فى كتاب الله ، وهمـا أبو موسى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص ، عملا به . وما لم يجداه فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير مفرقة . واخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق انهما آمنـان على نفسيهما واهليهما ، والامة لهما انصار على الذى يتقاضيان عليه . وعلى عبد الله ابن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ان يحكما بين هذه الامة لايردانها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيـا . واجل القضـاء الى شهر رمضان ، وان أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه ، وان مكان قضيتهما مكان عدل بين اهل الكوفة وأهل الشام » . ويلى ذلك اسماء الشهود

وقد كتب هذا العقد فى ١٣ صفر سنة ٣٧ هـ

ولما تمت الكتابة ، تلى العقد على الناس ، وانفض المجلس ولجأ الجنود الى الهدنة ريثما يحل الاجل المضروب لمجلس التحكيم

وتراجع الناس عن صفين وهم على بالنزوع الى الكوفة ، فجاءته اسماء فى ساعة كان فيها مختليا ، وقبلت يده فسألها عن حالهـا وما تم لها بعد سفرها ، فقصت عليه خبرها وما حملها على القدوم قبل مقابلة القسيس ، فأثنى على غيرتها ودعاها الى الذهاب معه الى الكوفة

فقالت : « حبذا الامر ولكنني أقرب الآن الى انطاكية منى الى الكوفة ، فاذن لى بالذهاب اليها ، فقد آن لى أن اعرف نسبى » . فأطرق على برهة يتأمل فخافت أن يكون فى شاغل آخر فودعته وخرجت على أن تعود يوم التحكيم لتسمع حكم الحكمين

وكان المسلمون فى انتظار ذلك اليوم لأنه سيكون عظيما ، ولم تفتقد محمدا لأنها علمت انه فى مصر يتولى أمورها

□

عادت أسماء الى الجبل حيث تركت جوادها وخادمها وخلعت ثيابها وركبت الى انطاكية لا تستريح ليلا ولا نهارا

فأشرفت عليها من جبلها الشرقى ، وأطلت على البحر فلمحت شيئا كأنه سفينة حجبها البعد عنها ، فخفق قلبها سرورا وهبطت من الجبل حتى اذا دنت من المدينة سمعت دق الاجراس دقا بطيئا متقطعا فقالت فى نفسها : « لعلهم يحتفلون بقدوم البطريرك » ، ولكنها لم تكد تسير فى الطريق الكبير حتى رأت الناس محتشدين يتقدمهم رهط من الاكليروس بالمباخر فعلمت انه احتفال بجنازة

ولا تسل عن حالها لما علمت أنها جنازة القسيس مرقس وقد مات بعد وصوله الى أنطاكية بيومين ، فانها لطمت وجهها وندبت سوء حظها ، وذهبت توا الى الخان وأقفلت باب غرفتها واطلقت لنفسها عنان البكاء ، وجعلت تعدد ما أصابها من الاحن منذ ولادتها ، وكم قاست من المصائب وكم عانت من الأخطار ، حتى اذا دنا وقت سعادتها وآن لها أن تعرف أباها داهمها القدر بالفشل الذريع

وتذكرت مروان وما قاست من البلاء بسببه ، وتذكرت عذابها فى الصحراء بين مكة والبصرة ، وما قاسته على أثر ذلك . وغرقت فى تيار هواجسها ، وتحققت سوء حظها ، وتمنت أن تموت فتخلص من العذاب . ولما تمنت ذلك أجفلت وندمت لأنها تصورت محمدا وحبه لها وما ترجوه من السعادة بقربه فقالت : « لا . . لا أموت بل احيا لأجل حبيبى ، واقصى مرادى ، وهو تعزيتى الوحيدة فى هذا العالم ، فاذا خسرت الدنيا كلها وفاتنى كل نعيمها وحصلت على محمد بن أبى بكر فذلك يكفينى »

وبعثت خادمها يستطلع مكان التحكيم وزمانه فأنبأها انه سيكون فى « أذرح » فى اطراف الشام من أعمال السراة بنواحى البلقاء وعمان فى زمن معلوم ، فلما دنا الأجل تنكرت وسارت تلتمس أذرح والخادم معها

حكم الحكمين

ولما جاء الاجل المعين لتلاوه حكم الحكمين ، بعث على ابا موسي الاشعرى فى أربعمائة رجل ومعهم عبد الله بن عباس . وبعث معاوية عمرو بن العاص فى اربعمائة من اهل الشام والتقوا باذرح . وكان عمرو ابن العاص قد استعان بكل دهائه فى اقناع ابى موسى بأن يوافقه على خلع على وتولية معاوية لأنه المطالب بدم عثمان ، فلما لم يفلح ذكرله تولية احد ابناء الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، وبعد جدال عنيف اتفقا على خلع على ومعاوية ، وان يختار المسلمون واحدا غيرهما بالشورى . وكان من دهاء عمرو أنه ما زال يدافع ابا موسى فى الكلام حتى طلب هذا خلع الاثنين فأصبح هو البادىء فى الكلام عند اصدار الحكم

فلما جاء اليوم المعين ، واجتمع الناس من الاقطار وصلت اسماء أيضا فى ذلك اليوم فوقفت بين الناس بحيث لا يعرفها أحد ، فرات ابا موسى وابن العاص فى مجلس على ، وبقية الناس فى جانب آخر كأن على رؤوسهم الطير ينتظرون مايكون من الحكم

فوقف أولا ابو موسى ، فأصغى الناس لمقاله فقال بصوت عال يسمعه الحاضرون : « ايها الناس انا قد نظرنا فى أمر هذه الامة فلم نر اصلح لأمرها ولا الم لشعثها من امر قد اجمع رايى وراى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ، ويولى النـاس من أمرهم من احبـوا . وانى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا امركم وولوا من رأيتموه أهلا »

وكان لقوله وقع عظيم ولبث الناس ينتظرون قول عمرو فاذا هو قد وقف وقال : « ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه (عليا) وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، واثبت معاوية فانه ولى عثمان بن عفان والمطالب بدمه واحق الناس بمقامه »

فلما سمع أصحاب على قوله علموا أنها حيلة من عمرو وغفلة من ابى موسى ، ووبخوا أبا موسى وأنبوه فقال : « ما العمل فقد غدر بى »

وأما أسماء فلما سمعت القولين علمت ان معاوية قد اشتد ساعده ، وأن رجال على لا بد أن ينقسموا بين من يقبل الحكم ومن لا يقبله ، فلم تستطع صبرا على البقاء هنـاك ، فخرجت من بين الجمع لاتأوى على

شيء وقد صفرت نفسها . وما زالت سائرة والخادم معها حتى اتت شجرة منفردة في الصحراء فاستظلت بها وشغلت الخادم بتدبير الجوادين وخلت الى نفسها وجعلت تفكر في حالها وما اصابها من الفشل المتوالى من كل صوب وحدب ، ولا سيما موت القسيس وضياع اسم ابيها وفشل رجال علي وخروج الخلافة من يده بحكم الحكمين ، فغلب عليها اليأس فلم تر لها فرجا الا بالبكاء والنحيب ، فنظرت الى ما حولها فاذا هي منفردة وليس من يسمع بكاءها فأطلقت لدموعها العنان حتى كاد يغمى عليها . وما زالت تشهق وتزداد شهيقا كلما ذكرت عليا أو امها أو محمدا . حتى تعبت وجف دمعها ، فالقت راسها على حجر ونامت ولكنها لم تستغرق في النوم اذ تراءى لها طيف محمد فافاقت مذعورة وهي تقول : « أهلا بحبيبي لا تعزية لي الا به . انه في مصر الآن ، هل من يعلمه بما حل بأمر الخلافة ، وان ابن العاص قد كاد فيها كيدا عظيما . آه يا محمد هل من حيلة تخدم بها عليا رجل هذه الامة ، لا اظن الامر بعد الآن الا صائرا الى معاوية . أما انا المسكينة اليتيمة المجهولة النسب والتعسة الحظ فربما كنت انا وحدي سبب هذا البلاء ، وربما كان سوء طالعي هو الذي جر كل هذه المصائب » . وسكتت هنيهة ثم انتبهت بغتة وهي تقول : « محمد ، محمد ، أنت تعزيني في احزاني ومصائبي ، هلم بي اليك لأعيش بقربك فانت الاب والأخ »

وفيما هي تخاطب نفسها لمحت الخادم عائدا بالجوادين وهو يسرع نحوها فقالت : « ما وراءك ؟ »

قال : « التقيت وانا اسرج الجوادين بشرذمة من رجال الشام ركبوا مسرعين وفيهم عمرو بن العاص وكلهم فرحون بما نالوه ، وسمعت ابن العاص يقول : « لقد استقام لنا الامر ، ولم يبق الا ان افتح مصر ، فاذا دانت لي عدت الى ولايتها ولا يبقى في يد علي الا العراق والحجاز فنجرد عليهما ونفتحهما »

فلما سمعت ذكر مصر وفتحها اضطربت وتذكرت محمدا فيها فقالت في نفسها : « اذهب الى مصر الآن وارى ما يؤول اليه امرها » . ثم التفتت الى الخادم وقالت : « وما ظنك في مسيرهم الى مصر ؟ »

قال : « لا ادري متى يسيرون فلا بد لهم من الشخوص الى الشام وتدبير امورهم ثم يحملون على مصر »

فلبثت مدة تتردد . ولا تدري هل تسير الى مصر لترى محمدا ام تسير الى الكوفة لترى عليا وما آل اليه امر خلافته .

ولم تر بدا من المسير الى مصر ، فاسرعت الى جوادها فركبته وقد يئست مما اصابها من الفشل ، وسارت تعلل نفسها بلقاء محمد

عمرو يعود إلى القاهرة

مر بنا ما كان من اجتماع دعاة عثمان فى مصر وعزل قيس بن سعد عنها بما دبره معاوية من الحيلة حتى افسد ما بينه وبين على . ثم ما كان من تولية محمد بن ابى بكر ، فلما تولاها محمد بعث رجلا من خاصته لحرب أهل خربتا القائمين بدعوة عثمان فقتلوه وتعاظم امرهم وفسدت مصر كلها على محمد . فبلغ ذلك عليا فقال : « ما لمصر الا أحد الرجلين » . يعنى قيسا او الأشتر ، وكان قد عزل قيسا فلم يرجع اليه ، فبعث الى الأشتر وكان قد عاد بعد صفين الى عمله فى الجزيرة . فلما جاءه اخبره خبر مصر وقال : « ليس لها غيرك فاخرج اليها ، فانى لو لم اوصك اكتفيت برايك » . فخرج الأشتر شاخصا الى مصر . واتت عيون معاوية اليه بذلك ، فعظم الامر عليه ، وكان قد طمع فى مصر لكثرة خيراتها ليستعين بها على اعماله وحروبه . وعلم ان الأشتر ان قدمها فسيكون اشد عليه من محمد بن ابى بكر

وكان على حدود مصر يومئذ بلدة اسمها القلزم بالقرب من مكان السويس ، يغلب ان يمر بها القادم من الشام الى مصر ، وكانت القلزم هذه فى حوزة معاوية

فبعث معاوية الى صاحب خراجه فى القلزم يخبره بمسير الأشتر الى مصر وقال له : « فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت »

فلما مر الأشتر بالقلزم استقبله صاحب خراج معاوية ، فعرض عليه النزول ، فنزل عنده ، وأتاه بطعام فلما اكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سما فلما شربها مات ، فظلت مصر بأمرة ابن ابى بكر . فازداد طمع معاوية فيها وهو يرجو منها خيرا ، فاستشار ابن العاص فقال : « على بها ، انى فاتحها الاول ، ومن أولى بها منى ؟ » . وجرد جيشا كبيرا وسار قاصدا مصر فلما علم محمد بحملته ، بعث الى الامام يستنجده ، وعلمت اسماء بذلك فسارت اليها كما تقدم

وكان محمد لم ير اسماء منذ افترقا فى البصرة يوم خرج مع اخته ام المؤمنين الى مكة . على انه علم بما دار بينها وبين الامام على ، على

اثر وقعة الجمل فى شأن خطبتها للحسن ، اذ أخبره الحسن نفسه بذلك وهو لا يدرى انه مناظره عليها ، وقد سر محمد مما قاله الامام على من أن غموض نسبها يمنع الحسن من زواجه بها ، كما سره تحققه من بقاء اسماء على عهده . واخبره الحسن أيضا انها سارت الى بيت المقدس لمعرفة اسم ابيها ولكنه نظرا الى اشتغاله بأمارة مصر وما احاط بها من المشكلات وما قام فيها من الثورات المتوالية التى اضرم نارها دعاة عثمان فى خربتا وغيرها ، لم يتمكن من مكاتبتها ، ولكنه كان يسأل عنها ويتحسس أخبارها . فكان تارة يعرف مقرها وطورا لا يعرفه . وآخر ما علمه انها كانت فى مجلس الامام على يوم خالفه اصحابه فى قبول التحكيم ، وسمع ما أظهرته هناك من الحمية ، فتذكر حديثها وتصورها امامه تشير بيدها وتتكلم وتتهدد ، فارتاح لتلك الذكرى واشتاقت نفسه للقياها

على انه عاد فتذكر ما رآه الامام على من حيلولة غموض نسبها دون اقتران الحسن بها ،فقال فى نفسه : « اذا عرفت اباها كان امرها اشكالا فان الحسن لا يتخلى عنها ، واذا ارادها الحسن وطلبها له ابوه فكيف اطلبها انا » . فلما تخيل ذلك عظم عليه الامر ، وتمنى لو بقيت على جهلها نسبها فتكون أقرب اليه ، وصورت له الغيرة أن حرمانهما معا منها خير من ان يأخذها احد غيره

وما زال يردد هذه التصورات فى ذهنه حتى جاءه كتاب منها بموت القسيس وضياع السر ، وقد أشارت فيه الى رغبتها فى المعيشة معه بوصفها أختا أو صديقة ، فتحقق صدق مودتها وبقاءها على العهد فسر سرورا عظيما ، ولبث ينتظر عودتها وهو يكرر تلاوة الكتاب وقد استأنس به لانه هاج أشجانه بعد أن طال زمن الفراق ، وكان كلما تلا الكتاب تصور أسماء واقفة بين يديه تخاطبه ويخاطبها . ولكن استئناسه بوجودها لم يطل لاشتغاله بمهام الحرب . فبينما هو ذات يوم فى الفسطاط عاصمة الديار المصرية فى ذلك الحين اذ جاءته عيونه بخبر أهل الشام ، وانهم حاملون عليه بقيادة عمرو بن العاص

وكان عمرو قد كاتب محمدا يطلب اليه التسليم ، فأرسل محمد الكتاب الى على يستنجده ، فكتب اليه على أن يجمع شيعته ويندبهم للقتال ، ووعده بانفاذ الجيوش لنجدته ، فأخذ محمد فى التأهب بمن عنده من الرجال ، فجهز كنانة بن بشر فى الفين ، وسار هو فى أثره بألفين

أما عمرو فانه دخل مصر من الشرقية وجعل يسرح الكتائب كتيبة بعد كتيبة ، وكنانة يلقى كتائبه ويفرقها ، حتى كاد الفشل يحيط

بجنود الشام لو لم تأتهم نجدة قوية بقيادة معاوية بن حديج فاشتد ازرهم

اما جند مصر فلم تأتهم نجدة لتقاعد العراق عما دعاهم اليه علي ، ولكنهم حاربوا حربا شديدة دافعوا فيها دفاع الأبطال ، ونزل كنانة عن فرسه ، وما زال يقاتل حتى قتل

▭

سارت أسماء من الكوفة ، وكانت كلما تقدمت نحو مصر ازداد قلقها على محمد . وكانت قادمة وحدها على جوادها فاضطرها ذلك الى السير بجوار المدن استئناسا بالناس ومخافة العطش ، فسارت على ضفاف الفرات ثم تحولت الى الشام حتى وصلت الى دمشق ، فسمعت هناك بمسير حملة عمرو ، فسألت عما حدث بعد ذلك ، فعلمت أنه بعث يستنجد معاوية وأن جيش مصر غالب . فسرت ولم تمكث في دمشق الا ريثما استراحت وركبت تطوى الصحراء الى مصر ، ولما دنت من العريش وقيل لها أنها على حدود مصر ، تذكرت ما قاله رئيس دير البصرة عن أمها ، وأنها ولدتها في مصر ، حيث عرفت يزيد هناك . فهاجت أحزانها ولكن تفكيرها في محمد شغلها عن كل ذلك

ولما دخلت مصر مرت أولا بالفرما ، وهي مدينة كانت فيما يجاور بور سعيد الآن . وما كادت تصل اليها حتى أخذت تسأل عن أمر الحرب بين محمد وعمرو ، فأخبروها أن ابن العاص جاءته النجدة بعد أن كاد يفشل ، ولحظت من خلال حديث القوم أنهم على دعوة عمرو وانهم ميالون الى معاوية ، فانقبضت نفسها وخرجت من الفرما لاتلوى على شيء ، وبحثت عن مكان القتال فقالوا انه في ضواحي الفسطاط ، فجدت في السير . وكانت في كل سفرها لا تنام في الليل الا قليلا حتى وصلت الى بلبيس فرأت أهلها في هرج ، ورأت جماعة من الناس يدخلونها وفيهم من ربط يده او شد رجله أو عصب رأسه ، فعلمت أنهم عائدون من القتال . فاضطربت وسألت في ذلك فقالوا : « ان جنود الشام تكاثروا بمن انضم اليهم من أهل مصر الذين هم على دعوة عثمان ، وقد بايعوا معاوية وهو بعيد . وأن كنانة بن بشر قتل وتشتت جند مصر . فسألت عن محمد فلم ينبئها بخبره مخبر ، فاختلج قلبها في صدرها وقالت : « ومتى كان ذلك ؟ » . قالوا : « كانت الوقعة أول من امس وقد دخل عمرو الفسطاط »

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فلم تستطع صبرا فركبت وقصدت الى مكان الوقعة وعيناها تحدقان فيما أمامها لاتبالى ما يهددها من الخطر

وسدل الليل نقابه فلم تعد تستطيع النظر الى بعيد ، وخافت ان تضل الطريق ففكرت فى الامر وهى سائرة الهوينى وقد تهيأت للدفاع بسلاحها اذا اعترضها عدو . فما لبثت أن رات القمر قد بزغ فتلقته بالترحيب وأحست عند رؤيته بانفراج الازمة ، ولكنها رأت بعضه ناقصا وهو قبيل ربعه الاخير فخيل اليها لفرط انشغالها بأمر الحرب أنه خارج من المعمعة وقد شطب وجهه بالسيف

ولما طلع القمر استنارت وجدت فى السير تلتمس الفسطاط . وكانت لما خرجت من بلبيس ترى بعض المارة قادمين اليها افرادا وازواجا ، ولكنها لم تكد تبعد عنها حتى خلت الطريق من الناس ، فظنت نفسها سائرة فى طريق لاتؤدى الى الفسطاط ، فوقفت وتبينت الجهات جيدا فرات انها اخطأت الجهة والتفتت فلم تر امامها الا صحراء قاحلة فرجعت يمينا حتى أصبحت فى أرض زراعية وسارت نحو الجنوب ، والقمر الى يسارها يعلو رويدا رويدا حتى أصبح يريها الأشباح عن بعد . ووادى النيل أرض منبسطة لا جبال فيها ولا أودية

ومضي معظم الليل وهى جادة فى سيرها حتى تعبت وجاعت واحست بالبرد يقرسها وهو شديد فى مصر بعد منتصف الليل حتى فى ابان الصيف . فترجلت ومشت لتدفأ ، وقادت جوادها والجو هادىء والارض خالية من الناس لا تسمع غير وقع حوافر جوادها وصهيله

وبينا هى ماشية تفكر فى شأنها اذ سمعت جوادها يصهل وقد أجفل ، فالتفتت الى ما اجفله فرات شبحا منطرحا ارضا وشمت رائحة منتنة . فدنت من الشبح فاذا هو جثة قتيل جائفة فخفق قلبها وعلمت أنها على مقربة من مكان الوقعة ، فتجلدت وقد شعرت منذ رات تلك الجثة بارتعاش نسبته الى البرد وما هو فى الحقيقة الا نتيجة ما طرق ذهنها من التصورات المرعبة عن محمد

ومشت والجواد وراءها والروائح تتعاظم ثم رات جوادها اجفل ثانية اجفالا عظيما من جيفة جواد وراءها جيف كثيرة تطايرت عنها الكواسر وقد حلقت فى الجو وصفقت فى طيرانها تصفيقا زاد الفرس اجفالا، فارتبكت فى امرها ، وهى تود البحث بين الجيف مخافة ان يكون محمد بينها والجواد يمنعها باجفاله وصهيله ، فعمدت الى شجرة ربطته اليها وعادت وقلبها يخفق وركبتاها ترتعدان وعيناها تحدقان فى تلك الساحة وفيها الجثث مبعثرة هنا وهناك ، وبين القتلى من استلقى على

ظهره وبسط ذراعيه كأنه يستقبل شيئا يستغيث به وقد جعله البلى جلدا على عظم وأكلت بعضه النسور ، ومنهم من انبطح على بطنه وقد قبض باحدى يديه على رمح وبالأخرى على التراب. ورأت هناك رؤوسا مدحرجة وجثثا بلا رؤوس ، تراكم بعضها فوق بعض

وواصلت سيرها وهي تجر نفسها جرا بين تلك الجيف . وتحاذر أن تدوس على يد أو رجل أو راس ، وقلبها يخفق خفقانا شديدا تكاد تسمعه . ولو تأتى لها أن تنظر الى وجهها فى مرآة لرأته اشد امتقاعا من تلك الجثث ، وتعبت من التفرس في الوجوه والثياب وأثرت تلك الرائحة الكريهة فى راسها مع ما كانت فيه من التعب والجوع . فأصابها دوار وخافت أن تسقط فوق القتلى فتداركت نفسها وتنحت الى الشجرة التى ربطت جوادها اليها وجلست هناك وأسندت راسها الى جذعها تلتمس الراحة . ولكن افكارها ظلت تائهة ولم تبرح صورة محمد مخيلتها . ولم تكد تلقى راسها حتى غلب عليها النعاس فأغمضت جفنيها فتمثل لها محمد مقتولا فارتعدت فرائصها ونهضت مذعورة . وبينا هى تنهض رأت الفرس يمد راسه الى الارض فالتفتت فرأته لفظ شيئا مضغه بين اسنانه فسمعت له صوتا كصوت القصبة اذا كسرت بين الأضراس ثم ما لبثت أن رأت الفرس يلفظ تلك الهنة فلمحت فيها شيئا أبيض فتناولته فاذا هو قصبة فيها رق ، فنشرته فاذا هو كتابها الى محمد ما زال فى قصبته كما أرسلته اليه ، فهاجت شجونها وتحققت ان محمدا كان فى الوقعة والقصبة معه فسقطت من ثيابه فى اثناء القتال . وساءلت نفسها : « اين هو ؟ » . وكانت قد يئست من وجوده هناك ، وفى ذلك اليأس فرح لأنها تحققت نجاته من تلك الوقعة فلما وجدت كتابها خافت أن يكون محمد قد قتل هناك فعادت الى الجثث تبحث فيها

وكان القمر قد تكبد السماء وصفا الجو وظهر ما أمامها جليا واضحا كأنها تنظر اليه فى رابعة النهار . وكانت لا تحتاج فى بحثها عن محمد الى امعان نظر ، فلو لمحت طرف ثوبه أو بعض عمامته عن بعد لعرفته، لأن صورته نصب عينيها ، ولكن الاثواب والعمائم تتشابه ، فلا تسل عن خفقان قلبها كلما رأت شبحا يشبهه

☐

وما زالت على تلك الحال حتى لاح الفجر وتبينت الوجوه فدارت بين القتلى تجدد البحث ، فطلع الفجر وهى تجول وتتفرس فلم تر اثرا

لمحمد فتحققت انه لم يقتل فى تلك المعركة . فلما سكن روعها احست بالتعب والنعاس والجوع فالتفتت الى ما حولها فرات بيوتا تكاد تتوارى لبعدها فعلمت انها منـــازل اهل القرى ، فاتجهت اليها تلتمس طعاما وعلفا لجوادها فوصلت الى احـــدها وحيت اهله . فرات امراة معهـــا صبيان عراة يحومون حولها وهى تحلب لهم لبنـــا من نعجة . فلمـــا رأى الصبيان أسماء قادمة على فرسها صاحوا بأمهم ففزعت وفزعوا جميعا . فتركوا النعجة ودخلوا الكوخ فنادتهم أسماء وطيبت خاطرهم فعادوا فقالت لهم : « عندكم علف لهذا الجواد ؟ » قالوا : « نعم » . واعتذروا من خوفهم بأنهم قاسوا اهوالا كثيرة من المحاربين

واكرموا وفادة أسماء وجاءوها باللبن ، وللجواد بالعلف ، والتمست حصيرا تتكىء عليه ، فنهض صاحب الدار فأخذ الفرس وشده الى وتد وجاء بحصير كان قد خبأه تحت فراشه أعواما حرصا عليه ، فاتكأت أسماء على ذلك الحصير فى ظل الكوخ ونامت نوما عميقا لم تفق منه الا قبيل الغروب

ولم تفتح عينيها حتى رات رســـولها الذى انفذته بكتابها الى محمد واقفا عند راسها ، فصاحت فيه : « اين كنت واين هو محمد ؟ »

فعض على شفته واشار بعينيه أن تسكت مخافة أن يسمعها احد من اهل البيت ، فنهضت ونفحت اهل الكوخ بما تيسر لها وسلمت الفرس الى الرجل ومشت الى جانبـــه ، وسألته عما يعلمه عن محمد ومكانه وما الذى جاء به الى ذلك المكان

فقال : « ابشرى يا مولاتى ان محمدا قد نجا من هذه الوقعة »

فقالت : « وأين هو ، وماذا تم له ، اخبرنى ؟ »

قال : « انى ما فارقت محمـــدا منذ جئته بكتابك ، وقد آنست فيه عطفا على لا أدرى سببه ، وحيثما توجه سرت فى ركابه اما راجلا او راكبا . ولما كانت الوقعة منذ يومين فى هذا السهل وقتل كنانة بن بشر قائد مقدمته ، تفرق رجاله حتى اصبح وحيدا فألححت عليه أن يخرج من المعمعة خيرا من ان يقتل » . فلما وصل الرسول الى هـــذا الحد امتقع لون اسماء وشخصت ببصرها لسماع تتمة الحديث

فقال : « وأما هو فعزم على البقاء فى ساحة القتـــال الى الموت ، ولـــكنى ألححت عليه فى الخروج فأطاعنى ، فمشينـــا حتى انتهينا الى خربة جنب الطريق بالقرب من هذا الجبل (واشار الى المقطم) فأوينا اليها ، وقضينا يومين بلا طعام ولا ماء . فلما رايت ظمأ ســـيدى استأذنته فى الخروج لآتيه ببعض الماء والطعام ، فأوصانى بأن أبحث عن كتابك فقد كان معه فى أثناء المعركة وفقد منه »

فقالت : « اما الكتاب فقد وجدته بل وجده هذا الجواد . واين محمد الآن ؟ هلم بنا اليه ومعنا الماء »

فقال : « انه حيث قلت لك على مسافة قصيرة من هنا »

قالت : « احمل له الطعام والماء وهلم بنا »

قال : « اما من خوف علينا ؟ » . قالت : « ان الشمس لاتلبث أن تغيب ويخيم الظلام فلا يرانا أحد ، وأرى ان نبقى هذا الجواد هنا لئلا يدل علينا » . فأخذ الرجل الجواد وعاد الى الكوخ . وبعد قليل رجع بقربة مملوءة ماء وبأرغفة وشيء من الجبن

وسارت اسماء ورسولها وقد خيم الظلام ، وكان يمشي امامها يدلها على الطريق وهى تكاد تتعثر بأذيالها للهفتها وسرعتها. وقضت مسافة الطريق لاتتكلم لشدة اضطرابها لما تتوقعه من الانفعال عند لقيا محمد

وقضيا ساعة سائرين لايكادان يميزان الطريق لو لم يكن جبل المقطم ظاهرا امامهما فى الافق فجعلاه وجهتهما ظنا بأن محمد مختبىء بالقرب منه . وكانا يمران تارة بين خيام وآونة بأعشاش واكواخ صغيرة ، حتى وصلا الى جانب المقطم ، فتقدم الرجل وسارت اسماء فى أثره ومتى هو يلتمس الطريق بين أنقاض الخرائب وهى تتبعه وقلبها يدق توقعا للبغتة التى ستصيبها عند اللقاء بعد طول الغيبة

وبعد هنيهة اختفى الدليل فى ظلمة مدلهمة هناك ، فنادته بصوت منخفض فقال : « لقد وصلنا » . فدخلت فى اثره الى بيت خرب لم يبق منه الا الجدران وبعض السقف ، ولم تكد تدخل حتى سمعت الرجل يقول : « اين انت يامولاى ؟ » . فلم يجبه احد. فقالت اسماء : « لعله كلن هنا » . قال : « نعم ، تركته فى هذه الخربة »

قالت : « فلنبحث عنه فى غيرها فقد تشابهت الخرائب عليك . واخذا يفتشان كل الاماكن المجاورة فلم يقفا له على أثر ، حتى تعبا وملا التفتيش فقالت اسماء : « ماقولك فى غيابه ؟ » . قال : « لا أدرى ، واخشى أن يكون عمرو قدعرف مكانه فبعث من قبض عليه وهواعزل »

فلما سمعت ذلك رجف بدنها وقالت : « وكيف العمل الآن ؟ »

قال : « انى طوع امرك » . قالت : « عد بنا الى حيث كنا ، نلبث هناك الى الصباح ثم نسير نستأنف البحث عنه »

وعادا حتى اتيا الكوخ وعرفاه من صوت الجواد فانه حالما اشتم رائحة القادمين صهل ورفس الارض بحافره ، وباتت اسماء عند ضاحية الكوخ ، وبكر الرجل فى الصباح للبحث عن محمد ومكثت هى فى انتظاره

مقتل محمد بن أبي بكر

طال انتظار اسماء عودة رسولها ، فقلقت وندمت لأنها لم تخرج معه للبحث عن محمد ، واضحت الشمس ولم يرجع فازداد قلقها ولم يعد يطيب لها مقام فمشت بين تلك الاكواخ الى الجهة التى تتوقع أن يكون رسولها قادما منها حتى بعدت مسافة . وبينما هى تتطلع الى آخر الطريق اذ رات شبحا مسرعا نحوها عرفت من قيافته انه رسولها فاختلج قلبها وحدقت لترى مايبدو منه ، فاذا هو يسرع حتى وصل اليها يلهث من شدة التعب وقد احمرت عيناه وكلل العرق جبينه

فصاحت فيه : « ماوراءك ؟ . قل . ماخبرك ؟ . هل وجدت محمدا ؟ » . قالت ذلك وقلبها يزداد خفقانا

فقال وهو يلهث لهثا شديدا : « آه يامولاتى . نعم وجدته . ولكنه . ولكنه فى خطر من القتل . . »

فصاحت : « وكيف ذلك ؟ ومن يقتله ؟ »

قال : « انهم علموا بمكانه فى الخربة قبل وصولنا اليها أمس . . آه ضاق صدرى من التعب امهلينى أستنشق الهواء . دلهم عليه بعض المارة ، فحملوه وهو أعزل الى الفسطاط . . »

فقالت : « وبعد ذلك . ماذا جرى ؟ »

قال : « لما خرجت فى هذا الصباح قصدت الى الفسطاط راسا لأنى أعلم انه لايبرح مكانه اذا لم يقبضوا عليه ودخلت الجامع وتظاهرت بالصلاة ، فرأيت ابن العاص، وعبد الرحمن بن ابى بكراخا سيدى محمد، وسمعت عبد الرحمن يقول لعمرو : (أتقتل أخى صبرا ، ابعث الى ابن حديج فانهه عنه) . فعلمت ان معاوية بن حديج هو الذى قبض عليه ويريد قتله . فطار صوابى وودت ان اعرف أين هو ابن حديج لأذهب اليه ، فسمعت عمروا يقول لأحد رجاله : (اذهبوا الى ابن حديج وقولوا له ان يكف عن قتل محمد ويأتينى به) . فخرجت فى اثر ذلك الرسول حتى وصلت الى مكان بين الخربة والفسطاط ، فرأيت فيه جمعا متكاثفا بينهم ابن حديج ومعه رجاله ، وقد أحاطوا بمولاى محمد . وقد رق جسمه من العطش والجوع . وتقدم رسول عمرو الى ابن

حديج وابلغـه امر عمرو فقـال : (قتلتـم كنانة بن بشر ، واخلى أنا محمدا . . أ هيهات هيهات . . »

ولاتسل عن اسماء عندسماعها هذا النبأ ، وكيف كان وجهها يتلون . فتطاولت بعنقهـا وحدقت ببصرها لترى ماتم بعـد ذلك وهى تقول : « جزاهم الله شرا على هذا القول . لا . لا . لا اظنـه يقتله رغم امر عمرو ولكنه أساء الادب »

فقال الرجل : « ولو اقتصرت اساءته على ذلك لكان خيرا ، ولـكنه منع عن سيدى الماء فقد سمعته باذنى يطلب منهم أن يسقوه ، فقال له ابن حديج بقحة واستخفاف : (لاسـقانى الله ان سقيتك قطرة ابدا ، انكم منعتم عثمان شرب الماء ، والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم الغساق) . . »

فلما سمعت اسماء ذلك قالت : « خسىء النـذل » . واصـاخت بسمعها ، فأتم الرجل كلامه وقال : « فاجابه سيدى محمـد : (يا ابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك اليك ، انما ذلك الى الله يسقى اوليـاءه ويظمىء اعداءه أنت وامثالك . اما والله لو كان سيفى بيـدى ما بلغتم منى هذا) . . »

فلم تعد اسماء تستطيـع صبرا على سماع تتمة الحديث وقالت : « وماذا جرى ؟ »

قال : «سمعت ابن حديج يقول له : (أتدرى ما اصنع بك ؟. ادخلك جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار) . . »

فصاحت اسماء والدمع يتساقط من عينيها وهى تتشدد وتتجلد : « خسىء ابن اليهودية انه لايجسر على ذلك »

فقال الرجل : « فلما سمعت قول ابن حديج أسرعت اليك بالخبر ، لأنى رأيت الشر باديا على وجوه القوم »

فالتفتت اسماء وراءها فرأت الكوخ بعيدا ولا سبيل لها الى الرجوع اليه لتمتطى جوادها ، ولم تعد تطيق الصبر عن المبـادرة الى محمـد فسألت : « هل يبعد المكان من هنا ؟ » . قال : « انه قريب» . فقالت : « هلم بنا اليه» . ومشت وهى لاتدرى كيف تنقل قدميها لعجلتهـا ولهفتها ، والرجل لايستطيع اللحاق بها لأنه كان لايزال تعبا وليس فى قلبه ما فى قلبها من نار تتعجل خطواتها . ومضت ساعة وهما سائران دون أن تدرك المكان ، فندمت لمجيئها ماشية وقد كانت تظن المسـافة اقصر من ذلك

ثم اشرفا على ساحة فقال الرجل : « كانوا فى هذه الساحة ، ويلوح لى انهم ساروا الى الفسطاط ، فمشت حتى اتت المكان الذى كانوا فيه

فرات آثار دم وكأن شيئا قد جروه جرا . . فارتعدت فرائصها وجد الدم فى عروقها وصاحت : « ويلاه انهم قتلوه . نعم قتلوه . آه يامحمد ياحبيبى » . فقال لها الرجل : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت : « اما ترى الدم وآثار جر الجثة » . ثم لطمت وانحدر الدمع على خديها ، ومشت تتبع آثارالجروعيناها لاتريان الطريق لما يغشاهما من الدمع ، فلم تمش قليلا حتى اشتمت رائحة شواء فمسحت عينيها وتطلعت فرات دخانا يتصاعد من خربة . فايقنت انهم قتلوه واحرقوه فى جوف الحمار كما قالوا.

فهرولت الى الخربة لاتلوي على شيء ، فرات هناك جيفة حمارحولها النار موقدة وجوفها مشقوق فتفرست فى ذلك الشق فرات من خلال اللهيب رأس محمد مغمض العينين كأنه فى سبات عميق ، فصاحت : « محمد ، آه ياحبيبى . لقد صح قولهم وفعلوا ما ارادوا ، قتلهم الله » . وهمت بأن تلقى نفسها فى النار فأمسكها الرجل من ثوبها . فلطمت وحلت شعرها واخذت فى الندب والعويل وهي تمسح عينيها كل لحظة وتنظر الى جثة محمد من خلال اللهيب فتراه لايزال نائما ، فتناديه فلا يجيب ، فتهم بأن تلقى نفسها فوقه والرجل يمسكها

فضاقت بها الحيل فجعلت تدور حوله وتندبه وتندب نفسها وتقول : « يا لشقائى . . آه يا حبيبى يا محمد ، انك لم تلق حتفك الا من سوء طالعى فلو لم احبك لم تمت . . ويلاه . . ويلاه . ماذا اعد من النحوس المحدقة بى . . لا ريب انى ولدت شؤما على نفسى وعلى كل من هم حولى. نعم عاكسنى الدهر ولكنه لم يصب منى مقتلا لأن آمالى كانت عالقة بحبيبى محمد وقد صبرت فى مصائبى أملا فى لقائه ، ورضيت من الدنيا ان أكون بقربه . ولكن آه . آه . . لولا هذه الآمال لم تقتل يا محمد ، لقد قتلت ليتم شقائى . . فأنا سبب القتل . ولكن كيف تموت هكذا ؟ كيف يختلط جسدك بالتراب ؟ بل كيف تموت هذه الميتة وابقى انا حية . . كلا ثم كلا »

قالت ذلك والقت نفسها فى اللهيب كأنها تعانق محمدا ووجهها فوق وجهه . فأسرع الرجل الى انتشالها فاذا هى تختلج اختلاج الموت

فبكى الخادم بكاء مرا وصبر حتى خمدت النار ، فجمع رفات الحبيبين ووضعه فى قبر واحد وقال : « انا لله وانا اليه راجعون »

روايات تاريخ الإسلام

صدر منها :

- فتاة القيروان
- الأمين والمأمون
- غادة كربلاء
- المملوك الشارد
- عروس فرغانة
- عبد الرحمن الناصر
- عذراء قريش
- فتح الأندلس
- أرمانوسة المصرية
- جهاد المحبين
- صلاح الدين الأيوبي
- الانقلاب العثماني
- العباسة أخت الرشيد
- استبداد المماليك
- أبو مسلم الخراساني
- شجرة الدر
- شارل وعبد الرحمن
- أحمد بن طولون
- فتاة غسان
- أسير المتمهدي
- الحجاج بن يوسف
- ١٧ رمضان